

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم اللغة وآدابها

رقم نعت رقم 1288
تاريخ 27 ماي 2008
الرقم

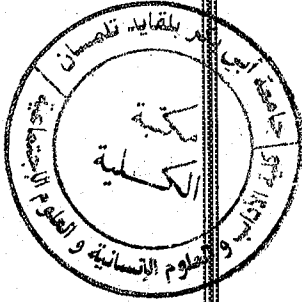
التضاد

في

شعر الدعوة الإسلامية

أيام الرسول صلى الله عليه وسلم

- دراسة دلالية بلاغية -



أطروحة لنيل شهادة الماجستير

في

الأدب العربي القديم

بإشراف الأستاذ الدكتور

عبد القادر قروش

إعداد الطالب

امحمد يقوته نور

السنة الجامعية 2000 - 1422/2001هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّا كَسَبَ
سُجِّدْنَا لَهُ سُنَّةَ مَنْ
قَدِ امْتَحَنَّا

كلمة شكر

أتقدم بالشكر الجزيل والتقدير:

- إله أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور عبد القادر

قرّوش على قبلوه الإشراف على موضوع أطروحتي،

وعلى توجيهاته، وعلى متابعتة الدائمة لإنجاز هذا

البحث المتواضع.

- وإلى الأساتذة والدكاترة الكرام أعضاء اللجنة

الموقرة على قبولهم مناقشة هذه الأطروحة.

- وإلى كل من أعانني كتاباً، أو سهّل لي سبيل

الوصول إليه.

المقْتَمَة

إنّ لكلّ شاعر أدواته الفنيّة التي يحبّها لتنسيق صورهِ الشعريّة وإيصال معانيهِ إلى الآخرين. والحياة-من حولنا-مبنية على الائتلاف والاختلاف والتضادّ. ولغة الشّاعر تتشكّل من خلال تعامله مع المؤتلفات والمختلفات والمتضادّات، وتفاعله معها لإنضاج تجربته الشعريّة ووسمها بسمات خاصّة مميّزة.

وقد نجد التّضادّ أداة فنيّة مميّزة في شعر شاعر أو جملة من الشّعراء في الشعر العربيّ القديم أو المحدث، يلجؤون إليها للتعبير عن ذواتهم وعن رؤيتهم الخاصّة للحياة وللكون. وقد تبدو لغة هؤلاء الشّعراء متناقضة في ظاهرها، ولكن إذا أنعمنا النّظر قليلاً، وجدناها تستمدّ روعتها من ذلك التناقض الكامن فيها، والذي يعبر أحياناً عن الأنسجام والوفاق.

ولا نستبعد أن يصيب الشّاعر القديم أو المحدث كثير من القهر والغبن إذا تعامل البلاغيّون والنقاد مع ميزة التّضادّ التي تعلي من قدر شعره بين الشّعراء، بمزيد من المصطلحات وتفرّعاتها التي تلقي أضواء باهتة على صورهِ الشعريّة فتطمسها. من هنا، شغلنا نفسنا وركّزنا جهدنا في هذا البحث المتواضع على محاولة تصحيح نظرة البلاغيّين العرب القدامى إلى التّضادّ، على أنّه مجرد محسن معنويّ بديعيّ يؤتى به في الكلام لتحسينه، وإضفاء الجمال والرونق عليه، لا غير.

وقد شجّعنا على المضيّ في هذا السبيل ما صدر من كتابات متميّزة لدى المعاصرين الذين تمرّدوا على النّظرة البلاغيّة القديمة إلى فنّ التّضادّ، نذكر منهم رجاء عيد في كتابه «في البلاغة العربيّة»، ومخير سلطان في كتابه «البدیع ناصیل وتجديد»، وحسن فتح الباب في كتابه «رؤية جديدة لشعرنا القديم» حين ربط القدرة التعبيريّة الرائعة لدى الشّاعر العباسي مهيار الديلميّ بتمكّنه من استخدام فنّ التّضادّ تمكّناً حقق له ذلك الأسلوب الذي نطلق عليه السهل الممتنع.

وقد اخترنا أن نقف عند شعر الدعوة الإسلامية أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، لما حدث من رجّة في قيم المجتمع العربيّ الجاهليّ بظهور الإسلام، وما نشأ من صراع مبرير عقيديّ، وقيميّ، وماديّ بين أنصار الدعوة الإسلامية وحلفاء الكفر والشرك.

ولقد اعتمدنا في هذه الدراسة على المنهج التاريخيّ، أدواتنا في ذلك الاستقصاء والمقارنة والتحليل والاستنتاج. واقتضت طبيعة موضوعنا أن نبحث عن جذور مصطلح التّضادّ عند البلاغيّين العرب القدامى، واستقصائهم للتّضادّ في الشّعْر القديم والمحدث، وتحديدهم لأنواعه وشواهد، وكان علينا أن نقوم بجهد الاستقصاء للتّضادّ، متوقّفين عند شعر الدعوة الإسلامية وما سبقها من شعر جاهليّ، لنكشف عن مدى استخدام الشعراء للتّضادّ كما عرفوه معرفة ممارسة فنيّة لا معرفة اصطلاحية، ونبحث عن دلالاته الممكنة في النّصوص المدروسة.

وقد قسمنا بحثنا إلى مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة. فشرحنا في المقدّمة دواعي اختيارنا لهذا الموضوع، وأسباب اعتمادنا على المنهج التاريخيّ. وخصّصنا الفصل الأوّل لبحث مصطلح التّضادّ ضمن فنون البديع، ثمّ التّأسيس له نظريّاً عبر المستويات المعجميّة والنّحويّة والبلاغيّة والدلاليّة. وكان واجبا علينا

أن نفرّد فصلاً ثانياً لدراسة التّضادّ في شعر ما قبل الدعوة الإسلامية، واقتصرنا على المعلّقات العشر على أساس أنّها أرقى نموذج للشّعْر الجاهليّ، كما ربّنا شعراء المعلّقات حسب سني وفاتهم، رغبة منّا في متابعة استخدامهم للتّضادّ في شعرهم، ورصد ما يمكن أن يطرأ عليه من تطوّر محتمل. أمّا الفصل الثالث فقد ركّزنا فيه البحث في شعر الدعوة الإسلامية أيام الرسول صلى الله عليه وسلم - وهو موضوع بحثنا هذا - عمّا ورد من تضادّ في العقيدة، وفي القيم، وفي الموقف بين أنصار الدعوة الإسلامية ومعارضيهما من الكفار والمشركين.

ولعلّ القارئ لبحثنا المتواضع سيفتقد-أثناء دراستنا الدلالية- تلك
المصطلحات المعهودة التي درج البلاغيون العرب القدامى على التنويه بها لأنواع
التضاد، فقد ارتأينا أن نبتعد عنها مكتفين بتحليل التضاد داخل السياق، لأنّ التوقف
في كلّ مرّة للإشارة إلى نوع التضاد الذي استخدمه الشاعر، يعطل سيرورة
الدراسة الدلالية، ويطمس عمق صورته الشعريّة ويزري بمعانيه. وقد ختمنا بحثنا
بجملة من الاستنتاجات التي تمكّنا من التوصل إليها بعد هذه الدراسة المتواضعة.

فإنّ وقفنا إلى بعض الصّواب فذلك من توفيق الله تعالى، وإلا فقد بذلنا
وسعنا ولم نأل.

والله نسأل التوفيق والسداد.

الفصل الأول: مصطلح التضاد

أ- مصطلح التضاد ضمن فنون البديع.

ب- تحديد مصطلح التضاد عبر المستويات

المعجمية، والنحوية، والبلاغية، والدلالية:

1- المستوى المعجمي

2- المستوى النحوي

3- المستوى البلاغي

4- المستوى الدلالي

التضادّ سنّة من سنن الحياة، ومبدأ هام في الفنون بعامة، ولعله-أيضا- من الأمور المنطقية التي لا تحتاج إلى مجهود شاقّ، إذ الضدّ أقرب خطورا بالبال إذا ذكر ضده. وإذا كانت فنون البديع تعتمد على التناسق، فإن هذا التناسق يمكن أن يعود إلى التضادّ كما يرجع إلى التماثل.

ومما لا شك فيه أن الشاعر العربيّ، منذ العصر الجاهليّ، قد أدرك بذكائه الفطري وطبعه السليم ما لبعض الأساليب البلاغية- دون أن يعرف أسماءها وأقسامها- من جمال ووقع في نفوس السامعين، فاستخدمها الشعراء- وإن اختلفوا قلّة أو كثرة- في أشعارهم بحسب ما يتطلبه تشكيل الصورة الشعرية والوفاء بالمعنى. ولما جاء الشعراء المحدثون في العصر العباسي الأول، ووقفوا على ما في تلك الأساليب - على قلتها- من جمال وطفرة، عمدوا إلى الإكثار منها، والتكلف في طلبها رغبة في التجديد في الألفاظ والمعاني وفي الصياغة الشعرية بعامة، وتمشّيا مع الحياة الجديدة، ومجاراة لروح العصر الذي ازدهرت فيه العلوم، واختلفت الثقافات، وامتزجت الأجناس، وتبادلت التأثير والتأثير فيما بينها.

لكن ذلك التجديد المتمثل في التأنق في الألفاظ والإغراق في المعاني قوبل بالرفض من كبار الرواة واللغويين كأبي عمرو بن العلاء¹ والأصمعي² وابن الأعرابي³ لإيثارهم كل قديم وتعصبهم له في وجه كل جديد؛ فقد دافعوا عن الشعر الجاهلي وجعلوه مقياسا للجودة، حتى إن ابن الأعرابي قال في شعر أبي تمام: "إن كان هذا شعرا فما قالتها العرب باطل"⁴، فهو يضع شاعرا واحدا في موازنة مع الشعر العربي القديم كله ليزري على شعره، ويرده جملة وتفصيلا.

ومنذ منتصف القرن الثالث الهجري، ظهرت بوادر التسوية بين الشعراء القدماء والمحدثين في الإجابة على يد أبي عمرو الجاحظ المتوفى سنة 255هـ، والذي شكك في

¹ - هو أبو عمرو زيان بن العلاء المازني المتوفى سنة 154هـ، أحد القراء السبعة، وكان له شغف بالرواية وجمع علوم العرب وأشعارهم، وعنه أخذ أكثر نحاة ذلك العصر فضلا عن روايته وأدبائه.

² - هو عبد الملك بن قريب الأصمعي المتوفى سنة 216هـ من أهل البصرة، كان كثير الحفظ للشعر، له "الأصمعيات"، وكتب أخرى في موضوعات مختلفة.

³ - هو أبو عبد الله بن زياد بن الأعرابي من علماء الكوفة المشهورين، توفي سنة 231هـ، له "النوادر" و"الأنوار".

⁴ - المرزباني: الموشح، تحقيق محمد علي الجاوي، دار نهضة مصر، ط 1965، ص 465.

مقدرة هؤلاء اللغويين والنحاة على تذوق الشعر الجيد في أي زمن صدر، حيث قال¹:
 "طلبت علم الشعر عند الأصمعي فوجدته لا يحسن إلا غريبه، فرجعت إلى الأخفش²
 فوجدته لا ينتقن إلا إعرابه، فعطفت على أبي عبيدة³ فوجدته لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار،
 وتعلق بالأيام والأنساب، فلم أظفر بما أردت إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب⁴
 ومحمد بن عبد الملك الزيات⁵. فالجاحظ - كأديب متفتح مقبل على كل جديد- يتهم هؤلاء
 العلماء بعجزهم عن مسايرة العصر عصر البديع الذي صار من مميزات الشعر الجديد،
 ومثارا للجدل بين النقاد حول أدب القدماء والمحدثين، أما هو فقد قرأ أشعار جملة من رواد
 البديع، واستحسنه، بل عدّه من خصائص العربية، فهذا الفن عنده "مقصود على العرب،
 ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة، وأربت على كل لسان، والراعي كثير البديع في شعره،
 وبشار حسن البديع، والعتابي يذهب في شعره في البديع مذهب بشار"⁶. فعلى الرغم من
 بروز عصبية الجاحظ للغة العرب في هذا القول، إلا أننا نلمس تفتح شخصيته على كل
 شعر جديد ما دام جيدا في معانيه وفي صياغته.

وفي المسلك نفسه مسلك إنصاف المحدثين، وفي الفترة الزمنية عينها، يمضي ابن
 قتيبة المتوفى سنة 276هـ في كتابه "الشعر والشعراء" موضحا أنه نظر بعين العدل في ما
 اختاره من أشعار لقناعة استقرت لديه مفادها أنه "لم يقصر الله العلم بالشعر والبلاغة على
 زمن دون زمن، ولا خصّ به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في
 كل دهر، وجعل كل قديم حديثا في عصره"⁷.

وحيث إنّ العلم بالشعر والبلاغة ليس مقصورا على اليونان، وأن اختراع الاسم لا
 يعني اختراع المسمّى⁸، فقد أراد ابن المعتز المتوفى سنة 296هـ أن يثبت أن البديع الذي

¹ ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجليل، بيروت (لبنان) ط5، 1981، ج2، ص105.
² أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش، من أشهر نحويي البصرة، أصله من خوارزم، توفي سنة 215هـ، من كتبه "المقاييس في النحو" و"تفسير
 معاني القرآن".

³ أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي من أهل فارس، كان له علم الإسلام والجاهلية، توفي سنة 210هـ من كتبه: "مجاز القرآن" و"غريب القرآن".
⁴ الحسن بن وهب: كان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات، وقد ولي ديوان الرسائل وكان شاعرا بليغا، ومرسلا فصيحاً، وهو أحد ظرفاء الكتاب،
 وله كتاب: ديوان رسائله.

⁵ محمد بن عبد الملك الزيات: كان شاعرا بليغا، وزر لثلاثة خلفاء، المعتصم والواثق والمتوكل، وبعد أربعين يوما من وزارته للمتوكل نكبه وقتله
 في النكبة، توفي سنة 233هـ، وله كتاب رسائل.

⁶ الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مؤسسة الخانجي بالقاهرة (مصر)، ط3، ج4، ص55-56.

⁷ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، در إحياء العلوم، بيروت، ط2، 1986، ص23.

⁸ الراجح أن مسلم بن الوليد أول من أطلق على تلك الأساليب التي احتفل بها المحدثون في أشعارهم اسم البديع أو اللطيف.

شغف به المحدثون، عرفته العرب في جاهليتها وإسلامها معرفة ممارسة فنية، وإن لم تعرفه معرفة علمية اصطلاحية. وبعد استقرار دقيق للتراث العربي منظومه ومنثوره، خرج ابن المعتز على أهل زمانه سنة 274هـ- بأول مؤلف اختص بالحديث عن هذا الفن القديم الجديد، وسماه "البديع"، وقد أبان في صدر مقدمته عن غايته من كتابه، فقال: "قد قدمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم أن بشّاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقبلهم¹، وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنه كثر في أشعارهم، فعرف في زمانهم حتى سمّي بهذا الاسم، فأعرب عنه ودلّ عليه."²

والقارئ لكتاب "البديع" يلمس كثرة شواهد مؤلفه من القرآن الكريم وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلام الصحابة رضوان الله عليهم، وكلام الأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين والمحدثين لأبواب البديع الخمسة بخاصة مما حسن منها وما عيب، وهي: الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، وردّ أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي وهو "الباب الخامس من البديع وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ"³. ثم أضاف إليها ثلاثة عشر لونا بديعياً عدّها من محاسن الكلام والشعر، وهي: "1- الالتفات -2- اعتراض كلام في كلام لم يتمم الشاعر معناه ثم يعود إليه فيتمّمه في بيت واحد -3- الرجوع -4- حسن الخروج من معنى إلى معنى -5- تأكيد المدح بما يشبه الذم -6- تجاهل العارف -7- هزل يراد به الجد -8- حسن التضمين -9- التعريض والكناية -10- الإفراط في الصفة "المبالغة" -11- حسن التشبيه -12- إعانات الشاعر نفسه في القوافي وتكلفه من ذلك ما ليس له، وهو ما عرفه البلاغيون المتأخرون بلزوم ما لا يلزم من القوافي -13- حسن الابتداءات."⁴

1- نقلهم: حاول التشبيه بهم، حاكمهم.

2- ابن المعتز: البديع، تحقيق إغناطيوس كراتشكوفسكي، دار المسيرة، بغداد (العراق) 1979، ص1.

3- المصدر نفسه: 53

4- عبد العزيز عتيق: علم البديع، دار النهضة العربية، بيروت، 1974، ص14.

فهذه الألوان البديعية الثمانية عشر كانت تأتي في أشعار القدماء عفو الخاطر وقليلة، في البيت أو البيتين من القصيدة الواحدة أو في مجموعة من القصائد، فتحظى بالاستحسان، حتى جاء الشعراء المحدثون من أمثال بشار بن برد المتوفى سنة 167هـ، وأبي نواس المتوفى سنة 198هـ، ومسلم بن الوليد المتوفى سنة 208هـ، فاستلطفوا هذا الفن وأكثروا منه، فعرفوا به وعُرفَ بهم، ثم إن حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شغف به حتى غلب عليه، وتفرّع فيه، وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف. وإما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين في القصيدة، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل¹.

ولعلّ غاية ابن المعتز الأسمى من كتابه لم تكن فقط إثبات أن المحدثين لم يخترعوا البديع الذي احتفلوا به، وكان مسلم بن الوليد أول من اقترح له هذا الاسم، وإنما أراد أن يثبت أن البلاغة في صورها وفنونها عربية الأصل، حيث نجد هذه الصور منبثة في تراثنا الشعري والنثري². وهو بهذا الموقف ينحاز إلى المحافظين من اللغويين باضطراره بمهمة الدفاع عن أصالة البلاغة العربية إزاء المتأثرين بفلسفة اليونان وبلاغتهم، ولكنه عند استشهاده بكلام القدماء والمحدثين يقف موقفاً وسطاً شبيهاً بموقف الجاحظ، إذ يسوّي بينهم في الإجابة، وينتقد في الوقت نفسه ما عيب من منظومهم ومنثورهم جميعاً.

وإن كان لابن المعتز السابق في جمع فنون البديع في مؤلف واحد، وبيان أنواعها وحدودها بشواهد الموفقة عما حسن منها وما عيب، حتى صار إماماً لمن جاء بعده من البلاغيين³، فمما لاشكّ فيه أنّ أغلب المصطلحات الثمانية عشر⁴ قد جمعها من كتابات اللغويين السابقين أمثال الخليل بن أحمد والأصمعي والجاحظ. فقد ذكر ابن المعتز الأصمعي المتوفى سنة 216هـ في الباب الثاني من البديع، في بداية حديثه عن التنجيس،

¹ البديع: ص 1.

² رجاء عيد: في البلاغة العربية، مكتبة الطليعة، أسبوط (مصر)، ص 14.

³ ما جمعه ابن المعتز في تلك الفترة من فنون البديع شمل جملة من مباحث البلاغة بعناها الأعم قبل أن تعرف بأقسامها: المعاني والبيان والبديع في القرون اللاحقة؛ فذكر من علم البيان الاستعارة والكناية والتشبيه.

⁴ سبق ابن المعتز إلى خمسة ألوان بديعية هي: ردّ العجز على الصدر، تجاهل العارف، تأكيد المدح بما يشبه الذم، هزل يراد به الجد، إعنات الشاعر نفسه (لزم ما لا يلزم)، (ينظر: البلاغة العربية في فنونها، محمد علي سلطاني، ص 11).

قال: "وهو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام، ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها على السبيل الذي ألف الأصمعي كتاب الأجناس عليها"¹. كما رد تسمية الباب الخامس إلى الجاحظ، فقال: "وهو مذهب سمّاه عمرو الجاحظ المذهب الكلامي. وهذا باب ما أعلم أنني وجدت في القرآن منه شيئاً، وهو ينسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً"²، ثم اكتفى بذكر شواهد شعرية ونثرية لهذا المذهب دون أن يحدده، "وأكبر الظن أنه هو والجاحظ جميعاً يريدان به طريقة المتكلمين العقلية في الاحتجاج والجدل والاحتتيال للعلل والمعادير"³.

وفي الباب الثالث من البديع، أسند المؤلف تعريف المطابقة—وهو موضوع بحثنا هذا—إلى الخليل بن أحمد⁴ وإلى أبي سعيد الأصمعي من بعده، قال: "قال الخليل رحمه الله، يقال: طابقتُ بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد. وكذلك قال أبو سعيد: فالقائل لصاحبه أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع، فأدخلتنا في ضيق الضمان؛ قد طابق بين السعة والضيق في هذا الخطاب"⁵.

وكأنه اطمأن إلى هذين التعريفين للمطابقة، فراح يوضحهما بشواهد كثيرة ومتنوعة لما استحسنته من المنثور والمنظوم للقديما والمحدثين، وختم هذا الباب بشواهد قليلة شعرية في أغلبها للمعيب من المطابقة، ولكنه لم يقسمها أقساماً ولم يضع مصطلحات، وإنما ترك المجال مفتوحاً لمن جاء بعده أن يضيف إلى ما ذكره إن رأى غير رأيه⁶.

وما دمنا قد وقفنا على مصطلح "المطابقة" ضمن أول مؤلف سبق إلى جمع فنون البديع، يجدر بنا أن نؤسس لهذا المصطلح نظرياً عبر المستويات المعجمية، والنحوية، والبلاغية، والدلالية.

1- البديع: 25.

2- المصدر نفسه: 53.

3- شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف بمصر، ط2، ص57.

4- هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي، اكتشف علم العروض، توفي في البصرة سنة 170هـ، له كتاب "العين" وهو أول قاموس عربي رتبته حسب مخارج الحروف.

5- البديع: 36.

6- المصدر نفسه: 58.

1- المستوى المعجمي:

التضاد: "الضدّ كلّ شيء ضادّ شيئاً ليغلبه، والسواد ضدّ البياض والموت ضدّ الحياة، والليل ضدّ النهار، إذا جاء هذا ذهب ذلك... وضدّ الشيء خلافه... وقد ضادّه وهما متضادان... يقال ضادني فلان إذا خالفك، فأردت طولاً وأراد قصراً، وأردت ظلمة وأراد نورا، فهو ضدّك وضديدك".¹ والتضادّ هو المطابقة والطباق والتطبيق والتكافؤ، وهو أن يؤتى بالشيء وبضده في الكلام.² وقد سمّاه ابن المعتز "المطابقة" استناداً إلى تعريفي الخليل والأصمعي السّالفي الذكر. وزاد ابن رشيق المتوفى سنة 456هـ رأي الأصمعي وضوحاً بقوله: "وذكر الأصمعي المطابقة في الشعر فقال: أصلها وضع الرّجل في موضع اليد في مثي ذوات الأربع، وأنشد لنابغة بني جعدة:

وخيّل يطابقن بالدارعين طباق الكلاب يطأن الهراسا³

ثم قال: أحسن بيت قيل لزهير في ذلك:

ليئت يعنّ يصبّاد الرّجال، إذا ما الليئت كذب عن أقرانه صدقا

حكى ذلك ابن دريد⁴ عن أبي حاتم⁵ عنه.⁶

أما ثعلب المتوفى سنة 291هـ فتكلّم عن المطابقة تحت اسم "مجاورة الأضداد" وعرفها بقوله: "هي ذكر الشيء مع ما يعدم وجوده".⁷

ولما جاء قدامة بن جعفر المتوفى سنة 337هـ - وهو من المعاصرين لابن المعتز - طرح في كتابه "نقد الشعر" مصطلح "التكافؤ" متأثراً بفلسفة اليونان ومنطقهم ودراساتهم البلاغية في التقنين والتحديد والتقسيم والتفريع، فيما جعل المطابق من نعوت جودة ائتلاف

¹ ابن منظور: لسان العرب، دار صادر ودار بيروت (لبنان)، 1968، ج3، مادة "ضدد" ص263-264.

² ابن حمزة العلوي: الطراز، مكتبة المعارف الرياض، (المملكة السعودية)، 1980، ج2، ص377.

³ الدار ع: الفارس المرتدي قميصاً من حديد. والهراس: حطام الشوك، شوك كأنه حسك.

⁴ هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي من كبار اللغويين توفي سنة 321هـ، له الجمهرة في اللغة، والاشتقاق.

⁵ أبو حاتم سهل بن محمد المجستاني: من كبار أئمة اللغة، يدعى كتابه في الأضداد "المقلوب لفظه في كلام العرب، والمزال عن جهته والأضداد، توفي سنة 248هـ.

⁶ العمدة 2: ص6.

⁷ ثعلب: قواعد الشعر، تحقيق رمضان عبد التواب، دار المعارف، القاهرة (مصر)، 1965، ص53.

اللفظ والمعنى، وعرفه بقوله: " هو ما اشترك في لفظة واحدة بعينها"¹، وقد أراد به الجنس التام أخذاً عن ثعلب الذي سمى الجنس "المطابق" من قبل²، كما في قول الأفوه الأودي:
 وأقطع الهوجل مستأنساً
 بهوجل غير أنه عنتريس³
 فلفظة "الهوجل" في هذا البيت واحدة قد اشتركت في معنيين: فالأولى بمعنى الأرض البعيدة الأطراف، والثانية بمعنى الناقة الصلبة.

ويبدو لنا أن خروج قدامة بمصطلحه الجديد لم يكن لمجرد المخالفة لابن المعتز، وإنما لكون المعنى اللغوي للمطابقة يثير هذا الخلاف، فهي تعني: الموافقة، والتطابق الاتفاق⁴، ولذلك سماها تكافؤاً، وقال: "ومن نعوت المعاني التكافؤ، وهو أن يصف الشاعر شيئاً أو يذمه، أو يتكلم فيه بمعنى ما أي معنى كان، فيأتي بمعنيين متكافئين. والذي أريد بقولي "متكافئين" في هذا الموضع: متقاومان، إما من جهة المضادة، أو السلب والإيجاب، أو غيرهما من أقسام التقابل، مثل قول أبي الشغب العبسي:

حُوَّ الشَّمَائِلِ، وَهُوَ مُرُّ بَاسِلٍ
 يَحْمِي الدَّمَارَ صَيِّحَةَ الإِرْهَاقِ⁵

وفي القرن الرابع الهجري دائماً، حيث تتوالى الدراسات النقدية التي تبحث في معاني الشعراء وفي صورهم البلاغية، وتمتاز مباحث النقد بالبلاغة، يدلي الأمدي المتوفى سنة 371هـ- في سياق موازنته بين شعر أبي تمام و البحري-برأيه، محاولاً إيجاد مخرج لهذا الخلاف حول مصطلح "المطابقة"، فيعرفها في البدء بقوله: " هو مقابلة الحرف بضده أو ما يقارب الضد، وإنما قيل مطابق لمساواة أحد القسمين صاحبه وإن تضادا أو اختلفا في المعنى"⁶، ثم يضيف معاتباً قدامة على خروجه على من سبقوه، فيقول: "وهذا باب، أعني المطابقة، لقبه أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب في كتابه المؤلف في "نقد الشعر": المتكافئ، وسمى ضرباً من المتجانس المطابق، وهو أن تأتي بالكلمة مثل الكلمة سواء في تأليفها واتفاق حروفها، ويكون معناهما مختلفاً... وما علمت أن أحداً فعل

1-قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ص162.

2-قواعد الشعر: ص56.

3- غير أنه: مسرعة، عنتريس: صلبة.

4- الرازي: مختار الصحاح، ضبط وتعليق مصطفى ديب البغا، دار الهدى، عين مليلة (الجزائر)، ط4، 1990، مادة "طبق"، ص253.

5- نقد الشعر: ص147-148.

6- الأمدي: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، 1965، ج1، ص271.

هذا غير أبي الفرج، فإنه وإن كان هذا اللقب يصح لموافقته معنى الملقبات وكانت الألقاب غير محظورة، فإني لم أكن أحب أن يخالف من تقدمه مثل أبي العباس عبد الله بن المعتز وغيره ممن تكلم في هذه الأنواع وألف فيها، إذ قد سبقوا إلى التلقيب وكفوه المؤونة. وقد رأيت قوما من البغداديين يسمّون هذا النوع المجانس " المماثل " ويلحقون به الكلمة إذا تردت وتكررت"¹.

ويأتي بعد ذلك ابن رشيق المتوفى سنة 456هـ ليرفض مصطلح قدامة قائلاً: "المطابقة عند جميع الناس: جمعك بين الضدّين في الكلام أو بيت شعر إلا قدامة ومن اتبعه... ولم يسمه التكافؤ أحد غيره وغير النّحاس² من جميع من علمته"³.

ونعود إلى القرن الرابع الهجري مرة أخرى لنلتقي بعلي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى سنة 396هـ أملين أن يخرج بنا من هذا الخلاف غير المجدي حول المصطلح، لننتلمس معه بعض أسرار الطباق، فنراه يقول في مقدمة حديثه عنه: "وأما المطابقة فلها شعب خفية، وفيها مكامن تغمض، وربما التبتت بها أشياء لا تتميز إلا للنظر الناقب والذهن اللطيف"⁴، وقسمها إلى قسمين، جعل قول دعلب الخزاعي (المتوفى سنة 220هـ) مثالا لأحد الجنسين:

لا تعجّبي يا سلّم من رَجُلٍ ضحك المشيبُ برأسه فبكى

وجعل قول البحري المتوفى سنة 284هـ دالا على الجنس الآخر، وهو ما تكون

المطابقة فيه بالنفي:

تقيّض لي من حيث لا أعلم النوى ويسري إليّ الشوق من حيث أعلم

ثم يقف الجرجاني مستغربا مستلظفا للطباق الذي في بيت أبي تمام المتوفى سنة 231هـ:

مها الوحش إلا أن هاتأ أو أنيس قنا الخط إلا أن تلك توابل

¹ - المصدر السابق: ص 274-275.

² - هو أبو جعفر أحمد بن إسماعيل النحاس: كان صاحب فضل كثير وعلم واسع، له مؤلفات في اللغة والأدب والقرآن، منها "شرح المعلمات السبع" و"إعراب القرآن"، توفي سنة 338هـ.

³ - العمدة 2: ص 5.

⁴ - القاضي الجرجاني: الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد الجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي (مصر)، 4، 1966، ص 44.

فطابق " هاتا وتلك"، وأحدهما للحاضر (أو للقريب) والآخر للغائب (أو للبعيد)، وكانا نقيضين في المعنى وبمنزلة الضدين¹.

ونترك القاضي الجرجاني دون أن يوضح لنا ما للمطابقة من شعب خفية، وما فيها من مكامن غامضة لا تتميز إلا للنظر الثاقب والذهن اللطيف، لئن لقي بابن رشيق الذي ينقل لنا تعريف الرماني المتوفى سنة 386هـ لها بأنها "مساواة المقدار من غير زيادة ولا نقصان"²، ويعلق على هذا التعريف في احتفاء ظاهر قائلاً: "هذا أحسن قول سمعته في المطابقة من غيره، وأجمعه لفائدة، وهو مشتمل على أقوال الفريقين وقدامة جميعاً"³.

وفي رأينا أن تعريف الرماني للطباق لا يضيف جديداً إلى ما عرفه به الأمدي قبله⁴، وإنما جديد الرماني الذي يهمننا هو حديثه عن العلاقات التفاعلية والتناسقية بين الألوان، والتي ترد أحيانا في الشعر، حيث قال: "السواد والبياض ضدّان، وسائر الألوان يضاد كل واحد منها صاحبه، إلا أن البياض هو ضد السواد على الحقيقة؛ إذ كان كل واحد منهما كلما قوي زاد بعدا من صاحبه، وما بينهما من الألوان كلما قوي زاد قربا من السواد، فإن ضعف زاد قربا من البياض، وأيضا فلأن البياض منصبغ لا يصبغ، والسواد صابغ لا منصبغ، وليس سائر الألوان كذلك، لأنها كلها تصبغ وتنصبغ"⁵.

ونمضي بعد ذلك باحثين عن آراء جديدة في دراسة الطباق والكشف عن أسراره تخرجنا من تعريفاته المتوارثة وشواهدة التي تكاد تكون مكررة، فلا نظفر بالجديد الذي نبتغيه لا عند أبي هلال العسكري المتوفى سنة 395هـ، ولا عند ابن رشيق المتوفى سنة 456هـ على الرغم من فضله على المؤلفين في البلاغة بعده بما سماه "باب ما اختلط فيه التجنيس بالمطابقة"⁶. ولا جديد عند ابن سنان الخفاجي المتوفى سنة 466هـ، ولا عند عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة 471هـ، ولا عند الزمخشري المتوفى سنة 538هـ، ولا

1- المصدر السابق، ص 44-45.

2- العمدة: 2، ص 6.

3- المصدر نفسه: ص 7.

4- ينظر تعريف الأمدي للطباق: ص 08 من هذا البحث.

5- المصدر نفسه: ص 11.

6- المصدر نفسه: ص 12-15.

أسامة بن منقذ المتوفى سنة 584هـ، ولا فخر الدين الرّازي¹ المتوفى سنة 606هـ، ولا عند أبي يعقوب السّكاكيّ المتوفى سنة 626هـ سوى ترتيبه مباحث البلاغة-بعد أن اتّضحت معالمها في كتابات من سبقه-في القسم الثالث من كتابه "مفتاح العلوم"، وقسمها إلى ثلاثة أقسام: الأول سمّاه علم المعاني، والثاني علم البيان²، وسمّى القسم الثالث محسنات ولم يسمها بديعا، وجعلها متضافرة مع العلمين السابقين في الوصول بالكلام إلى أعلى مراتب التحسين، وقسمها بدورها إلى قسمين: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ، وجعل المطابقة والمقابلة من المحسنات المعنوية³؛ فكان صنيعة إيدانا بانفصال مباحث البلاغة.

ثم لا جديد أيضا عند ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة 637هـ، ولا عند ابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة 654هـ، حتى إذا التقينا بحازم القرطاجي المتوفى سنة 684هـ، رأيناه يلح على تفاعل النفس مع الكلام إذا تقارنت فيه المتضادات تقارن التماثلات والمتشابهات، يقول: "فإنّ للنّفوس في تقارن التماثلات وتشافعها والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكا وإيلاعا بالانفعال إلى مقتضى الكلام، لأن تناصر الحسن في المُستحسنين المُتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعا من سنوح ذلك لها في شيء واحد. وكذلك حال القبح. وما كان أمكّ للنفس وأمكّن منها فهو أشدّ تحريكا لها. وكذلك أيضا مثل الحسن إزاء القبيح أو القبيح إزاء الحسن مما يزيد غبطة بالواحد وتخليّا عن الآخر لتبين حال الضد بالمثل إزاء ضده. فلذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيبا"⁴. ويفسح حازم السبيل أمام الشعراء في مجال المطابقة، إذ يمكن أن تتحقق "بأن يوضع أحد المعنيين المتضادّين أو المتخالقين من الآخر وضعا متلائما"⁵، ولذلك فهو يقسمها إلى محضة وغير محضة. فإذا كانت العادة تقتضي أن يكون الطباق محضا، فإنه يجوز خرق هذه العادة بأن يجري "تخالف وضع الألفاظ لتخالف في وضع المعاني،

¹ - قدم فخر الدين الرّازي أول تلخيص لكتابه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" مع إفادته مما كتبه الرماني والزمخشري في كتابه "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" (ينظر: البلاغة تطور وتاريخ: شوقي ضيف، ص 275).

² - السكاكي: مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ص 70.

³ - المصدر نفسه: ص 179.

⁴ - حازم القرطاجي: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 1981، ص 44-45.

⁵ - المصدر نفسه: ص 48.

ولنسبة بعضها من بعض، فيقع بذلك بين جزءين من أجزاء الكلام نسبتان متخالفتان، فيجري ذلك مجرى المطابقة في الألفاظ المفردة كقول بعضهم :

أَنْتَ لِلْمَالِ إِذَا أَصْلَحْتَهُ فَإِذَا أُنْفَقْتَهُ قَالَمَالُ لَكَ¹

وبعد هذه الاستفاضة للبلاغة العربية على يد هذا العلم، تمضي في سبات عميق من التعقيد والجمود تحت ركام من الشروح والتلخيصات لكتاب "مفتاح العلوم" للسكاكي، أشهرها "تلخيص المفتاح" للخطيب القزويني المتوفى سنة 739هـ، لخص فيه القسم الثالث منه، وتأثر في تلخيصه بالكتب السابقة له، وهو أول من جعل ألوان البديع علما مستقلا عن أخويه: علم المعاني وعلم البيان²، وعرفه بقوله: "وهو: علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الكلام ووضوح الدلالة"³، وكأنه لاحظ ما اكتنف تلخيصه من غموض، فعمد إلى تجليته وشرحه في كتابه "الإيضاح في علوم البلاغة"، وأكثر فيه من الشواهد والأمثلة؛ وقد حصل كتاباه على حظ وافر من الشهرة والرواج بعده⁴.

وما نظفر به حقا من جهود هؤلاء الأعلام الذين ذكرناهم ابتداء من أبي هلال العسكري-وهم يكادون يجمعون عليه في الغالب- أن التضاد أو الطباق محسن معنوي يؤتى به بعد رعاية مطابقة الكلام لمقتضى الحال ووضوح الدلالة على المعنى المراد، فهو تابع ولاحق لما عرف بالمعاني والبيان.

2- المستوى النحوي:

يقول الزمخشري المتوفى سنة 538هـ: "الكلمة هي اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع، وهي جنس تحته ثلاثة أنواع: الاسم والفعل والحرف"⁵. وعلى أساس هذه الأنواع الثلاثة للكلمة، كان الجمع بين المتضادين في الكلام باسمين أو فعلين أو حرفين، أو بضم الاسم إلى الفعل أو الفعل إلى الاسم.

1- المصدر السابق ص 51.

2- أحمد إبراهيم موسى: الصبغ البديعي في اللغة العربية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة (مصر)، 1969، ص 303-304.

3- الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 6، 1985، ج 2، ص 477.

4- المرجع السابق: ص 307.

5- ابن يعقوب: شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، ج 1، ص 18.

فمن الجمع بين اسمين قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً"¹. ومنه قول الفرزدق²:

وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي السَّوَادِ كَأَنَّهُ لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ
ومن الجمع بين فعلين قوله عز وجل: "إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ دَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ"³.
ومنه قول أبي صخر الهذلي:

أَمَّا وَالَّذِي أَبْكَى وَأَضْحَكَ وَالَّذِي آمَاتَ وَأَحْيَا وَالَّذِي أَمَرَهُ الْأَمْرُ⁴
ومن الجمع بين حرفين قوله تعالى: "لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ"⁵. ومنه قول الشاعر:

عَلَى أَنِّي رَاضٍ بِأَنْ أَحْمِلَ الْهَوَى وَأَخْضَ مِنْهُ لَا عَلَيَّ وَلَا لِيَا⁶
ومن شواهد ضم الاسم إلى الفعل قوله تعالى: "أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ"⁷، أي أنه كان ضالاً فهديناه، فالموت والإحياء معناهما مجازيان وهما الضلال والهدى.
ومن أمثلة ضم الفعل إلى الاسم قول التهامي:

لَقَدْ أَحْيَا الْمَكَارِمَ بَعْدَ مَوْتِ وَشَادَ بِنَاءَهَا مَا بَعْدَ أَتْهِدَامِ⁸
فالإحياء والموت، والشيد والانهدام معان مجازية، إذ المراد: أنه أعطى بعد أن امتنع الناس كلهم عن العطاء.

فإذا تخطينا الكلمة المفردة إلى الجملة أي الكلام المركب الذي يعرفه النحاة بأنه⁹: "اللفظ المركب المفيد بالوضع"¹⁰، رأينا التضاد يأتي على شكل صيغتين من فعل واحد، تكون الأولى نهياً والثانية أمراً كقوله عز وجل: "إِنَّمَا ذِكُّمُ الشَّيْطَانِ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ

1- لقمان: 60.

2- الفرزدق: شرح ديوان الفرزدق، إيليا حاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت (لبنان)، ط1، 1983، ج1، ص600.

3- آل عمران: 160.

4- أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد (العراق)، 1983، ج2، ص256.

5- البقرة: 286.

6- المرجع السابق: ص256.

7- الأنعام: 122.

8- المرجع السابق: ص257.

9- تمام حسان: الأصول، دار الثقافة، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 1981، ص292.

10- معنى "بالوضع" أي أن التواضع لم يقع على الألفاظ المفردة فقط، بل وقع أيضاً على التراكيب. (ينظر: هامش مجلة اللسانيات، جامعة الجزائر، المجلد الثاني، العدد1، 1972، ص53-54).

وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ¹، وشببه بذلك أن تجيء الجملة مثبتة مرة ومنفية مرة أخرى، كقول البحرى²:

نُقِيضُ لِي مِنْ حَيْثُ لَا أَعْلَمُ أَلَّوَى وَيَسْرِي إِلَيَّ الشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ
فقوله : (لا أعلم) كقوله: أجهل، فهي مطابقة لقوله: أعلم.

وقد سمى البلاغيون ما جاء من الطباق بنفي أو نهي طباق السلب، وما جاء بغير ذلك-كما في الشواهد السابقة-فهو طباق الإيجاب.

3- المستوى البلاغي:

لقد نبه ولع الشعراء المحدثين ببعض الأساليب البلاغية كالطباق والجناس والاستعارة وغيرها البلاغيين العرب في العصر العباسي الأول إلى ضرورة العودة إلى الشعر العربي القديم -ابتداء من الشعر الجاهلي- لاستقرائه، والوقوف على هذه الأساليب، والتفرقة بينها، وإدراك مدى العمق والجمال اللذين تضيفهما على صور الشعر ومعانيه، ثم وضع مصطلحات لكل نوع منها مصحوبا بشواهد من المنظوم والمنثور، فكان أول مؤلف اختص بجمع فنون البديع هو كتاب "البديع" لابن المعتز المتوفى سنة 296هـ، جمع فيه ثمانية عشر لونا بديعيا، فجاء معاصره قدامة بن جعفر المتوفى سنة 337هـ فذكر في كتابه "نقد الشعر" عشرين لونا، ثم أوصلها أبو هلال العسكري المتوفى سنة 395هـ في كتابه "الصناعتين" إلى خمسة وثلاثين لونا. فإذا انتقلنا إلى أواخر القرن السادس الهجري، ألفينا أسامة بن منقذ المتوفى سنة 584هـ يجمع من ألوان البديع في كتابه "البديع في نقد الشعر" خمسة وتسعين لونا. وفي القرن السابع الهجري، يخطو ابن أبي الإصبع المصري المتوفى سنة 654هـ بالبديع خطوات واسعة، فيجمع في كتابه "تحرير التحبير" مائة لون واثنين وعشرين، ويبلغ بالبديع الوارد في القرآن الكريم مائة لون وثمانية ذكرها في كتابه "بديع القرآن"، وبذلك فتح الباب على مصراعيه لرجال البديعيات أن يصلوا بالبديع إلى أكثر من هذا العدد. فقد ضمن صفى الدين الحلبي المتوفى سنة

¹- آل عمران: 175.

²- البحرى: ديوان البحرى، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر، ط2، 1973، ج3، ص1928.

750هـ - بديعته في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة وخمسين لونا بديعيا، وهي قصيدة ميمية من بحر البسيط على غرار بردة البوصيري المتوفى سنة 596هـ، وسمّاها "الكافية البديعية في المدائح النبوية"، وألف عليها شرحا سماه "النتائج الإلهية في شرح الكافية البديعية"¹.

ومما لا شكّ فيه أنّ هذا العدد الهائل لفنون البديع يدلّ دلالة واضحة على انصراف البلاغيين العرب عن اكتناه جوهر هذه الأساليب البلاغية إلى مزيد من التقسيم والتفريع أو وقعهم في كثير من التكرار والإسراف.

والجناية على التضاد أظهر وأبين، ذلك أن البلاغيين انشغلوا باستخراج الطباق وبيان نوعه، عن محاولة الكشف عن دوره في السياق: في تشكيل الصورة الفنية وفي أداء المعنى. وكل إضافة جديدة كانت تنحصر في مزيد من المصطلحات لا غير، كمصطلح "المقابلة"، وطباق "المخالف أو التدبيح"، وطباق "العكس أو التبديل"، وطباق "السلب والإيجاب"²، و"إيهام التضاد"؛ وقد اختار ابن سنان المتوفى سنة 466هـ إطلاق الطباق على جميع أنواعه³، واتّبعه في ذلك الخطيب القزويني المتوفى سنة 739هـ⁴.

أمّا المعاصرون فقد ضاقوا ذرعا بكثرة المصطلحات ما دامت لا تكشف عن كنه التضاد، يقول الدكتور منير سلطان: "أعتقد أنه لا داعي لكثرة المصطلحات، ويكفينا من "الطباق" المصطلح فقط... ويكون الطباق: هو التّضادّ القائم بين معنيين، إمّا تضادا حقيقيّا أو مجازيّا، أحسّ به الفنان، بغضّ النظر عن أنّه طباق بين مفرد ومفرد، أو بين هيئة وهيئة... على ألا ننزع الطباق من السّياق"⁵. وفي الاتجاه نفسه، يقول الدكتور رجاء عيد: "إنّ الإحساس بوجهي الأشياء -مهما تكن الطريقة- كفيل بإثراء الأسلوب إذا توافر لدى الشاعر ما يهيء لعمله النجاح، ولا يُجدي صلب العين على الطباق وأنواعه وتفرّيعاته المختلفة"⁶، فهو ينعي على البلاغيين القدامى إنفاق جهودهم في استخراج ما في البيت من

1 - البلاغة تطور وتاريخ: ص 358-360.

2 - تنظر شواهد طباق الإيجاب وطباق السلب في الصفحتين (13-14) من هذا البحث.

3 - ابن سنان الخفاجي: سرّ الفصاحة، شرح وتصحيح عبد المتعال الصنعدي، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده (مصر)، 1969، ص 192.

4 - الإيضاح في علوم البلاغة 2: ص 477.

5 - منير سلطان: البديع تأصيل وتجديد، منشأة المعارف بالإسكندرية (مصر)، 1986، ص 118.

6 - في البلاغة العربية: ص 271.

طباق أو غيره من ألوان البديع، ثم بيان أنواعه وتفرعاته المختلفة مهملين القيمة الفنية لأسلوب الطباق.

ولقد كنا أفضنا في الحديث عن مصطلح التضاد أو الطباق عبر المستوى المعجمي¹، ولا بأس أن نقف عند ما أضافه البلاغيون من خلال مصطلحاته الأخرى. عرف قدامة بن جعفر المتوفى سنة 337هـ في كتابه "نقد الشعر" المقابلة عند حديثه عن صحة المقابلات بقوله: "أن يصنع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض أو المخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق وفي المخالف بما يخالف على الصحة، أو يشترط شروطا ويعدد أحوالا في أحد المعنيين، فيجب أن يأتي في ما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدده وفي ما يخالف بضد ذلك، كما قال بعضهم:

وَإِذَا حَدِيثٌ سَاءَنِي لَمْ أَكْتَبْ وَإِذَا حَدِيثٌ سَرَّنِي لَمْ أَشْرِ²
فجعل بإزاء سرني ساءني، وإزاء الاكتتاب الأشر (أي المرح)، وحاذى عبارتي المعنيين المتقابلين على الترتيب، وذلك أحسن في الكلام، وقبل قدامة ما لم تتحاذ فيه عبارتا المعنيين المتقابلين، وأنشد للطرمّاح بن حكيم:

أَسْرَنَانَاهُمْ وَأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ وَأَسْقَيْنَا دِمَاءَهُمُ الثَّرَابَا
فَمَا صَبَرُوا لِيَأْسٍ عِنْدَ حَرْبٍ وَلَا أَدُّوا لِحُسْنٍ يَدِ ثَوَابَا³
فقابل ما في صدر البيت الأول وهو الإنعام على المأسورين بما في عجز الثاني وهو ذكر الثواب على حسن اليد، وما في عجز البيت الأول وهو ذكر القتل بما في صدر البيت الثاني وهو الصبر عند بأس الحرب.

ويرى حازم القرطاجني أن "أنواع المقابلات تتشعب. وقل من تجده يفتن لمواقع كثير منها في الكلام. كما أن كثيرا من الناس يعد من المقابلة ما ليس منها. وأكثر ما يشعر به منها مقابلة التضاد والتخالف"⁴. ثم تمثل نفاذ المقابلة بقول أبي عدي:

يَا أَبْنَ خَيْرِ الْأَخْيَارِ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ أَنْتَ زَيْنُ الدُّبْيَا وَعَيْتُ الْجُودِ

1 - ينظر: المستوى المعجمي، ص 10 وما بعدها من هذا البحث.

2- نقد الشعر: ص 141.

3- المصدر نفسه: ص 142.

4- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 52.

لأن غيث الجود ليس مقابلاً لزين الدنيا من طريق المقاربة ولا التضاد¹.

والمقابلة في معناها العام هي المناسبة بالتضاد أو بغيره، غير أن أكثر ما تكون بالأضداد التي تتجاوز ضديين، وتحمل في طواياها التقسيم، ولذلك جعل ابن رشيق "المقابلة بين التقسيم والطباق"²، وحينئذ يكون الكلام في أعلى رتبة من البلاغة وأعظم موقعا في النفوس.

ومن أنواع الطباق العكس والتبديل، وقد عرفه أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" بقوله: "هو أن تعكس الكلام فتجعل في القسم الأخير منه ما جعلته في الجزء الأول"³، ومنه قوله تعالى: "تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ"⁴، ومنه قول الحسن البصري: "إِنَّ مَنْ خَوَّفَكَ حَتَّى تَلْقَى الْأَمْنَ خَيْرٌ مِمَّنْ أَمَّنَكَ حَتَّى تَلْقَى الْخَوْفَ"⁵.

وهناك المخالف أو التدييح-وعده حازم القرطاجني من المطابقة غير المحضة-وهو "مقارنة الشيء بما يقرب من مضاده، كقول عمرو بن كلثوم:

يَأْتَا نُورُ الرَّاْيَاتِ بِيضًا وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِيْنَا⁶

فهذا النوع يعتمد على إحكام الألوان ومعرفة ما بينها من فروق، فقد ذكر البياض والحمرة، والبياض كناية عن السلم قبل الحرب، والحمرة كناية عن دوران رحى المعركة على الأعداء إلى حد انصباح الرايات بدمائهم؛ وهو باب في الكلام طريف.

ويُلْحَقُ بالطباق إيهام التضاد: "وهو أن يوهم لفظ الضد أنه ضد مع أنه ليس بـ، كقول الشاعر:

يُؤَدِّي وَشَاحًا أَبْيَضًا مِنْ سَيِّئِهِ وَالْجَوْ قَدْ لَيْسَ الْوَشَاحَ الْأَغْبَرَ

فإن الأغبر ليس بـضد الأبيض، وإنما يوهم بلفظه أنه ضد"⁷.

1- المصدر السابق، ص55.

2- العمدة: 2، ص15.

3- الصيغ البيديعي: ص168.

4- آل عمران: 27.

5- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص51.

6- المصدر نفسه: ص49.

7- علم البيديع: ص70-71.

وواضح من الشواهد التي سقناها لهذه الأنواع التي تندرج تحت الطباق أنها لا تزيد عن كونها أسماء لمسمى مشترك تبيين عن وضعيات مختلفة للتضاد في السياق لدلالات خاصة مقصودة.

ثم إنَّ الطباق-كما ذكر ابن أبي الإصبع المصري-ضربان: ضرب يأتي بألفاظ الحقيقة كقوله تعالى: "وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ"¹، وضرب يأتي بألفاظ المجاز. فما كان بلفظ الحقيقة سمي طباقًا، وما كان بلفظ المجاز سمي تكافؤًا، ومثاله قول أبي الشغب العبسي:

حُلُوُّ الشَّمَائِلِ وَهُوَ مُرٌّ بِاسِئْلٍ يَحْمِي الدَّمَارَ صَيِّحَةً الإِرْهَاقِ²

فقوله: حلو ومر، يجري مجرى الاستعارة، إذ ليس في الإنسان ولا شمائله ما يذاق بحاسة الذوق"³.

وكل ما ذكر سابقًا من شواهد يدخل في باب الطباق اللفظي، أما الطباق المعنوي فهو "مقابلة الشيء بضده من جهة معناه دون لفظه"⁴، كقوله تعالى: "قَمَن يُرِدُ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِالإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ"⁵، فقوله: يهديه ويضله من الطباق اللفظي، وقوله: يشرح صدره، مع قوله: يجعل صدره ضيقًا حرجًا، من الطباق المعنوي، لأن معنى "يشرح صدره" يوسعه بالإيمان ويفسحه بالنور، فهو يطابق قوله: ضيقًا حرجًا. ومنه قول المقنع الكندي من أبيات الحماسة:

لَهُمْ جُلٌّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غَنَى وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ أَكْفَهُمْ رِقْدًا⁶

فهذا من الطباق المعنوي، لأنَّ قوله: إن تتابع لي غنى، معناه: إن كثر مالي، والكثرة ضد القلة.

ونتقسم المطابقة عند حازم القرطاجني إلى محضة وغير محضة، "فالمحضة مفاجأة اللفظ بما يضادّه من جهة المعنى كقول جرير:

1- الكهف: 18.
2- أورد قدامة بن جعفر هذا البيت شاهدا على التكافؤ الذي يعني عنده الطباق بألفاظ الحقيقة أو بألفاظ المجاز على السواء.
3- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها 2: ص 255.
4- الطراز 2: ص 383.
5- الأنعام: 125.
6- المصدر السابق: ص 384.

وَبَاسِطٌ خَيْرٌ فِيكُمْ بِيَمِينِهِ وَقَابِضٌ شَرٌّ عَنكُمْ بِشِمَالِيهَا

فقوله: باسط وقابض، وخير وشر من المطابقات المحضة¹.

و"غير المحضة تنقسم إلى مقابلة الشيء بما ينتزل منه منزلة الضد، وإلى مقابلة الشيء بما يخالفه. فأما ما تنزل منزلة الضد فمثل قول الشريف:

أَبْكِي وَيَسِمُ وَالذُّجَى مَا بَيْنَنَا حَتَّى أَضَاءَ يَثْعَرُهُ، وَدُمُوعِي
فَتَنْزِلُ التَّبَسُّمُ مَنْزِلَةَ الضَّحْكِ فِي الْمَطَابِقَةِ.

وأما المخالف فهو مقارنة الشيء بما يقرب من مضاده، كقول عمرو بن كلثوم:

يَأْتَانِي أُورْدُ الرَّيَّاتِ بِيضًا وَتُصَدِّرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوَيْنَا²

وقد تجتمع المطابقة المحضة وغير المحضة في بيت واحد، حيث ضوعفت المطابقة وجاءت العبارة الدالة عليها في احسن ترتيب وأبداع تركيب، كما في قول أبي الطيب المتنبّي:

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَنْتَنِي وَبِيَّاضُ الصُّبْحِ يُغْرِي بِي³

وهذا البيت تناوله أحد المعاصرين وهو عبد الرحمن البرقوقي شارح ديوان المتنبّي في حماس بالغ، وعده "من معجزات المتنبّي"⁴ لأنه جاء بخمسة طباقات: فطابق بين: أزورهم وأنتني، وسواد وبياض، والليل والصبح، ويشفع ويغري، ولي وبني.

أما ابن حجة الحموي المتوفى سنة 837هـ، فنراه يهون من أمر التضاد المجرد في الكلام، إذ لا تأثير له ولا جمال إلا إذا أتى مرشحا بنوع من البديع وبخاصة التورية، يقول: "والذي أقوله إن المطابقة التي يأتي بها الناظم مجردة ليس تحتها كبير أمر، ونهاية ذلك أن يطابق الضد بالضعف وهو شيء سهل، اللهم إلا أن تترشح بنوع من أنواع البديع وتشاركه في البهجة والرونق"⁵، ثم يسوق أمثلة كثيرة من القرآن الكريم ومن الشعر تجمع بين الطباق وغيره كالتكميل والتشبيه والمجاز واللف والنشر والجناس ولاسيما التورية. ومن شواهد المتوارثة بعده قوله تعالى: "تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ

¹ - منهاج البلاغ وسراج الأدباء، ص 48-49.

² - المصدر نفسه: ص 49.

³ - المصدر نفسه: ص 49-50.

⁴ - عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان المتنبّي، دار الكتاب العربي، بيروت (لبنان)، 1980، ج 1، ص 290.

⁵ - معجم المصطلحات البلاغية وتطورها 2: ص 259.

وُخْرِجُ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ وَنُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرَزُّقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ¹، ويمضي معلقاً على هذه الآية الكريمة بقوله: "ففي العطف بقوله تعالى: "وَتَرَزُّقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" دلالة على أن من قدر على الأفعال العظيمة قدر على أن يرزق بغير حساب من شاء من عباده. وهذه مبالغة التكميل المشحونة بقدرة الرب سبحانه وتعالى. فانظر إلى عظم كلام الخالق هنا، فقد اجتمع فيه المطابقة الحقيقية والعكس الذي لا يدرك لوجازته وبلاغته ومبالغة التكميل التي لا تليق بغير قدرته"².

وكانَّ الغرور ملاً نفس ابن حجة، فراح يعلي من شأن التورية طلباً للشعراء والأدباء في عصره وغايتهم القصوى، وينتقد في الوقت نفسه الشاعر صفي الدين الحلبي المتوفى سنة 750هـ، قائلاً: "إن الذين اقتديت برأيهم ومشيت على سننهم، لم يرضوا بالمطابقة المجردة ولم ينظموها إلا في سلك التورية، وأما صفي الدين فلم يأت بها إلا مجردة وكذلك العميان"³.

وليس لنا من رد على نزعة ابن حجة الحموي ومن سلك مسلكه من المتأخرين في ضرورة ترشيح الطباق بنوع من أنواع البديع، إلا أن نسوق الأمثلة من الشعر القديم والمحدث نبين فيها ما للمطابقة المجردة - كما نعتها - من دلالات خاصة وجمال فني في السياق.

4- المستوى الدلالي:

إذا كانت الأضداد بمفهومها القديم، وهو اللفظ المستعمل في معنيين متضادين، قد حظيت باهتمام اللغويين العرب، وأفردوا لها مؤلفات خاصة منذ بداية القرن الثالث الهجري حتى القرن السابع، أي منذ ظهور أضداد أبي علي قطرب المتوفى سنة 206هـ حتى أضداد الحسن بن محمد الصغاني⁴ المتوفى سنة 650هـ، فإن التضاد الذي يعني عند علماء اللغة المحدثين وجود لفظين يختلفان نطقاً ويتضادان معنى، كالتصير في مقابل

1- آل عمران: 27.

2- المرجع السابق: ص 259.

3- الصبغ البديعي: ص 408.

4- هو أبو الفضائل الحسن بن محمد الصغاني: له كتاب "الأضداد".

الطويل والجميل في مقابل القبيح، لم يخص هذا التضاد بتأليف مستقل من اللغويين العرب القدامى عدا بعض كتب الأدب التي عقدت له فصولاً مثلما فعل الهمذاني في كتابه "الألفاظ الكتابية"¹.

وفي المقابل، كان اهتمام اللغويين المحدثين بظاهرة الأضداد ضئيلاً، لم يستغرق سوى إشارات في مؤلفاتهم اللغوية، من ذلك ما ذكره أولمان ULLMANN في كتابه "دور الكلمة في اللغة" أثناء حديثه عن تعدد المعنى: "من المعروف أن المعاني المتضادة للكلمة الواحدة قد تعيش جنباً إلى جنب لقرون طويلة بدون إحداث أي إزعاج أو مضايقة"². فكان اللغويين المحدثين حين يهملون ظاهرة الأضداد التي هي جزء من المشترك اللفظي³، يردون الاعتبار لقضية التضاد.

ولا نريد أن نخوض في ما خاض فيه اللغويون العرب القدامى وبعض اللغويين العرب المعاصرين من وجود هذه الأضداد أو إنكار وجودها، أو الاختلاف حول كثرتها أو قلتها، فمما لا شك أن هذه الأضداد التي هي جزء من المشترك اللفظي موجودة في اللغة العربية⁴، إنما الذي يهمنا أكثر هو ذلك التضاد الذي عرفه الخليل والأصمعي باسم المطابقة، وحظي باهتمام البلاغيين بعدهما، فعملوا على استقصائه من الشعر القديم والمحدث، وإبراز شواهد من المنظوم والمنثور، ووضع مصطلحات لأنواعه وأقسامه ونفريعاته، وإن لم يتجاوزوا ذلك إلى الكشف عن كنهه ودوره في السياق.

وهذا النهج في اجتناب الجدل حول مسألة الأضداد سبق إليه ابن رشيق المتوفى سنة 456هـ، حين تناول ظاهرة استخدام اللفظ الواحد في معنيين متضادين في باب "ما اختلط فيه التجنيس بالمطابقة"، يقول: "من ذلك أن يقع في الكلام شيء مما يستعمل للضدين: كقولهم "جل" بمعنى صغير، و"جل" بمعنى عظيم؛ فإن باطنه مطابقة، وإن كان ظاهره تجنيساً، وكذلك "الجون" الأبيض، و"الجون" الأسود، وما أشبه ذلك"⁵.

1- ينظر: الألفاظ الكتابية: عبد الله بن عيسى الهمذاني، الدار العربية للكتاب، 1980، ص 296-297.

2- أحمد مختار عمر: علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1982، ص 191.

3- المشترك اللفظي هو أن يدل اللفظ على أكثر من معنى. فكلمة "العين" تدل على العين الباصرة، وعلى الجاسوس، وعلى الذات، وعلى منبع الماء، وعلى أشياء أخرى. (ينظر: الوجيز في فقه اللغة: محمد الأنطاكي، ص 388).

4- ربحي كمال: التضاد في ضوء اللغات السامية، دار النهضة العربية، بيروت، 1975، ص 09.

5- العمدة 2: ص 12.

فلعلّ ابن رشيق يكون قد اطلع على بعض الكتب التي صنفها اللغويون قبله في الأضداد أمثال قطرب¹ المتوفى سنة 206هـ والأصمعي المتوفى سنة 216هـ وابن السكيت² المتوفى سنة 244هـ، وأبي حاتم السجستاني المتوفى سنة 248هـ، وأبي بكر ابن الأنباري³ المتوفى سنة 328هـ، وأبي الطيب اللغوي⁴ المتوفى سنة 351هـ، ولمس الخلاف بين المؤيدين لوجود الأضداد- وهم الكثرة الغالبة من اللغويين- والمنكرين لوجودها- وهم قلة قليلة وعلى رأسهم ابن درستويه المتوفى سنة 347هـ-، فأبى ابن رشيق إلا أن يتناول هذه القضية كبلاغي يؤيد وجود هذه الظاهرة، ولكنه يعطيها صبغة بلاغية بإدخاله اللفظين اللذين تمثل بهما-جلل والجون-في باب ما ظاهره التجنيس لفظا وباطنه الطباق معنى.

وبناء على هذه النظرة، قد يهمننا من هذه الأضداد ما ينشأ عن أسباب اجتماعية لدلالاتها الخاصة كالتفاؤل والتشاؤم والتهكم والتأدب، ومن قبيل التفاؤل إطلاق المفازة على الصحراء، والقافلة على الجماعة المسافرة، والسليم على الملدوغ. ومن التشاؤم من النطق بلفظ الأسود تسمية الأسود أبيض، وتكنية الأسود بأبي البيضاء. ومما يقال للتهكم والسخرية قولهم عن المتعثر في نطقه " فصيح"، وقولهم للجاهل استهزاء: يا عاقل. ومن أمثلة التأدب في الحديث إطلاق لفظ " بصير" على الأعمى، ولفظ "مولى" الذي هو بمعنى السيد على العبد⁵.

وقد تهمننا أيضا بعض ألفاظ الأضداد التي تنشأ نتيجة التعبير عن الشيء باسم ضده زيادة في تقوية التعبيرية، وإثارة لاهتمام السامع، يقول محمد الأنطاكي: " ألا ترانا إذا أعجبنا بشخص قلنا عنه: ابن كلب- شيطان- ملعون- قرد أشمط...؟ وإذا استحسنا شيئا قلنا عنه: إنه فظيع؟ وقد حدثنا التاريخ أن أحد خلفاء العرب في الأندلس سمى إحدى جواريه (قبيحة) لشدة حسنها وجمالها"⁶.

¹- هو أبو علي محمد بن المستنير المعروف بقطرب: ولد في البصرة، اشتهر بعلم النحو، وهو أول من وضع كتابا يبين فيه اختلاف معنى اللفظ بشكل حركاته، وله في ذلك "المثلث" وله كتاب "الأضداد".

²- أبو يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت: من نحاة الكوفة، ولد في بغداد، له "إصلاح المنطق" و"الأضداد".

³- محمد بن القاسم المعروف بأبي بكر بن الأنباري: نحوي مشهور، من أعلم أهل زمانه بالعربية، له "الأضداد" و"الزاهر".

⁴- هو أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي: له "الأضداد في كلام العرب".

⁵- علم الدلالة: ص 205-206..

⁶- محمد الأنطاكي: الوجيز في فقه اللغة، مكتبة دار الشرق، بيروت، ط3، ص 396.

وإذا كانت هذه الأضداد تبدو منافية للإبانة عن المعاني، فلا يدري المخاطب أي المعنيين المتضادين أراد المخاطب باللفظة الواحدة كما زعم الشعوبية الذين أزرروا على العرب، وعدوا ذلك دليلاً على نقصان حكمتهم، وقلة بلاغتهم، وكثرة الالتباس في محاوراتهم، فإن أبا بكر بن الأنباري المتوفى سنة 328هـ يرددهم في خطبة كتابه عن الأضداد- إلى سياق الكلام، فهو الفيصل في تحديد معنى الكلمة، يقول في إحدى أجوبته: "أدهنّ أن كلام العرب يصحّ بعضه بعضاً، ويرتبط أوله بآخره، ولا يُعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه؛ فجاز وقوع اللفظة على المعنيين المتضادين، لأنها يتقدمها ويأتي بعدها ما يدل على خصوصية أحد المعنيين دون الآخر، فلا يراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنى واحد"¹، ثم واصل ردّه فعلل للأضداد بتداخل اللهجات كما فعل أبو علي الفارسي²، وأضاف علة أخرى لنشأتها في اللغة مفادها أن الأصل لمعنى واحد، ثم تداخل المعنيان على جهة الاتساع، يقول: "وقال آخرون: إذا وقع الحرف (اللفظ) على معنيين متضادين فالأصل لمعنى واحد، ثم تداخل الاثنان على جهة الاتساع. فمن ذلك الصّريم، يقال لليل صريم، وللنهار صريم، لأن الليل ينصرم من النهار، والنهار ينصرم من الليل، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع"³.

وتأكيداً منا على صواب فكرة ابن الأنباري في الرجوع إلى استفتاء سياق الكلام من أوله إلى آخره، واستيفائه، واستكمال جميع حروفه لتحديد أي المعنيين يقصده المتكلم باللفظة الواحدة، نورد هاتين اللفظتين "جلّ والجون"، ونوضح دور السياق في بيان دلالتيهما. فمن أضداد أبي حاتم السّجستاني المتوفى سنة 255هـ:

"جلّ: قال أبو عبيدة أمر جلّ أي جليل، وأمر جلّ أي هين يسير صغير"⁴.
وقال امرؤ القيس⁵ :

أَتَانِي حَدِيثٌ فَكَذَّبْتُهُ بِأَمْرِ تَزْعَزَعُ مِنْهُ الْقُلُوبُ

1- ابن الأنباري: كتاب الأضداد، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت (لبنان)، ط. 1998، ص 02.
2- أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي: ولد في فاسا من أم عربية، وتوفي في بغداد سنة 377هـ، من نحوي البصرة، له كتاب "الإيضاح في النحو".
3- المصدر نفسه: ص 08.
4- أبو حاتم السجستاني: كتاب الأضداد، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1991، ص 145.
5- امرؤ القيس: شرح ديوان امرؤ القيس للأعلم الشنتمري، تصحيح ابن أبي شنب، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 470-471.

لَقَتْلِ بَنِي أَسَدٍ رَبِّهِمْ أَلَا كُنْتُ شَيْءٌ سِوَاهُ جَلِّ

أي هين، لأن قتل بني أسد ملكهم أبا الشاعر أمر عظيم شبيه بالزلزال الذي تتزعزع منه القلل (جمع قُلَّة) أي أعالي الجبال، لذا فما عداه من أمور يعدّ في نظر امرئ القيس أمرا هينا صغيرا؛ فمن البين أن سياق البيت الذي وردت فيه لفظة (جلل) والبيت الذي قبله يحددان المقصود بدقة، وأما قول لبيد¹:

وَأَرَى أَرْبَدًا قَدْ فَارَقَنِي وَمِنَ الْأَرْزَاءِ رِزْءٌ ذُو جَلِّ

أي ذو عظم، فموت أخيه أربد الذي أعرض عن الإسلام، فأهلكه الله تعالى بالصاعقة، لاشك رزء عظيم أصيب به الشاعر، لا يدانيه أي رزء آخر. ومن الأضداد "جون"، ويقال الجون للأسود ويقال للأبيض، والأكثر الأسود²، كقول أبي ذؤيب الهذلي³:

وَالدَّهْرُ لَا يُبْقِي عَلَى حَدَثَانِهِ جَوْنَ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعُ

يعني حمارا وحشيا أسود الظهر، والجدائد الواحدة جدود: الأتّن لا ألبان لها. فلئن هلك بنوه وتواترت عليه المصائب بعدهم، فهذا من الدهر غير عجيب لأنه لا يُبْقِي عَلَى حَدَثَانِهِ شَيْئًا. وقال الفرزدق يصف قصرا أبيض⁴:

وَجَوْنٍ عَلَيْهِ الْجَصُّ فِيهِ مَرِيضَةٌ تَطَّلَعُ مِنْهَا النَّفْسُ وَالْمَوْتُ حَاضِرٌ⁵

فقد أراد بالجون القصر الأبيض، وفيه امرأة منعمة قد أضرّ بها النعيم وتقل جسمها وكسلها، فمن أجلها تخرج الروح والموت مقيم بكنفها.

وكما هو واضح من خلال هذين الشاهدين للفظة " الجون " أن المعنى المقصود قد يُعْمَى عتًا-نحن أبناء هذا العصر-إذا كانت الألفاظ المجاورة لها في السياق تضطرننا إلى الاستنجاد بالشروح الشعرية القديمة أو المعاجم اللغوية لفهم دلالاتها.

وهذا الإشكال الذي يطرح دوما مع الأضداد التي تعني وجود لفظ واحد يستعمل في معنيين متضادين، يقل مع التضاد الذي يعني به علماء اللغة المحدثون وجود لفظين يختلفان

1- لبيد بن ربيع: ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت (لبنان)، 1966، ص148.

2- الأضداد: ص158.

3- أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب، دار بيروت، بيروت (لبنان)، 1980، ص242.

4- الفرزدق: شرح ديوان الفرزدق، إيليا حاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني ومدرسة الحياة، بيروت (لبنان)، ط.1، 1983، ج1، ص356.

5- الجون: القصر. والجص: الكلس. المريضة: المريضة الطّرف في رنّها.

نطقاً ويتضادان معنى، لتلازمهما في الذهن عبر ما يسمى بتداعي المعاني والألفاظ، واقترانهما في الكلام متقاربين أو متباعدين قليلاً¹.

ولقد ألفت المناهج اللغوية الحديثة التي اهتمت بدراسة المعنى الموضوع الأساس لعلم الدلالة مزيداً من الأضواء لفهم طبيعة المعنى، سواء منه المعنى المعجمي أي معنى الكلمة المفردة أو معاني الجمل والتراكيب. وقد بلغت هذه الجهود اللغوية من الطموح إلى حد استخدام اللغويين وعلماء النفس صوراً من قياس المعنى لتحقيق عدة أغراض، نقصر منها على الغرض الذي يتعلق بالتضاد، وهو "قياس المعنى الأساسي للكلمات المتضادة، وذلك بوضع معيار متدرج لتحديد درجات الكلمات التي تقع في التضاد المتدرج بين طرفين متضادين. وعلى هذا المقياس يجري توزيع سلسلة الكلمات المتضادة"². وتبدو أهمية هذا المقياس إذا "أردنا-مثلاً-أن نعلل للحكم بالتضاد على الفعلين: يهمس ويصيح، ونفي التضاد عن الفعلين: يصيح ويقول... ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بعمل مقياس متدرج توزع عليه كلمات التسلسل كما يلي: يهمس-يوشوش-يتمتم-يتنهد-يغمغم-يحف-يطن-يتذمر-يصيح-يتكلم-يصرخ-ينادي-يبكي-ينهته... فلكي يكون اللفظان متضادين يجب أن يختلفا فقط في ملمح "العلو"، وتكون أي كلمة من كلمات العلو مضادة لأي كلمة من كلمات الانخفاض"³.

وقد أفادت نظرية الحقول الدلالية من طرق قياس المعنى لتحقيق هدفها وهو "جمع كل الكلمات التي تخص حقلاً معيناً، والكشف عن صلاتها الواحد منها بالآخر، وصلاتها بالمصطلح العام"⁴. ونعني بالحقول الدلالي CHAMP SEMANTIQUE أو الحقول المعجمي CHAMP LEXICAL "مجموعة من الكلمات ترتبط دلالاتها، وتوضع عادة تحت لفظ عام يجمعها، مثال ذلك كلمات الألوان في اللغة العربية، فهي تقع تحت المصطلح العام "لون"، وتضم ألفاظاً مثل: أحمر-أزرق-أصفر-أخضر-أبيض..."⁵.

¹- ينظر: بيثا الطرمّاح بن حكيم كشاهد على ما لم تتحدّ فيه عبارتا المعنيين المتقابلين، (ص16 من هذا البحث).

²- علم الدلالة: ص42.

³- المرجع نفسه: ص43.

⁴- المرجع نفسه: ص80.

⁵- المرجع نفسه ص79.

ويرى أصحاب هذه النظرية، وعلى رأسهم ليونز LYONS ، أن معنى الكلمة ما هي إلا "مُحصّلة علاقاتها بالكلمات الأخرى في نفس الحقل المعجمي"¹، ولذا فمن الضروري عندهم بيان أنواع العلاقات داخل كل حقل معجمي. ولا تخرج هذه العلاقات في أي حقل معجمي عما يأتي: الترادف-الاشتغال أو التضمن-علاقة الجزء بالكل-التضاد-التنافر².

وتهمنا من بين هذه العلاقات علاقة التضاد التي تشمل أنواعا متعددة من التقابل: أ-فهنالك ما يسمى بالتضاد الحاد أو التضاد غير المتدرج، وهو قريب من النقيض عند المناطقة، ويتفق مع قولهم إن النقيضين لا يمكن أن يصدقا معا أو يكذبا معا، مثل: ميت، حي-متزوج، أعزب-ذكر، أنثى. وفي أحد عضوي التقابل يعني الاعتراف بالآخر، فقولنا إن فلانا غير متزوج، فهذا يعني الاعتراف بأنه أعزب. وفي مثل هذه المتضادات لا يمكن الاعتراف بدرجات أقل أو أكثر، مثل: "جدا" أو "قليلا" أو "إلى حدّ ما"³.

ب- وهناك ما يسمى بالتضاد المتدرج، ويقع بين نهايتين لمعيار متدرج أو بين أزواج من المتضادات الداخلية، ويحمل عند المناطقة اسم "التضاد"، ويصفونه بأن الحدين فيه قد يكذبان معا، بمعنى أن شيئا قد لا ينطبق عليه أحدهما، إذ بينهما وسط. وإنكار أحد عضوي التقابل لا يعني الاعتراف بالعضو الآخر، فقولنا: الحساء ليس ساخنا لا يعني الاعتراف بأنه بارد. وهذا النوع من التضاد نسبي، فقولنا: "الحساء ساخن" يختلف عن قولنا: "الماء ساخن". ويمكن مثلا بالنسبة إلى درجات الحرارة وضع مقياس متدرج على النحو الآتي: غال-ساخن-حار-دافئ-معتدل-مائل للبرودة-بارد-قارس-متجمد. فالتضاد الخارجي أو المتطرف بين: غال و متجمد، وهناك تضادات داخلية بين: حارّ وقارس، وبين دافئ وبارد، وبين معتدل ومائل للبرودة⁴.

ج- وهناك نوع اسمه العكس، ويسمى عند المناطقة التّضاييف، والمتضاييفان هما اللذان لا يتصور أحدهما، ولا يوجد بدون الآخر، وهو علاقة بين أزواج من الكلمات مثل: باع،

1- المرجع السابق: ص 98.

2- الترادف ("أم" و"والدة") -الاشتغال (معنى "فرس" يتضمن معنى "حيوان")- علاقة الجزء بالكل (علاقة اليد بالجسم)- التنافر (مثل علاقة الرتبة، فالقول: محمد رائد يعني أنه ليس مقدما ولا لواء...) (ينظر: المرجع السابق: ص 98-106).

3- المرجع السابق: ص 102.

4- المرجع السابق: ص 102-103.

اشترى- زوج، زوجة- والد، ولد. فلو قلنا: محمد باع منزلا لعلي، فهذا يعني أن عليا اشترى منزلا من محمد. ولو قلنا: محمد زوج فاطمة، فهذا يعني أن فاطمة زوجة محمد¹.

د- وذكر ليونز LYONS نوعا من التضاد سماه "التضاد الاتجاهي"، ويتمثل في علاقة بين كلمات تجمعها حركة في أحد اتجاهين متضادين بالنسبة إلى مكان ما، مثال ذلك: "أعلى، أسفل" يمثل حركة في اتجاه رأسي، و"يصل، يغادر" و"يأتي، يذهب": يمثلان حركة في اتجاه أفقي².

هـ- كما ميّز ليونز بين ما سماه التضادات العمودية مثل الشمال بالنسبة إلى الشرق والغرب حيث يقع عموديا عليهما، والتضادات التقابلية أو الامتدادية مثل الشمال بالنسبة إلى الجنوب، والشرق بالنسبة إلى الغرب³.

والمتمثل لهذه الأنواع المحددة من التقابل، يستخلص أنها بنيت على علاقات منطقية تمنحها أكبر قدر من الدقة والمصدقية، مما يفسح المجال أكثر أمام اتساع دائرة الحكم بالتضاد وضيق دائرة نفي التضاد.

ويمكن أن نضيف إلى ما سبق ذكره أن "أكثر الأضداد الموجودة في كثير من اللغات غير مرتبطة اشتقاقيا مثل: حسن، سيء - وجميل، قبيح - وعال، منخفض. ولكن كذلك يوجد المرتبط اشتقاقيا مثل: والد، ولد-وزوج، زوجة-وأخ، أخت... ومن الممكن أن يجتمع النوعان كما في مثل: "متزوج" التي ضدها: أعزب أو غير متزوج"⁴.

والتضاد يأتي في الكلام بالفاظ الحقيقة أو بالفاظ المجاز، ويكون بين مفرد ومفرد كالجمع بين اسمين، أو فعلين، أو حرفين، أو بضم الاسم إلى الفعل، أو الفعل إلى الاسم. ويكون التضاد بين جملة وجملة: بين جملة مثبتة وأخرى منفية، أو جملة تحوي نهيا وأخرى أمرا؛ وقد سمي البلاغيون العرب ما جاء من التضاد بنفي أو نهي طباق السلب، وما جاء بغير ذلك فهو طباق الإيجاب.

1- المرجع السابق: ص 103.

2- المرجع السابق: ص 103-104.

3- المرجع السابق: ص 104.

4- المرجع السابق: ص 104-105.

ويبدو لنا أن التضاد لا يحيا ولا ينتج دلالاته الثرية إلا داخل السياق الذي تتأزر فيه الألفاظ والتراكيب لتشكيل الصورة الشعرية ورسم ملامح المعنى. وعلى هذا الأساس، فإذا كان استخراج التضاد من الكلام خطوة هامة في عمل الباحث، فإن الأهم هو الكشف عن دلالاته الخاصة التي يولدها السياق.

ولعلّ عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة 471هـ كان متجاوزا لعصره بكثير حين تحدث عن معنى المعنى، فقال: " أن نقول المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يُفصي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر"¹، ولذلك فالكلام-في رأيه-على ضربين: ضرب يعطيك معناه من ظاهر اللفظ وحده مثل قولك: خرج زيد، فأنت تخبر عنه بالخروج على الحقيقة. وضرب آخر يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تنتقل من ذلك المعنى إلى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، فأنت تستدل من المعنى الظاهر لقولك: " هو كثير رماد القدر" معنى ثانيا هو غرضك، فتعرف أنه مضياف؛ ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل². ثم أضاف مثالا آخر: " وكذلك تعلم من قوله: بلغني أنك تقدم رجلا وتؤخر أخرى: أنه أراد التردد في أمر البيعة واختلاف العزم في الفعل وتركه"³. وما لم يقله عبد القاهر الجرجاني في هذا المثال أن هذا " التردد " الذي نعته بأنه معنى المعنى، إنما حققه التضاد الذي جسد ذلك الصراع الداخلي في نفس هذا الشخص بين الإقدام والإحجام في أمر البيعة، حتى إن إحدى رجليه -والكلام وارد على سبيل المجاز- كانت في اتجاه معاكس للأخرى.

وما نطمح إلى تحقيقه في هذا البحث هو ما أراده عبد القاهر من مصطلح "معنى المعنى"، ونصبو إلى تجاوزه للكشف عما يعتمل في نفسية الشاعر من مشاعر وأحاسيس متناقضة، وبيان موقفه من الحياة، ونظرته إلى الكون من خلال دلالات التضاد الكامنة في ثنايا أشعاره.

1- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، موفم للنشر، الجزائر، 1991، ص251.

2- المصدر نفسه: ص250.

3- المصدر نفسه: ص251.

الفصل الثاني:

التضاد

في

شعر ما قبل الدعوة الإسلامية

(المعلقات العشر)

إنّ طبيعة بحثنا تقتضي أن نبدأ رحلتنا من العصر الجاهلي باحثين عن التضاد في حنايا حياة الشاعر العربي في هذا العصر المضطرب الذي يكتفه كثير من التيه والسير نحو المجهول، لذا كثر في الشعر الجاهلي الشكوى من الزمان وتقلبات الأيام خلال حياة يرصدها الموت، صفو قليل وكدر كثير. فقد عاش الإنسان العربي في صحرائه الشاسعة حياة قلقلة، يصارع ظروف بيئته القاسية من أجل البقاء، ويتربص به الموت في كل لحظة؛ فهو إن لم يمت جوعا وعطشا من الجذب والقحط، مات قتلا بضربة سيف أو طعنة رمح، أو رمية سهم سديد في غارة له أو غارة عليه، أو في ثار له أو ثار منه أو من قومه.

ولقد كان الشعر الجاهلي سجلا صادقا ودقيقا وواقعا لأيام العرب وأخبارهم وأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية، وصراعهم الدائم مع الموت. و" أجمع أهل الأدب على أنّ أبلغ شعر قيل في زمن الجاهلية القصائد الطوال المسماة بالمعلقات. وقد اختلفوا في وجه تسميتها بذلك، فذهب جمهورهم إلى أنّها سمّيت بالمعلقات لأن العرب علقوها بأستار الكعبة إعجابا بها وإكبارا لشأنها¹". ومثلما اختلفوا في أصل تسمية المعلقات، اختلفوا في عددها، فجعلها بعضهم سبعا، ورأى بعضهم أنها ثمانية، وبلغ بها إلى العشرة²؛ وإلى هذا العدد الأخير نركن، لأنه يمنحنا فسحة أكبر للبحث عما نبتغيه.

ونستهل هذه المعلقات بمعلقة امرئ القيس بن حجر الكندي المتوفى سنة 560م، المقدم-عند الرواة والنقاد العرب القدماء - على شعراء الجاهلية بما ابتدعه من أشياء استحسناها العرب، واتبعته فيها الشعراء، كاستيقاف صحبه، والبكاء على الأطلال، ورقة النسيب، وقرب المأخذ، وجودة التشبيه³. فقد بلغ من براعته الشعرية أنه وقف على الأطلال واستوقف صحبه، وبكى واستبكى، وذكر الحبيب والمنزل في مصراع واحد من مطلع معلقته، فقال⁴:

قفا نَبَكِ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ
بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ⁵

¹ الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشر، ضبط وتصحيح عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية، بيروت (لبنان)، ط2، 1987، ص5.

² المصدر نفسه: ص7.

³ محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، شرح محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة (المملكة السعودية)، (دون تاريخ)، ج1، ص55.

⁴ شرح ديوان امرئ القيس: ص60.

⁵ السقط: منقطع الرمل، واللوى حيث يلتوي ويرق، وذلك أثبت لأوتاد الأبنية-الدخول وحومل: موضعان.

فإذا جرت العادة أن يُقدّم لنا امرؤ القيس على أنه ابن ملك مترفاً، لاهياً، مغتتماً للذات أينما وجدها، ينتقل من منزل إلى منزل مع صحبه، يقضي أيامه سعيداً في لهو وشرب وصيد، قد عرف-عدا ابنة عمه فاطمة التي عشقها- نساء كثيرات كأمّ الحويرث وأمّ الرّباب معرفة طويلة أو عابرة، فإنه يبدو غريباً أن تهيج فيه الأطلال كل تلك الذكريات الخوالي حلوها ومرها؛ لأن هذا التعجب يتبدد حين نعلم أن الليل والنهار باتا عنده سواء، فهو يقضيها في مزيد من المعاناة لذكرى الأحبة، ومقاساة لوعة الفراق، وطوفان من الهموم ينوء تحته في ليله الطويل، يقول:¹

وَأَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرخَى سُودْلَهُ
عَلِيَّ يَأْنِي وَوَأَعِ وَوَأَعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي²
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّيَ بِجَوْزِهِ
وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ يَكْتَكِلُ³
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلُ
بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ فَيْكَ بِأَمْتَلِ⁴
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ
يُكَلِّ مُغَارِ الْقَتْلِ شَدَّتْ بِيَدْبَلِ⁵

فكأنما نجوم ليله الطويل الذي تباعد ما بين أوائله وأواخره، لا تزول من أماكنها، لتزداد همومه وأحزانه، ويوضع صبره وجلده تحت المحك. فهو يود أن ينجلي الظلام بضياء من الصباح، ولو أن الليل والنهار -في حياته- ليسا ضدين، بل هما سواء في معاناة الهموم والأحزان، فقدّره ألا تدوم له سعادة، وألا يقر له قرار في منزل. لكن امرأ القيس لا يستسلم للأقدار، عدّته في ذلك فرسه النجيب، يغتدي على صهرته لاغتنام لذة أخرى حبيبة إلى نفسه لذة الصيد، يقول:⁶

وَقَدْ أَعْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا
بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ⁷
مِكْرٌ مِفْرٌ مَقْبَلٍ مُدْبِرٍ مَعَا
كَجَلْمُودِ صَخْرِ حَطَّةِ السَّيْلِ مِنْ عِلِ⁸
لَهُ أَيُّطَلَا ظَبِيٍّ وَسَاقَا نَعَامَةٍ
وَلِرِخَاءِ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيْبِ تَنْقَلِ

¹ المصدر السابق ص 80-81.

² سدوله: ستور ملبينلي: ليختبر ما عنده من الصبر والجزع.

³ تمطى: امتد بجوزه بروي بصلبه: وهو عظم الظهر من لدن الكاهل إلى العجز ووردف: أعاد وأعجاز جمع عجز، وهو ما بعد الظهر منه، أي أعاد علي أو آخره ناء بكتل: أي نهض بصدرة.

⁴ ألا أنجل: أي انكشف- فيك بروي منك.

⁵ المغار: شديد القتل- ويذبل اسم جبل.

⁶ المصدر السابق: ص 82-86.

⁷ وكناتها: الواحدة وكنة، وهو العش- المنجد: الفرس القصير الشعر- الأوابد: الوحوش النافرة والهيكل: الضخم من كل شيء

⁸ مكر مفر: سريع الكر والفر- الجلمود: الصخرة الملساء التي ليست بكبيرة-

إنه يبكر للصيد على فرس أصيل مدرب على الكرّ والفرّ، وعلى الإقبال والإدبار، وهي حركات-على تضادها-تدل على إحسانه المناورة لإدراك صيده، وتقييد حركاته في قوة وسرعة الصخر الصلب يدفعه السيل من مكان عال. وهذه السرعة العجيبة في حصانه ناجمة من صفاته الجسمية الفريدة، فقد أخذ من الغزال ضمور خاصرته، ومن النعامة طول ساقها وصلابتها، ومن الذئب سرعة جريه وسهولته، ومن ولد الثعلب حسن تقريبه، على سبيل تشبيهه بأربعة أشياء بأربعة أشياء.

ولعل امرأ القيس حين يصف قوة فرسه وتناسق أعضائه وقيده للأوابد، إنما يعبر عن قدرته هو على أسر قلوب النساء اللاتي عرفهن، واستمتاعه بهن على الرغم من الحرس والرقباء؛ ففوة الفرس ومضاء السيف امتداد لمهارة الفارس وفروسيته عند العرب. وقد يخطئ من يتصور امرأ القيس ذا شخصية سلبية منفصلة عن الواقع، لا هم لها إلا إشباع نهمها إلى الخمر والنساء والصيد، وإلا كيف نفسر نهوضه بقية حياته للأخذ بثأر أبيه وهو أصغر إخوته¹؟

إن لامرئ القيس فلسفته الخاصة في الحياة، يعرضها علينا في هذه الأبيات من قصيدة له، يقول:²

قَالُوا أَنْ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي، وَلَمْ أَطْلُبْ، قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ³
وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِمَجْدٍ مُؤْتَلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤْتَلُ أَمْتَالِي⁴
وَمَا الْمَرْءُ مَا دَامَتْ حُشَاشَةُ نَفْسِهِ بِمُدْرِكِ أَطْرَافِ الْخُطُوبِ وَلَا أَلِي⁵

فمن طبع شاعرنا وشخصيته أن يصل بكل أمر إلى الغاية التي ما بعدها غاية، يبذل في ذلك أقصى ما يستطيع غير مقصر ولا متوان؛ فهو يصل بصوره الشعرية ومعانيه إلى الحد الذي يكون به إماما لمن جاء بعده من الشعراء، ويبلغ به الشغف بالحسان إلى حد

¹مصطفى الغلاييني: رجال المعلقات العشر، المكتبة العصرية، بيروت (لبنان)، ط. 1990، ص 70.

²المصدر السابق: ص 122-123
ومطلع قصيدته:

أَلَا عَمَّ صَبَّاحًا أَبْهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يَجْمَعُ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي؟

³ولم أطلب الملك.

⁴المؤتل: المتمر الذي له أصل، وهو الكثير أيضا.

⁵حشاشة النفس: بقيتها وحياتها، يقول: الإنسان ما دام حيا، فإنه لا يدرك أواخر الأمور، ولا ينال غايات الآمال، ولا يتأني له كل ما يريد، وهون مع ذلك لا يألو أي لا يترك جهده في الطلب.

اقتحام قبائلهن غير مبال بالحرس ولا بالزوج الغيور من أجل إشباع لذته. ثم إنه يطلب ثار أبيه الملك القليل، فلا يكفيه من قتل من بني أسد بمساعدة قومه من العرب، بل يقصد فيصر الروم عليه يعينه على استئصال شأفة أعدائه¹.

ونمضي إلى الشاعر عبيد بن الأبرص الأسدي المتوفى سنة 555م، معاصر امرئ القيس ونديم أبيه الملك حجر بن الحارث الكندي،² ثم غريمه بعد مقتله. وقد قيل إن عبيدا كان من المعمرين، وعاش أكثر من مائتي سنة،³ وحلب أشطر الدهر، وشهد من الحوادث العظام ما يشيب له الوالدان، لذا يلاحظ القارئ لمعلقته بروز الروح التعليمية فيها بما تخللها من حكمة وموعظة منذ مطلعها الطلي، يقول:⁴

أَفَقَّرَ مِنْ أَهْلِهِ مَخُوبٌ فَالْقُطْرِيَّاتُ فَالذُّوبُ⁵
 إِنْ بُدِّلتْ أَهْلُهَا وَخُوشًا وَغَيَّرَتْ حَالَهَا الخُطُوبُ
 أَرْضٌ تَوَارَثَهَا شَعُوبٌ وَكُلُّ مَنْ حَلَّهَا مَخْرُوبٌ⁶
 إِمَّا قَتِيلًا، وَإِمَّا هَالِكًا وَالشَّيْبُ شَيْنٌ لِمَنْ يَشِيبُ⁷

يذكر الشاعر كثيرا من الأمكنة كانت عامرة مانوسة بأهلها، واليوم صارت فقرا منهم لما انتابها من حوادث الدهر، فأضحت مرتعا للوحوش تجوب أرجاءها. وليس ذلك عجيبا في أرض ملكها الموت وتوارثها، فلا أمن فيها للإنسان على ماله ولا على حياته؛ فهو إما أن يُقتل أو يهلك، أو يُعمرَ فيبلغ أرذل العمر، فيعيش عالة على غيره في بيئة قاسية لا مكان فيها للضعيف. لذا، لا يملك الشاعر الشيخ إلا دموعه يُعزِّي بها شبابا ولي، فهو يتوق إليه، ولكن هيهات أن يعود بعدما ران عليه الشيب! يقول:⁸

عَيْنَاكَ دَمْعُهُمَا سَرُوبٌ كَأَنَّ شَأْنِيهِمَا شَعِيرَةٌ⁹

¹ الشعر والشعراء: ص 61-62.

² رجال المعلمات العشر: ص 305.

³ المرجع نفسه: ص 303.

⁴ عبيد بن الأبرص: شرح ديوان عبيد بن الأبرص، كرم البستاني، دار بيروت، بيروت (لبنان)، ط. 1979، ص 23-24.

⁵ ملحوب: اسم ماء لبني أسد- القطيبات: جبل- الذنوب: موضع في ديار بني أسد.

⁶ شعوب: المنية- المحروب: مفعول من حربه سلبه ماله ولم يترك له شيئا.

⁷ والشيب شين: أي أنه يجمل بالرجل أن يقتل أو يهلك قبل أن يشيب لأن الشيب عيب في نظرهم.

⁸ المصدر السابق: ص 24-26.

⁹ سرروب: فاعول من سرب الماء إذا جرى- الشئانان: عرقان في الرأس يجري منهما الدمع إلى العين- الشعيب: القرية الخلقة.

تَصْبُو، فَأَتَى لَكَ التَّصَايِي وَآتَى، وَقَدْ رَاعَكَ المَشْيِبُ¹

وَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَوُوبُ وَغَائِبُ المَوْتِ لَا يَوُوبُ²

أَعَاقِرُ مِثْلَ دَاتِ رَحْمِي؟ أَوْ غَائِمٌ مِثْلَ مَنْ يَخِيبُ؟³

لقد توارى شباب الشاعر إلى غير رجعة، أماتته شيخوخة طويلة مضاعفة فصار سرايا. إن عبدا يبكي شابا بعيدا عنه الآن، يوم كان خصبا، قويا، قادرا على الكسب والعتاء. لكن ما فائدة الكد والسعي للعاقل اللبيب أمام عبثية الحياة وغدر الزمان؟! يقول:⁴

أَفْلَحَ بِمَا شِئْتُ، فَقَدْ يُبْلَغُ بِالْ— ضَعْفٍ، وَقَدْ يُخَدَعُ الأَرِيْبُ⁵

إِلَّا سَحِيَّاتِ مَا الْفُؤُوبِ وَكَمْ يَصِيْرَنَّ شَائِنًا حَيْبُ⁶

سَاعِدٌ بِأَرْضٍ إِذَا كُنْتَ بِهَا وَلَا تَقُلْ: إِلْتَنِي غَرِيْبُ

قَدْ يُوصَلُ النَّازِحُ النَّائِي وَقَدْ يُقَطَعُ ذُو السُّهْمَةِ القَرِيْبُ⁷

فما أشد تناقضات الحياة! وما أكثر تقلبات نفوس البشر، وتعايشها مع الأضداد! فقد ينال فيهم الضعيف بضعفه مالا يناله القوي بقوته. وقد تتقلب عواطفهم، فيصير الحبيب مبغضا، والمبغض حبيبا، ويبين الغريب المخالط لهم موصولا مقربا، والقريب النسب معقوقا مهجورا؛ لذا فاللبيب هو من لا يتعب نفسه، ولا يحرص على شيء في هذه الحياة، بل يأخذها كما جاءت، حتى يحياها مطمئن البال بعيدا عن القلق والهم.

وننتقل من الشاعر الشيخ إلى الشاعر الشاب طرفة بن العبد البكري المتوفى سنة 565م، الذي بلغ في الست والعشرين سنة التي عاشها طولا وعرضا، قبل أن يقتله مهجوه عمرو بن هند ملك الحيرة، ما لم يبلغه غيره في طول أعمارهم. ولقد ذاق طرفة-وهو صغير-مرارة اليتيم وجور أعمامه على حق أمه وردة وأبنائها في مال أبيهم.⁸ ومعلقته

¹ لتصبو: تميل إلى الصبوة، وهي جملة الفتوة-أي لك هذا بعدما قد صرت شيخا؟ راعك: أقرعك.

² يوبوب: يرجع.

³ أراد بالعاقر: المرأة التي لا تلد-وحدات الرحم: الولود.

⁴ المصدر السابق: ص 26.

⁵ أفلح بما شئت: أي عش به-الأريب: العاقل.

⁶ السحيات: الواحدة سحية: الطبيعة والخلق-الشائئ: المبغض.

⁷ الننازح والنائي: واحد، وهو البعيد النسب والدار يقطع: يعق-السهمه: القسمة، النصيب.

⁸ الشعر والشعراء: ص 109.

صورة واضحة لشخصيته ومسلكه في الحياة، فهو ميال إلى اللهو وإتلاف ماله في الاستمتاع بالخمير والنساء، وبذل نفسه في سبيل قبيلته. وقد بدأ طرفه معاقته بداية تقليدية غزلية بالوقوف على الأطلال وهيجان ذكرى محبوبته خولة التي درست آثار ديارها، قال:¹

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٍ يُرْقَّةَ تَهْمَدٍ تَلُوْحُ كَبَائِي الوَشْمِ فِي ظَاهِرِ اليَدِ²
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَادٍ³

ثم انتقل إلى وصف ناقته النشيطة عدته في السفر إذا ألم به الهم، قال:⁴

وَإِنِّي لَأَمْضِي الهمَّ، عِنْدَ احْتِضَارِهِ يَعُوجَاءُ مِرْقَالٍ ثُرُوحٌ وَتَعْتَدِي⁵

إنها ناقة قوية سريعة تصل سير الليل بسير النهار لتسليه عن همومه، ففي الأسفار سلوى وتجدد، لكن طرفه وفي لقبيلته، يغادرها طوعا أو كرها، ثم يعود إليها ليكون في خدمتها والمبادر إلى الدفاع عنها، يقول:⁶

إِذَا القَوْمُ قَالُوا مَنْ قَتَى؟ خِلْتُ أَنِّي عُنَيْتُ، فَلَمْ أَسْأَلْ وَلَمْ أَتَبَّأْ—
فَإِنْ نَبَغْنِي فِي حَلْقَةِ القَوْمِ تَلْفَنِي وَإِنْ تَقَنَّصْنِي فِي الحَوَانِيْتِ تَصْطَدُ⁷

إن في بيته الأخير دلالة فريدة على قوة شعور العربي بالانتماء إلى القبيلة. فمتى نادى المنادي، قال له: لبيك! غير متناقل ولا متماطل، في السلم وفي الحرب، في جدّه وفي هزله. فشاعرنا الشاب لا يرى تناقضا في حياته، فهو لا يجد صعوبة في التوفيق بين مجلس الجدّ والوقار في حلقة القوم، ومجلس الهزل والعبث في حوانيت الخمر، ينفق ماله على صحبه في شرب الخمر غير مُبْقٍ على مال حديث مكتسب ولا مال قديم موروث، حتى حكمت عليه قبيلته بالعزلة متهمه إياه بالفساد والتبذير، فتجنّب قومه تجنّب البعير

¹ طرفه بن العبد: ديوان طرفه بن العبد، كرم البستاني، دار بيروت، بيروت (لبنان)، ط. 1979، ص 19.
² خولة: اسم امرأة كلبية-الطلال: ما شخص من رسوم الدار، والجمع أطلال وطلول-البرقة والأبرق والبرقاء: مكان اختلط ترابه بحجارة أو حصى، والجمع الأبارق والبراق والبرق-تهمد: موضع تلوح: تلوع-الوشم: غرز ظاهر اليد وغيره بآبرة وحشو المغارز بالكحل أو النقش بالنيلج.
³ وقوفا: أي في حال وقف أصحابي مطيهم علي-التجدد: تكلف الجلادة وهو التصبر.
⁴ المصدر نفسه: ص 22.
⁵ الاحتضار: الحضور-العوجاء: الناقة التي لا تستقيم في سيرها لفرط نشاطها-المرقال: مبالغة مرقل من الإرقال: وهو بين السير والعدو.
⁶ المصدر نفسه: ص 29-30.

⁷ البغاء: الطلب، والفعل بغى يبغى- الحانوت: بيت الحمّار- الاصطباد: الاقتصاص.

الأجرب المطليّ بالقطران، يقول¹:

وَمَا زَالَ تَشْرَايِي الْخُمُورَ وَلَدَّتِي
إِلَى أَنْ تَحَامَتْنِي الْعَنِيْرَةُ كُلُّهَا
رَأَيْتُ بَنِي الْغُبْرَاءِ لَا يُكْرُونََنِي
وَبَيْعِي وَإِنْفَاقِي طَرِيفِي وَمُتْلِدِي²
وَأَفْرَدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ³
وَلَا أَهْلُ هَذَاكَ الطَّرَافِ الْمُمَدَّدِ⁴

فإن هجره قومه الأقباب فقد وجد عزاء في صلة الأباعد من أهل الأرض فقرائهم وأغنيائهم، فهؤلاء لا ينكرون إحسانه إليهم، وأولئك يستمتعون بصحبته ومنادمته. لذا، فهو مفتنع بالقيم التي اعتنقها في حياته مادام الموت غاية كلّ حيّ، ولا مطمع في الخلود؛ فهو يحيا في وفاق مع نفسه، لأنه قادر على الجمع بين السّماحة في بذل نفسه في الحرب وبين السّماحة في بذل ماله في شرب الخمر، غير مُبالٍ بكثرة اللاتمين، يقول⁵:

أَلَا أَيُّهُدَا اللَّائِمِي أَحْضَرَ الْوَعَى
فَإِنْ كُنْتُ لَا تَسْطِيعُ دَقْعَ مَنِيَّتِي
وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ، هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي⁶؟
فَدَعْنِي أَبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي⁷

فمادام الخلود مستحيلا، والموت محتوما، فلا معنى لحرمان النفس من التمتع باللذات بخلا بالمال. فغاية كلّ كريم أن يشبع من الحياة حتى الارتواء بانففاق كلّ ما يملكه، قبل أن يفجأه الموت، يقول⁸:

كَرِيمٌ يُرَوِّي نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ
أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بِخَيْلٍ بِمَالِهِ
تَرَى جُثُوتَيْنِ مِنْ تُرَابٍ عَلَيْهِمَا
أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي
سَتَعْلَمُ، إِنْ مُنْنَا غَدًا، أَيُّنَا الصِّدِي⁹
كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي الْبِطَالَةِ مُفْسِدِ¹⁰
صَفَائِحُ صُمٍّ مِنْ صَفِيحٍ مُضَدِّ¹¹
عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ¹²

1 - المصدر السابق: ص 31.
2 - التشراب: الشرب- الطريف والطارف: المال الحديث- التلبد والتلاد والملتد: المال القديم الموروث.
3 - التحامي: التجنب والاعتزال- البعير المعبد: المذلل المطليّ بالقطران، والبعير يستلذ ذلك فيدلّ له.
4 - الغبراء: صفة الأرض جعلت كالاسم لها- الطراف: البيت من الأدم، والجمع الطروف، وكثي بتمديده على عظمه.
5 - المصدر السابق: ص 32.
6 - الوعى: أصله صوت الأبطال، ثم جعل اسما للحرب- الخلود: البقاء، والفعل خلد يخلد، والإخلاق والتخليد: الإبقاء.
7 - اسطاع يسطيع: لغة في استطاع.
8 - المصدر السابق: ص 33-34.
9 - الصدي: العطشان.
10 - النحام: الحريص على الجمع والمنع- الغوي: الغاوي الضالّ، والغوي والغواوية: الضلالة، وقد غوى يغوي.
11 - الجثوة: الكومة من التراب وغيره، والجمع الجثي- التتضيد: مبالغة التضيد.
12 - الاعتيام: الاختيار- العقائل: كرائم المال والنساء، الواحدة عقيلة- الفاحش: البخيل.

أَرَى الْعَيْشَ كَنْزًا نَاقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصُ الْأَيَّامُ وَالذَّهْرُ يَنْفَدُ¹
لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى كَأَلطَّوْلِ الْمُرْحَى وَثِييَاهُ بِالْيَدِ²

إنَّ طرفه ينطلق من عقيدته عن الموت ليستهين بمال وحياة يوقرهما الحرص والجبن. لذا، فهو يعرض في مقابلة ساخرة- ولكنها سخريّة مريرة- تعامل الموت مع رجلين - الجواد والبخيل- أَرَادَا أَنْ يَكُونَا فِي الْحَيَاةِ نَقِيزِينَ، إِلَّا أَنْ مَصِيرَهُمَا وَاحِدٌ: قَبْرٌ وَسَطٌ قُبُورٍ، تُهَالُ عَلَيْهِمَا فِيهِ كَوْمَتَانِ مِنْ تَرَابٍ، فَوْقَهُمَا حِجَارَةٌ عَرَاضٌ مَنْصُودَةٌ؛ يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ قَبْرٌ بَخِيلٌ حَرِيصٌ بِقَبْرِ مَبْتَرٍ مَتْلَافٍ، لِأَنَّ الْمَوْتَ يَخْتَارُ مِنَ الْكِرَامِ وَمِنَ الْبِخْلَاءِ دُونَ تَمْيِيزٍ. وَالْحَيَاةُ كَنْزٌ يَنْفَدُ بِالنَّقْصَانِ كُلَّمَا نَقَصْتَ الْأَيَّامَ، فَإِنَّ مَدَّةَ فِي عَمْرِ الْمَرْءِ، فَمَا أَخْطَأَهُ الْمَوْتُ، وَإِنَّمَا أَرَخَى لَهُ حَبْلَ الْحَيَاةِ لِيَقْبِضَهُ أُنَى شَاءَ، لِذَا اخْتَارَ طَرْفَهُ أَنْ يَمُوتَ رِيَّانَ مُتَعَةً لَا ظَمَانَ.

وهذا الأسلوب في الحياة تصاحبه أخلاق سمحة، فشاعرنا لا يحمل الحقد لأحد، حتى أعمامه الذين لم يرحموا يتمه، فأكلوا حقه وحقوق أمّه وإخوته في مال أبيهم، ثم نبذوه شاباً بدعوى عبثه وتبذيره. فهاهو يستنجد بابن عمّه مالك لعلّه يعينه على استرداد إبل أخيه معبد التي ضاعت منه، فلا يحظى منه إلا باللوم والتقريع، يقول³:

فَمَا لِي أُرَانِي وَابْنَ عَمِّي مَالِكًا مَتَى أَنْزُ مِنْهُ يَنَاءً عَنِّي وَيَبْعُدُ؟⁴
يَلُومُ وَمَا أَدْرِي عَالَمٌ يَلُومُنِي كَمَا لِأَمْنِي فِي الْحَيِّ قُرْطُ بْنُ مَعْبُدٍ
وَأَيَّاسُنِي مِنْ كُلِّ خَيْرٍ طَلَبْتُهُ كَأَنَّا وَضَعْنَاهُ إِلَى رَمْسٍ مُلْحِدٍ⁵
عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ قُلْتُهُ غَيْرَ أَنَّنِي نَشَدْتُ - فَلَمْ أُعْوَ - حَمُولَةَ مَعْبُدٍ⁶
وَلَمْ دَوِي الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمُهْدَدِ⁷

1 - التقاد والتقود: الفناء، والفعل نفذ ينفذ، والإنفاد والإفناء.
2 - الطول: الحبل الذي يطول للذاتة فترعى فيه- الإرخاء: الإرسال- التني: الطرف، والجمع الأثناء.
3 - المصدر السابق: ص34-36.
4 - التأي والبعد واحد، فجمع بينهما للتأكيد وإثبات القافية.
5 - الرمس: القبر وأصله الذفن- الحدت الرجل: جعلت له حداً.
6 - التشدان: طلب المفقود- الإغافل: الترك - الحمولة: الإبل التي تطبق أن يحمل عليها- معبد: أخوه.
7 - مضتي الأمر وأمضتي: بلغ من قلبي، وأثر في نفسي تهيج الحزن والغضب- الحسام المهتد: السيف القاطع المحدد أو المطبوع بالهند- الحسام: فعال من الحسم وهو القطع.

إن أخلاق طرفة تمنعه من أن يتحوّل إلى خليع¹ أو صعلوك² يجمع شدّاذ الآفاق لينتقم من أعمامه الذين أكلوا حقه، ومن قومه الذين نبذوه، وإّما يريد أن يكون فردا من القبيلة ينصرها وتنصره في السراء والضراء، لذا فقد ألمه أن يلين جانبه لابن عمّه مالك، فيتقرّب منه، فلا يزداد قريبه هذا إلا بعدا عنه، ولو ما له على غير ذنب اقترفه، فكأنّه يسأل ميّتا خيرا. فصرخ شاعرنا صرخته المريرة التي تتأقنتها الأجيال، متبرّما من ظلم الأقرباء الذي هو أمضّ من ضربة بسيف بئار. ولكنّ طرفة يأبى لنفسه الهوان، وإن كان من أقربائه أو من بني قومه، مادام يملك ذهنا متوقّدا، وهمّة عالية، ولسانا حادّا، وسيفا قاطعا، فيمضي مفتخرا بنفسه، مذكّرا بمناقبه، يقول³:

أنا الرّجلُ الضربُ الذي تُعرفونهُ
فأليّت لا ينفكُ كشحّي بطانةً
مُحسّامٍ، إذا فُمتُ مُنتصِراً به
لعمرك، ما أمرني عليّ بغمّةٍ
سُئدي لك الأيّامُ ما كُنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تُزود

فحين لم تنفع الملاينة مع ابن عمّه غير من لهجته، وبدا حازما ماضي العزيمة، سريعا إلى اقتحام الأمور، وهو متمنطق بسيف قاطع من ضربته الأولى، ادّخره لأعدائه. وهذه العزيمة الفولاذيّة إعانته على تجلية همومه، حتى لا ترين عليه بياض نهاره وسواد ليله؛ فهو لا يتشكى - مثل امرئ القيس - من طول ليله ومشابهته لنهاره. وإنّ الأيّام لكفيلة بالكشف عن شمائله، وإعادة الاعتبار له حتى يحوز مكانته اللائقة في قومه.

وقد يبدو لنا، من خلال البيت السّابق الذي صار حكمة سائرة على كلّ لسان، أنّ طرفة كان يثق بإنصاف الأيّام له، ولكنّ هاجس الموت ظلّ يلاحقه باستمرار، ويتربّص به

1 - الخليع: الرّجل بجني الجنائيات يؤخذ بها أولياؤه، فيتبرّاون منه ومن جنابته، ويقولون: إنا خلعنا فلانا، فلا نأخذ أحدا بجناية تجنى عليه، ولا نؤخذ بجناياته التي يجنيها. (ينظر لسان العرب 8: ص 77).

2 - الصّعلوك: الفقير الذي لا مال له، ولا اعتماد... والتّصعلك: الفقر. وصعاليك العرب: ذؤبانها. وكان عروة بن الورد يسمّى: عروة الصّعاليك لآته كان يجمع الفقراء في حظيرة، فيرزقهم ممّا يغمه. (ينظر لسان العرب 10: ص 456).

3 - المصدر السابق: ص 37-41.

4 - الضرب: الرّجل الخفيف اللحم - خشاش: دخال في الأمور بخفة وسرعة.

5 - لا ينفك: لا يزال - البطانة: نقيض الظّهارة - العضب: السّيف القاطع - شفرتا السّيف: حذاه، والجمع الشّفورات والشّفار.

6 - الانتصار: الانتقام - المعضد: سيف يقطع به الشّجر، والمعضد قطع الشّجر والفعل عضد يعضد.

7 - الغمّة والغمّ واحد، وأصل الغمّ التّغطية، والفعل غمّ يغمّ - ليل سرمد: ليل دائم.

الدوائر، وبخاصة حين اتصل بملك الحيرة عمرو بن هند طالبا المجد عنده، فنادمه زمنا، ثم هجاه، فأمر عامله على البحرين بقتله¹، وبذلك صدقت نبوءة شاعرنا بموته في ثنانيا معلّته، حين أوصى ابنة أخيه معبد بأن تنعاه بما هو أهل له من فضل ومكانة، وتشقّ جيبها هلعا وحزنا على فقده، في قوله²:

فَإِنْ مُتْ فَأَنْعَيْنِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشُقِّي عَلَيَّ الْجَيْبَ يَا ابْنَةَ مَعْبَدٍ³
وقد رثته أخته الخرنق الشاعرة بقولها⁴:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعَشْرِينَ حِجَّةً فَلَمَّا تَوَقَّاهَا اسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمًا⁵
فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ عَلَى خَيْرِ حِينٍ، لَا وَليدَا وَلَا قَحْمًا⁶

ومن شاعر قبيلة بكر بن وائل طرفة بن العبد إلى شاعر أختها وغريمها قبيلة تغلب ابن وائل، وفارسها وسيدها عمرو بن كلثوم المتوفى سنة 600م، الذي ولد في بيت عزّ وشرف؛ فأمّه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة الشاعر، وعمّها كليب وائل أعزّ العرب، وأبوه كلثوم بن مالك فارس العرب⁷، وقبيلته تغلب كانت من أشدّ الناس في الجاهلية حتى قيل: إنّه لو أبطأ الإسلام قليلا لأكلت بنو تغلب الناس⁸. وقد ساد عمرو بن كلثوم قومه وهو ابن خمسة عشر عاما، وعمرّ طويلا حتى مات وعمره خمسون ومائة سنة⁹، لذا فلا عجب أن يكون معتداً بنفسه؛ شديد الفخر بمناقب قومه، ليس لجرأته حدّ. وهي جرأة بدأت فنيّة بخروج شاعرنا عن التقاليد المألوفة في بدء قصائد الشعر الجاهلي بالوقوف على الأطلال وتذكّر الأحبة، فاستعاض عن تلك الذكرى بتذكّر أيام شربه وأماكنها بالشام في مطلع معلّته، قال¹⁰:

أَلَا هُبُّي بِصَحْنِكِ فَأَصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا¹¹

1 - الشعر والشعراء: ص 111.

2 - المصدر السابق: ص 39.

3 - التعي: إشاعة خبر الموت، والفعل نعى ينعى - أهله: مستحقه.

4 - المصدر السابق: ص 10.

5 - الحجّة: الستة، جمعها حجج - توقّاهما: أتمّها - ضخما: عظيما.

6 - فجعنا به: فقدناه - القحم: الطاعن في السن، وأرادت إيباه من البحرين لا صغيرا ولا مستا كبيرا.

7 - الشعر والشعراء: ص 141.

8 - رجال المعلّقات العشر: ص 195.

9 - المرجع نفسه: ص 191.

10 - عمرو بن كلثوم: شرح ديوان عمرو بن كلثوم، عبد القادر محمّد مايو، دار القلم العربي، حلب - سورية، ط 1، 1999، ص 77.

11 - هبّي: انهضي وقومي - الصحن: القدح العظيم - أصبجينا: اسقينا خمر الصبح وهي الصبوح، ويقابلها الخبوق وهي خمر المساء - الأندرين: قرية في جنوبي حلب.

تَجُورُ يَذِي اللَّبَانَةَ عَنْ هَوَاهُ¹ إِذَا مَا دَافَهَا حَتَّى يَلِينَا¹
تَرَى اللَّحْزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِرْتُ عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينَا²
وَأَنَا سَوْفَ نَذْرُكَ الْمَنَايَا مَقْتَرَةً لَنَا وَمَقْدَّرِينَ³

إنها دعوة صريحة إلى شرب خمرة شامية مخصوصة من قرية الأندرين، تسلي المهموم عن همومه وتُتسي المحتاج حوائجه، بل تستبيح مال البخيل الحريص، فلا يقاوم سلطانها. ولم البخل بالمال وحرمان النفس من اغتنام اللذات، مادما على لقاء محتوم مع الموت، فهو يطلبنا ونحن نطلبه؟.

فكان عمر بن كلثوم حين اختار تلك المقدمة الخمرية، كان يبحث عن حالة من الهديان لا توقرها له إلا تلك الخمرة الشامية ليقول ما يشاء؛ فلا يتورع عن وصف مفاتن تلك المرأة التي ذكرها في قصيدته، ولا يتوانى في قذف حممه في وجه ذلك الملك الجبار عمرو بن هند دفاعا عن قضية قبيلته تغلب في خلافها الجديد مع غريمها بكر بن وائل بعد انتهاء حرب البسوس⁴، وذلك بسبب هلاك جماعة من التغلبيين، واتهام البكريين بالإيقاع بهم⁵، يقول⁶:

أَبَا هِنْدٍ، فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْهُنَا نُخَبِّرَكَ الْيَقِينَا⁷
يَأْتَانَا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضًا وَنُصَدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَا⁸
وَأَيَّامٍ لَنَا غُرٌّ طُـوَالِي عَصِينَا الْمَلِكِ فِيهَا أَنْ نَدِينَا⁹

¹ - ذو اللبانة: ذو الرغبة أو الحاجة- هواه: مقصده.

² - اللحز: شديد البخل - أمرت عليه: قدمت له.

³ - المنايا: جمع منية وهي الموت- مقتررة لنا: تصيبنا في وقتها.

⁴ - حرب البسوس: جرت بين بكر وتغلب ابني وائل إثر مقتل كليب بن وائل بن ربيعة على يد جساس أخي زوجته جليظة، وكان كليب قد بلغ مرتبة الملوك، واستتب بالتاس حتى جعل معظم الأرض من حماه، وقد قتل ناقة اسمها سراب لرجل نزل ضيفا على البسوس خالة جساس الذي رأى في قتل كليب محوا للعار. وقد قاد هذه الحرب التي استمرت أربعين سنة الفارس الشاعر مهلهل عدي بن ربيعة. وقيل إن المنذر والد عمرو بن هند هو الذي أصلح بين الفريقين. (ينظر: في تاريخ العرب قبل الإسلام لسعد زغلول عبد الحميد: ص 314-315)

⁵ - بطرس البستاني: أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، دار نظير عبود، بيروت (لبنان)، ط. 1989، ج 1، ص 152.

⁶ - ديوانه: ص 78-79.

⁷ - أبو هند: عمرو بن هند ملك الحيرة، وهو عمرو بن المنذر الأكبر بن التعمان الأكبر بن امرئ القيس ويلقب بالمرحوق.

⁸ - نورد الرايات نهجم بالأعلام- نصدرهن: نرتد بهن- روين: اكتفين من الارتواء بالدم.

⁹ - وأيام: رب أيام وما أكثرها- غر: بيضاء ماجدة مشهورة، والمراد هنا أيام الوقائع والحروب- أن ندين: أن نخضع ونستذل.

تَرَكَنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ 1
مَقَدَّةً أَعْتَتَهَا صُورَنَا 1
يَفِيئَانِ يَرُونَ الْقَهْلَ مَجْدًا 2
وَشَيْبٍ فِي الْخُرُوبِ مُجَرَّبِينَ 2

فيا لها من جرأة على ملك طاغية كعمرو بن هند! إن الشاعر الفارس السيد يلمح إلى أنه لا يعترف بسلطان ملك الحيرة على قومه؛ فليس من عادتهم أن ينصاعوا للملوك. وهاهي أيامهم الشهيرة تشهد على قتلهم ملكا وولي عليهم، ووقوف خيلهم اختيالا عند رأسه؛ فهذا دَيْدَنُهُمْ منذ القدم، يخرجون إلى الحروب برايات بيض ناصعة، ويرجعون بها حمرا قد ارتوت من دماء الأعداء.

إن الحرب في قبيلة تغلب باتت أسلوب حياة من أجل تحقيق البقاء، وسلما إلى المجد. فهي عقيدة يعتنقها أفرادها صغارا وكبارا، وهم ينتصرون على أعدائهم بعزيمة شبابهم وخبرة شيوخهم. وهذه القوة المتجددة المتجددة لا يعاديه إلا جاهل يسرع إلى حتفه، يقول محذرا: 3

أَلَا لَا يَجْهَأُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا 4
فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ 4
يَأْيٍ مَشِيئَةٍ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ 5
نُطِيعُ بِنَا الْوَشَاةَ وَتَزْدَرِينَا 5
تَهَدَّدْنَا وَأَوْعَدْنَا، رُوَيْدًا 6
مَتَى كُنَّا لِأُمَّكَ مَقْتُوينَا 6
فَإِنَّ قَنَائِكَ، يَا عَمْرُو، أَعَيْتَ 7
عَلَى الْأَعْدَاءِ قَبْلَكَ أَنْ تَلِينَا 7
وَرِثْنَا مَجْدَ عُلْقَمَةَ بْنِ سَيْفٍ 8
أَبَاحَ لَنَا حُصُونَ الْمَجْدِ دِينًا 8

إنهم يمثلون الجاهلية الجهلاء أصدق تمثيل، فلا مكان للعفو والصفح الجميل، بل يرتدون الجهل بجهل أجهل منه، والظلم بظلم أمر منه، فكيف جرؤ عمرو بن هند على احتقارهم والطمع فيهم إرضاء للوشاة؟ إنهم لم يكونوا يوما خدما له أو لأمه، ولا كانوا لقمة

1 - عاكفة عليه: ملازمة له بهجومها. مقعدة أعتتها: تطوقها أعتتها. صفون: جمع صافن وصافنة، وهي الفرس تقوم على ثلاث قوائم، وتثني الرابعة وقت الهجوم.
2 - الشيب: الشيوخ ذوو الشيب في رؤوسهم.
3 - المصدر الشيب: 79-80.
4 - لا يجهل: لا: هنا، ناهية- يجهل: يسفه ويعتدي.
5 - الوشاة: جمع الواشي وهو الساعي بالشر- تزدرينا: تحقرنا.
6 - أوعد: تهدد بسوء العقاب- رويدا: مهلا، أراد بها التهديد ببقاء جزء سيء - المقتوي: الخادم.
7 - القناة: العصا، وأراد بها السلاح والقوة بيد صاحبها- أعتيت: أعجزت وامتعتت- أعتيت القناة أن تلين: كناية عن التماسك والقوة التي لا تجرب.
8 - علقمة بن سيف: من أجداد بني تغلب، قادم حتى خلص بهم الجزيرة التي أضحت موطنهم- دينا: دائنة بالطاعة.

سائغة للأعداء، منذ سلفهم الأجد علقمة بن سيف الذي أورثهم مجدا تمتد جنوره عبر الزمن، وتطاول هامته عنان السماء. إن شاعرنا ينحدر من سلالة أماجد، لذا فقد ترسخت فيهم تقاليد المجد والكرم والشرف، مما تعلمه القبائل من أحلافهم ومن أعدائهم، وقومه يحسنون تجاوز التناقض في سلوكهم مع هؤلاء وأولئك، حفاظا على تلك التقاليد الموروثة

أبا عن جد، يقول: ¹

وَإِذَا قُبَّ بِأَبْطَحَهَا بَيْنَنَا ²	وَقَدْ عَلِمَ الْقَبَائِلُ مِنْ مَعَا ¹
وَأَنَا الْمُهْلِكُونَ إِذَا قَدَرْنَا ³	يَانَا الْمُطْعَمُونَ إِذَا قَدَرْنَا
وَأَنَا الْآخِرُونَ إِذَا رَضِينَا ⁴	وَأَنَا الْتَارِكُونَ إِذَا سَخَطْنَا
وَأَنَا الْعَازِمُونَ إِذَا أُطْعِمْنَا ⁵	وَأَنَا الْعَاصِمُونَ إِذَا أُطْعِمْنَا
وَيَشْرَبُ غَيْرُنَا كَدْرًا وَطِينًا ⁶	وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا الْمَاءَ صَفْوًا

فهذه الأنا المتفاخرة المتضخمة التي تفرع آذاننا في تأكيد وإلحاح، تملك القدرة على التوفيق بين إكرام الضيفان وإحيائهم وبين قتال الأعداء وإهلاكهم، وتملك-أيضا-الحرية كاملة في ترك ما يغضبها وفعل ما يرضيها، فلا معارض لمشيتها؛ فمن أطاعها سلم وغنم، ومن عصاها كُلم وندم. فلا غرو أن تحظى قبيلة تغلب-إذا حلّ السلام- من العيش بأفضله وأصفاه، فلمالك القوة والجبروت امتيازات، منها الاستقلال بمورد الماء قبل الآخرين، وشرب الماء صفوا، وتركه مكدرا للضعفاء والمسحوقين الذين تعودوا الخضوع للملوك، وسفح ماء وجوههم عند أعتابهم، يقول: ⁷

إِذَا مَا الْمَأْكُ سَامَ النَّاسَ خَسْفًا ⁸	أَبِينَا أَنْ نُقِرَّ الدُّلَّ فِينَا ⁸
مَلَأْنَا الْبِرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَّا ⁹	وَنَحْنُ الْبَحْرُ نَمْلَأُوهُ سَفِينَا
إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا وَوَلِيدًا ⁹	تَخْرُلُهُ الْجَبَايِرُ سَاجِدِينَا ⁹

¹ المصدر السابق: ص 82.
² من معد: المنسوبون إلى معد بن عدنان- القيب: أراد بها البيوت ذوات العمد.
³ المهلكون: القاتلون- ابتلينا: جربنا من قبل أعدائنا.
⁴ سخطنا: كرهنا.
⁵ العاصمون: الحامون- العازمون: الأشداء.
⁶ صفوا: صافيا، خاليا من الكدر.
⁷ المصدر السابق: ص 82.
⁸ سام الناس: بدأهم وأرادهم- خسفا: ظلما ومهانة.
⁹ وليد: صبي- تخر: تهوي على الأذقان.

يضعنا عمرو بن كلثوم أمام جملة من الأضداد المتصارعة: (الملك، الناس)،
 و(تغلب، الناس) و (العزة، الذلّة)، ثم (تغلب، الملك)، ليخلص إلى أن عزة تغلب وإيائها
 الضيم يكمنان في كثرة عددها وفي اعتناقها عقيدة القوة والحرب، مما جعلها تسمو على
 الناس، وترجح كفتها على الملوك، فتذل كبريائهم ليس أمام كبرائها فقط، بل حتى أمام
 صبيانها.

وقد بلغ عمرو بن كلثوم الغاية في الفخر بقبيلته وتمجيدها، وتحقير خصومها،
 وتحدي الملك عمرو بن هند والزراية به، فانبرى له شاعر قبيلة بكر بن وائل الحارث بن
 حلزة يشكري المتوفى سنة 580م، يرد مقالته في هدوء وروية ودهاء، إذ كان عليه
 أن يقلب الموقف رأساً على عقب لصالح البكريين، ويوغر صدر الملك على التغليبيين بعد
 أن لمس ميله إلى الحكم لهم في شكواهم، ويحملهم وحدهم تبعة الحرب. وإذا أخذنا بزعم
 الأصمعي " أن الحارث قال قصيدته وهو يومئذ قد أتت عليه من السنين خمس وثلاثون
 ومائة سنة¹ "، فإنه يسهل علينا الحكم أن مقدمته الغزلية كانت تقليدية ومصطنعة، جرى
 فيها من سبقه من شعراء الجاهلية، حيث قال:²

أَذْنَنْتُهَا بَيْنِيهَا أَسْمَاءُ رَبِّ ثَاوِيٍّ يَمَلُّ مِنْهُ النَّوَاءُ³
 بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَةِ شَمَاءَ ءَ فَأَذْنَى دِيَارَهَا الْخَلْصَاءُ⁴
 لَا أَرَى مَنْ عَهَدْتُ فِيهَا فَأَبْكِي الـ يَوْمَ دَلَّهَا وَمَا يُحِيرُ الْبُكَاءُ⁵

فهو يذكر امرأة اسمها "أسماء" كان يلتقها في أماكن معلومة من ديارها الأقرب إلى
 دياره، حتى جاء يوم فأعلمته بعزمها على فراقه. فاليوم، حين يقف بتلك الأماكن يقف
 ذاهلاً، غزير الدمع، يائساً من اللقاء. وفيما هو يسترجع ذكرياته الخوالي يفيق من شروده
 ذاك على أمر عظيم انقبض له صدره، وأورثه الهم، ألا وهو معاودة إخوانهم التغليبيين

¹ شرح القصائد العشر: ص 291.

² الزورني: شرح المعلقات السبع، تقديم ظافر كوجان، دار البيضة العربية، بيروت (لبنان)، ط. 1969 ص 305-306.

³ الإيدان: الإعلام- البين- الفراق- التلوي: المقيم، والنواء الإقامة.

⁴ العهد: اللقاء- برقة شماء والخلصاء: موضعان.

⁵ عهديت: لقيت- دلها: ذاهل العقل، ودله بمعنى تحير ودهش- يحير: يرجع ويرد.

الاستعداد للعدوان عليهم بعد حرب ضروس بينهم دامت أربعين سنة، يقول: ¹

وَأَنَا مِنَ الْحَوَادِثِ وَالْأَنْبَا
إِنَّ إِخْوَانَنَا الْأَرَاقِمَ يَعْلَمُونَ
يَخْطِطُونَ الْبَرِيءَ مِمَّا يَذِي الذَّنْبُ
أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا
أَيَّهَا النَّاطِقُ الْمُرْقَشُ عَنَا
عِندَ عَمْرٍو وَهَلْ لِذَاكَ بَقَاءٌ؟⁶
عِ خَطْبٌ نُعْتَى بِهِ وَنُسَاءُ²
نَ عَلَيْنَا فِي قَبْلِهِمْ إِحْقَاءُ³
بِ وَلَا يَنْقَعُ الْخَلْيُ الْخَلَاءُ⁴
أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ⁵

إن إخوانهم التغلبيين- بتعاليم المعهود على الناس- يبالغون في التعدي عليهم إلى حد أنهم فقدوا التمييز بين البريء والمذنب، بل لا أمل للبريء في الدفاع عن نفسه، فقد فصلوا في عزمهم على الحرب ليلا، ووصلوه بالتجمع والتأهب نهارا، بل زادوا الطين بلة حين سبقوا بالشكوى إلى الملك عمرو بن هند ليخوفوهم به، وليؤغروا صدره عليهم، ولكن هيهات أن يفلحوا وهو الملك العادل، بل أفضل من يمشي على الأرض! يقول: ⁷

مَلِكٌ مَقْسِطٌ وَأَفْضَلُ مَنْ يَمُوتُ
أَيُّهَا خُطْبَةٌ أَرَدْتُمْ قَادُوا
إِنَّ نَبَشْتُمْ مَا بَيْنَ مِلْحَةٍ فَالْصَّا
أَوْ نَقَشْتُمْ فَالْمُرْقَشُ يَجْتَمِعُ النَّاسُ
أَوْ سَكَنْتُمْ عَنَا فَكَلَّا كَمَنْ أَغَى
أَوْ مَنَعْتُمْ مَا نُسَأَلُونَ فَمَنْ حُ
شِي وَمِنْ دُونِ مَا لَدَيْهِ التَّنَاءُ⁸
هَذَا إِلَيْنَا، تُشْفَى بِهَا الْأَمْلَاءُ⁹
قَبِ، فِيهِ الْأَمْوَاتُ وَالْأَحْيَاءُ¹⁰
سُ وَفِيهِ الْإِسْقَامُ وَالْإِبْرَاءُ¹¹
مَضَّ عَيْنًا فِي جَفْنِهَا الْأَقْدَاءُ¹²
دُّ نُنْمُوهُ لِهَ عَلَيْنَا الْعَلَاءُ؟¹³

¹ المصدر السابق: ص 309-311.

² الخطب: الأمر، صغيرا كان أو كبيرا، وهو هنا الأمر العظيم- نعتى به: تشغل به عن غيره.

³ الأرقام: بطون من تغلب، سماها بها لأن امرأة شيهت عيون أبائهم بعيون الأرقام- الغلو: مجاوزة الحد- الإحفاء: الإلحاح.

⁴ الخلي: أي البريء من الذنب- الخلاء: البراءة.

⁵ الضوضاء: الجلبة والصياح، وهي اختلاط الأصوات- إجماع الأمر: عقد القلب وتوطين النفس عليه.

⁶ الناطق: يريد به عمرو بن كلثوم حين إنشاده قصيدته- المرقش: المزين كلامه ليجعل الباطل حقا والحق باطلا- وهل لذاك بقاء: أي ليس لقولك بقاء وثبات لأنه باطل، والباطل زاهق.

⁷ المصدر السابق: ص 314-317.

⁸ مقسط: عادل، من أقسط، أما القاسط فمعناه الجائر الظالم، من قسط؛ فالهمزة للإزالة والسلب.

⁹ الخطبة: الأمر والطريقة- أدوها: أي فوضوها- الأملاء: الجماعات من الأشراف، الواحد ملأ، لأنهم يملأون القلوب والعيون جلاله وجماله.

¹⁰ ملحاة والصاقب: موضعان- نبشتم: بحتتم.

¹¹ النقش: الاستقصاء-

¹² الأقداء: جمع القذي، والقذي جمع قذاة.

¹³ أي إن منعتم ما سألناكم من المهادنة والموادعة- له علينا العلاء: أي له علينا العز والعلو والفضل.

هَلْ عَلِمْتُمْ أَيَّامَ يُنْتَهَبُ النَّاسُ سُوَاَرًا لِكُلِّ حَيٍّ عُوَاءٍ؟¹

لَا يُقِيمُ الْعَزِيزُ بِالْبَلَدِ السَّهْمَ لَوْلَا يَنْفَعُ الدَّلِيلَ النَّجَاءُ²

إن الحارث بن حلزة -بدهائه- يريد أن يكسب الملك إلى صقته، لذا لا يستتفك عن مدحه، وجعله فوق الناس، ما دام غريمه عمرو بن كلثوم قد وضع قومه فوق الناس وفوق الملك. فإذا اطمأن شاعرنا إلى نيل مراده، التفت إلى التغلبيين ليفخر عليهم، وليبين عدم تكرار قومه لجبروتهم؛ فسيان عندهم الحرب والسلم معهم، لذا فبحثهم في ماضي الحروب بينهم ليس في صالحهم، فالفضل كله لبكر في الأموات الذين لم يُثار بهم أو في الأحياء الذين تُثر بهم، والبراءة في مسؤولية الحرب لهم، والذنب على عدوهم. فإذا أعرض التغلبيون عن ذلك كله أعرض البكريون أيضا إيثارا للسلم، وليس ضعفا أو صغارا؛ فما زالوا يملكون القوة اللازمة والحقد الكافي لمواجهةهم. ولكن الحرب نار مشتعلة يمتد لهيبها إلى كل شيء، فلا ينفع العزيز تحصننه في الجبال، ولا ينفع الدليل تعويله على الفرار.

وقد نجح شاعر بكر في محاماته عن قضية قومه، لأنه كان يثير نقاط الالتقاء والتقارب مع الملك، ويتجاهل في مكر ودهاء -نقاط الاختلاف والتناقض بين القبيلتين المتعاديتين، فلم يكد يُنهى قصيدته إلا وقد حاز رضا عمرو بن هند، فحكم له ضد تغلب نكاية فيها وفي شاعرها عمرو بن كلثوم الذي تعالى عليه في معلقته السالفة الذكر.

ثم تتوالى الأحداث بعد ذلك، ويقتل عمرو بن كلثوم ملك الحيرة عمرو بن هند في قصره، حين اتفق هو وأمه هند على إهانة أم عمرو ليلي بنت مهلهل أخي كليب أعز العرب وهي في ضيافتهما. ثم يخرج المنذر بن النعمان أخو الملك القتييل بجيشه للثأر له، فتهمهم تغلب، ويقتل مرة بن كلثوم أخو عمرو المنذر³. ومن هنا، نستخلص أن فخر عمرو بن كلثوم بقومه تغلب إلى حدّ المغالاة، لم يكن من فراغ، وإنما كان مستندا إلى مجد مؤثّل قوامه عزة العربي وإباؤه الضيم، وجرأته حتى على الملوك، ومنعته في صحرائه الشاسعة القاسية.

¹ الغوار: المغاورة. العواء: صوت الذئب ونحوه، وهو ههنا مستعار للضجيج والصياح.

² النجاء: الإسراع في السير، الهرب.

³ - أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام: ص 153-155.

ومن الفخر الجمعي مع شاعر تغلب عمرو بن كلثوم وغريمه شاعر بكر الحارث بن حنظلة، ننتقل إلى الفخر الفرديّ مع عنتره بن شدّاد العبسيّ المتوفى سنة 615 م، الذي أرادت له القيم العربيّة الجاهلية أن يبقى فردا مختلفا أو متخفا عن الآخرين السادة العرب. ولقد عاش عنتره طوال حياته في صراع دائم في ظلّ ثنائية (البياض، السواد)، فهو وليد قهر البياض للسواد، قهر أبيه شدّاد الفارس العربيّ الأبيض لأمه زبيبة السبيّة الحبشيّة السّوداء، وقد أثر القدر أن ينشأ عنتره ويشبّ مقهورا ومصبوغا بلون أخواله من السّودان وفق قانون الوراثة، وأن يصنّف ضمن أغربة العرب¹، فلا يستطيع من لونه ولا من نسبه هذا فكاكا. ثم إنّ القدر ذاته وضعه في طريق الخلود، حين حببّ إلى نفسه الفضائل الإنسانيّة الخالدة أبد الدهر، فكان فارسا مغوارا، وشاعرا مجيدا، وجامعا لمكارم الأخلاق كالشجاعة والعفة والعزّة والحلم والكرم، حتّى قال فيه النبيّ محمد صليّ الله عليه وسلّم لما أنشد قوله²:

وَلَقَدْ آيَبْتُ عَلَى الطَّوَى وَأَظْلُمْتُ حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكُلِ

قال عليه الصلّاة والسّلام: " ما وُصِفَ لي أعرابيٍّ قطُّ فأحببتُ أن أراه إلا عنتره"³

وكان أعظم شيء حدث لعنتره في شبابه أن أحبّ ابنة عمّه عبلة، ومن شأن الحبّ أن يرهف نفس العاشق ويعذبها بالهجر والحرمان؛ وهكذا فقد زاد إحساسه بسواد لونه وبعبوديته حين منع من الزّواج منها. فتاق شاعرنا إلى حرّيته، ووطن نفسه على طلب المعالي بسيفه، وحين وجد قومه بني عبس في ضيق تحت وطأة المغيرين عليهم، تكاسل عن نصرتهم حتّى استجد به أبوه شدّاد وقال له: كُرٌّ وأنت حرٌّ، فكرّ وانتصر على الأعداء⁴؛ فظفر بالحرّية وبالنّسب الصّريح وبلقب "فارس بني عبس"، يردّ عنهم الغارة، ويقودهم في الإغارة على القبائل، حتّى صاروا لا غناء لهم بدونه، ممّا أشعره بأهمّيته في حياة قبيلته، وارتباط عزّها أو ذلّها، مجدها أو خمولها بقوة ساعده ومضاء سيفه قال⁵:

¹ أغربة العرب: سوادانهم، شتهوا بالأغربة في لونهم. والأغربة في الجاهلية: عنتره، وخفاف بن ندبة السلمي، وأبو عمير بن الحباب السلمي أيضا، وسليّك بن السلّكة. (ينظر: لسان العرب 1 ص 646).

² عنتره بن شدّاد: شرح ديوان عنتره بن شدّاد، عبد المنعم عبد الرّؤوف شلبي، دار الكتب العلميّة، بيروت (لبنان)، ط1، 1980، ص 119.

³ رجال المعقّات العشر: ص 213.

⁴ الشّعر والشّعراء: ص 153.

⁵ المصدر السابق: ص 154.

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سَفْمَهَا

قِيلُ الْفَوَارِسِ : وَيَكَّ عَنَّا أَفْذَمٌ¹

وقد اعتقد عنتره أن بياض فعاله سيغطي سواد لونه، ويشفع له عند عمه مالك، فينبئه مراده من عبلة، لكن عمه ظل يماطله ويعلله بالأمني، فإذا لم يجد مفراً من إلحاحه عليه تسلل تحت جناح الظلام فاراً بأهله إلى حيث لا يعلم أحد.

وتبدأ مأساة العاشق الطويلة والمليئة بالمعاناة وخوض الأهوال لتخليص الحبيبة - في كل مرة - من الأعداء، أو لجلب مهرها المحفوف بالمخاطر بغية الظفر بها وشفاء النفس بلقائها، ولكن : هيهات! كان عليه أن يترسم آثار عبلة كلما ظننت، وأن يقف على الأطلال يسألها كما دأب الشعراء قبله على تسأل الديار الدارسة وتذكر أهلها.

لقد اختار عنتره أن يتعايش مع التقاليد الاجتماعية العربية، ويفرض نفسه على مجتمعه من خلال القيم العربية ذاتها من دون التمرد عليها، ولذا فلا عجب أن يقر الشعراء قبله على تقاليدهم الشعرية في ابتداءات قصائدهم وفي موضوعاتها، ويحاول أن يتميز منهم من خلال تجربته الذاتية، يظهر ذلك جلياً منذ مطلع معلقته، يقول:²

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتْرَدَمٍ؟ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوْهْمٍ؟³
يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالْجِوَاءِ تَكَلَّمِي وَعَمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَأَسْلَمِي⁴
حَلَّتْ بِأَرْضِ الزَّائِرِينَ فَأَصْبَحَتْ عَسِرًا عَلَيَّ طِلَابِكِ ابْنَةَ مَخْرَمٍ⁵
عَلَّقْتُهَا عَرَضًا وَأَقْبَلْتُ قَوْمَهَا زَعْمًا لَعَمْرُ أَيْبِكَ لَيْسَ يَمْرَعَمٍ⁶
نُئْسِي وَنُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرٍ حَشِيَّةٍ وَأَبِيْتُ فَوْقَ سَرَاةٍ أَدْهَمَ مُلْجَمٍ⁷

لقد فرض رحيل عبلة المتكرر - بعيدا عن ديار بني عبس - على شاعرنا أن يتسقط أخبارها، ويلاحقها أينما نزلت، ويقف على أطلال الديار التي تركتها، فيحییها ويستفسرها عن أخبار أهلها الراحلين، حتى إذا نزلت بأرض أعدائه صعبت عليه أمر القرب منها، ولكن هل يتركها لهم وقد شغف قلبه بها من أول نظرة، وتمنى وصالها على

¹ويك : وبلك.

²المصدر السابق : ص 142-145.

³المتردم : الموضع الذي يستترع ويستصلح لما اعتراه من الوهن والوهي - التوهم : التفرس.

⁴الجواء : مكان بنجد.

⁵الزائرين : الأعداء، كآتهم يزأرون كما يزار الأسد.

⁶علقتها : أحببتها - عرضا : أي فجأة من غير قصد له - زعما : طمعا والمزعم المطمع.

⁷الحشيّة : الفراش المحشو، والجمع الحشايا - السراة : أعلى الظهر.

الرَّغْمَ مِمَّا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهَا مِنْ عَدَاوَةٍ وَقِتَالٍ ؟ هَكَذَا حَالُ الْفَرَسَانِ الْعَاشِقِينَ : هَجَرَ ، وَحَرَمَانَ ، وَسَهَرَ ، وَرَكُوبَ دَائِمٍ لِلْأَهْوَالِ عَلَى صَهْوَةِ جَوَادِ أَصِيلٍ قَوِيٍّ ، فِيمَا تَنْتَعَمُ الْحَبِيبَةُ لَيْلًا وَنَهَارًا بِالرَّاحَةِ وَهَدْوَى الْبَالِ عَلَى فَرَاشٍ وَثِيرٍ ، فَكَأَنَّهَا لَا تَبَالِي بِمَا يِعَانِيهِ مِنْ أَجْلِهَا زَهْدًا فِيهِ أَوْ تَجَاهِلًا لِفُرُوسِيَّتِهِ وَشِدَّةَ بَأْسِهِ ، يَقُولُ :¹

إِن تُعْدِفِي دُونِي الْفِنَاعَ فَإِنِّي	طَبُّ بِأَخَذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلْتَمِ ²
أَتْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْتَ فَإِنِّي	سَمَحٌ مُخَالِطِي إِذَا لَمْ أُظَلِّمْ ³
فَإِذَا ظَلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بَاسِلٌ	مُرٌّ مَدَاقِنُهُ كَطَعْمِ الْعَلَقِمِ ⁴
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا	رَكَدَ الْهُوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمَعْلَمِ ⁵
فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ	مَالِي وَعَرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكَلِّمْ ⁶
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى	وَكَمَا عَلِمْتَ شَمَائِلِي وَتَكَرُّمِي ⁷

إِنَّهُ لَا يَجُوزُ لِعَبْلَةٍ أَنْ تَسْتَنْتِرَ عَنْهُ وَهِيَ تَعْلَمُ شَجَاعَتَهُ وَبَأْسَهُ وَغَلْبَتَهُ لِلْفَرَسَانِ . فَلَعَلَّهَا تَشْهَدُ لَهُ بِطَيْبِ أَخْلَاقِهِ وَعَدَمِ تَهَوُّرِهِ فِي تَقْدِيرِ الْأُمُورِ ، وَحَسَنِ تَصَرُّفِهِ فِي الْمَوَاقِفِ الْمُتَضَادَّةِ وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَهَا بِمَا أُوتِيَ مِنْ رِجَاحَةِ عَقْلِ وَجَلْدٍ ، وَالْعَيْشِ فِي وَفَاقٍ مَعَ الْآخَرِينَ مَا لَمْ يَبْخَسُوهُ حَقَّهُ ، وَلَمْ يَبْدَأُوهُ بِظُلْمٍ ، أَمَّا إِذَا ظَلَمَ وَانْتَهَكَتْ حَرَمَتَهُ كَانَ رَدَّهُ أَشَدَّ إِيْلَامًا وَمَرَارَةً عَلَى الْمُعْتَدِي . وَمِثْلَمَا كَانَ شَاعِرْنَا سَمَحًا بِنَفْسِهِ فِي مَجَالِدَةِ الْأَبْطَالِ ، فَهُوَ سَمَحٌ بِبِذْلِ مَالِهِ فِي الْإِنْفَاقِ عَلَى شَرِبِ الْخَمْرِ مَتَى سَكَرَ الْحَرُّ ، وَلَكِنَّهُ فِي شَرْبِهِ لَا يَفْقَدُ اتِّزَانَهُ ؛ فَهُوَ جَوَادٌ بِمَالِهِ غَيْرٌ مَفْرُطٌ فِي عَرْضِهِ ، فَلَا يَنْتَهِكُ وَلَا يَنْتَبِذُ ، فَإِذَا صَحَا مِنْ سَكَرِهِ ، دَاوَمَ عَلَى سَخَائِهِ بِمَالِهِ وَإِسْبَاحِ مَكَارِمِهِ عَلَى بَنِي قَوْمِهِ .

¹ - المصدر السابق: ص 148 - 149 .

² تغد في: ترخي وترسلي - الفناع: ما تغطي به المرأة وجهها - طب: حاذق خبير - المستلم: الذي ليس اللامة وهي الترع .

³ سمح: سهل لين .

⁴ باسل: كرية - العلقم: الحنظل .

⁵ المدامة: الخمر - ركد: سكن - الهواجر: جمع الهاجرة وهي أشد الأوقات حرًا - المشوف المعلم: الدينار المجلو الذي له علامة .

⁶ العرض: موضع المدح والثناء من الرجل، وما يجب عليه الدفاع عنه - وافر: تام - لم يكلم: لم ينله أحد بدم، لم يجرح .

⁷ صحوت: أفقت - الندى: السخاء - الشمائيل: الأخلاق، ومفردها شمال .

ومع كثرة المكرمات وعدد من قتل عنتره من الأبطال والفرسان، لم يسلم من

أن يقابل بزمره من الجاحدين والتائرين المتوعدين، يقول:¹

نُبِّتُ عَمْرًا غَيْرَ شَاكِرٍ نِعْمَتِي وَالْكَفْرُ مَحْبَبَةٌ لِنَفْسِ الْمُنْعَمِ²
وَلَقَدْ خَشِيتُ بَانَ أَمُوتَ وَلَمْ تَدُرْ لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمْضِمِ³
الشَّاتِمِي عِرْضِي وَلَمْ أَشْتُمُهُمَا وَاللَّـاذِرِينَ إِذَا لَقِيَتْهُمَا دَمِي⁴
إِنْ يَفْعَلَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا جَزَرَ السَّبَّاعِ وَكُلَّ نَسْرِ قَشْعَمِ⁵

هكذا كان حال شاعرنا مع حبيبه عبله ومع قومه من بني عيس ومع أعدائه الكثيرين: سمو في الأخلاق، وبسالة في الحروب رَغِمَتْ لها أنوف الإخوة والأعداء، وشوق مبرح إلى معشوقه بالغ أهلها في إبعادها عنه طعنا في نسبه واحتقارا له لسواد لونه، لكئه قابل ذلك كله بأياد بيضاء، كان يقبضها حين يجد الجحود، ويبسطها - بدون حدود - حين يلقي الشكر والعرفان. كما أعد سيفا بئارا لأعدائه المتوعدين له الشاتمين عرضه في غيابه وحضوره، إلا أنه كان يترقع عن الرد على شتائمهم بالمثل، بل كان يرد عليهم بلغة السيِّف لغة عصره؛ مثلما فعل بضمضم المرِّي في حرب داحس والغبراء⁶، وترك ابنه حُصينا وهرما بيكيانه، ولا يملكان غير الوعيد وبذيء الكلام للأخذ بئاره.

لقد استطاع عنتره بن شداد بمثاليته في حبه، ومثاليته في حربه، أن يفرض نفسه على قيم القبيلة العربية الجاهلية من داخلها، ثم يترقع عنها كفره متميز بأخلاقه المثالية، وبذلك انتزع الاعتراف ببطولته من أهل عصره، وحاز حب وتقدير الأجيال العربية القريبة واللاحقة ذاكرة بياض فعاله، ناسية سواد لونه، بما جد في حياتها من تعاليم ثري بهذه العنصرية المقيتة.

¹ المصدر السابق: ص 152 - 154.

² محببة: مفسدة.

³ الدائرة: اسم للحادثة تدور من خير إلى شر ومن شر إلى خير، ثم استعملت في المكروهة دون المحبوبة - ابنا ضمضم: هما حصين وهرم ابنا ضمضم المرِّي، وكان عنتره قد قتل أباهما في حرب داحس والغبراء يوم المريقب، فبلغه أنهما يشتمانه ويتوعده.

⁴ التائرين: أي الموجبان على نفسيهما سفك دمي.

⁵ جزر السباع: مقتولا تاكله السباع - القشعم: المسن من التسور.

⁶ حرب داحس والغبراء: داحس فحل لقيس بن زهير سيّد عيس والغبراء حجرة لحمل بن بدر سيّد فزارة من ذبيان، تسابقا، فأكمن حمل بن بدر فتيانا ليردوا داحسا إن كان سابقا، فكان له ما أراد، وبعد أن علم لقيس بن زهير بما جرى لفرسه، نشبت الحرب بين عيس وذبيان، واستمرت أربعين سنة، حتى تم الصلح على يدي الحارث بن عوف وهرم بن سنان بما بدلاه من مالهما، (ينظر: في تاريخ العرب قبل الإسلام: ص 315 - 316).

ومن الحاضرين حرب داحس والغبراء الشاعر زهير بن أبي سلمى المزني المتوفى سنة 631 هـ ، وهو إن لم يكن من أبطالها، فقد كان شاهد عيان على ويلاتها، ومنذًا بخسائر القبيلتين من الدماء على مرّ الأيام والسنين.

كان زهير يكره الموت لأنه أخذ أباه، فوسمه باليتم صغيراً، واختطف أولاده من أمّ أوفى المرأة الوحيدة التي أحبّها، وقد اضطرّته إلى طلاقها بعد أن تزوّج عليها كبشة التي ولدت له كعباً وبجير الشعارين¹. ثمّ إنّ شاعرنا مقت الحرب لأنها تزرع الموت أينما اشتعلت نيرانها، وتغديّه، ولا تضع أوزارها حتّى يكون قد حصد الآلاف من غير تمييز بين كبير أو صغير، وبين ذكر أو أنثى.

ولعلّ كراهية زهير الموت ومقتة الحرب ينسجم وطبيعة أسرته التي تملك تقاليد في الشعر تبعد أفرادها على أن يحرصوا على إتقان فنون الحرب لتحقيق بقائهم في مجتمعهم المضطرب، إذ كان أبوه ربيعة بن رباح شاعراً، وكان كافله خاله بشامة بن الغدير شاعراً، كما كان راوية للشاعر أوس بن حجر زوج أمّه، وكانت أختاه سلمى والخنساء (المزنية) شاعرتين، وابناه كعب وبجير شاعرين، وحفيده المضرب بن كعب شاعراً². إذن، كان شاعرنا من بيت توارث أفراده الشعاعرية، فاتخذ الشعر حرفة، تفرّغ لها، وأعطاه من طبعه وحسن منطقة وأناته ما كان ينشد من إتقان؛ فكان يطيل النظر في شعره، ينقحه، ويدقق في صورته ومعانيه حولاً كاملاً قبل أن يعرضه على الناس، حتّى سميت قصائده بالحوليات³. فكان شعره صورة مجسّدة لمدرسته الشعاعرية ولأخلاقه الفاضلة ولخبرته الطويلة في الحياة، ممّا جعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدّمه على شعراء عصره لأنه⁴ "كان لا يعاقل بين الكلام، ولا يتبع وحشيه، ولا يمدح الرّجل إلا بما فيه"⁵.

إذن، لم يأنف زهير من التّكسب بشعره، ولكنّه كان يقصر مدحه على سادات بني ذبيان: فمن بني مرّة: سنان بن أبي حارثة، وولده هرم، والحارث بن عوف، ومن بني بدر:

¹ أدباء العرب في الجاهلية و صدر الإسلام: ص 129 - 130.

² المرجع نفسه: ص 129.

³ للشعر والشعراء: ص 77.

⁴ طبقات فحول الشعراء 1: ص 63.

⁵ المعاطلة: أن يعقد الكلام، ويوالي بعضه فوق بعض حتّى يتداخل ويغضض - وحشي الكلام: حوشيه وغريبه.

حصن بن حذيفة¹؛ يمدحهم بخصالهم الحميدة وحسن فعالهم، متجنباً الكذب والمغالاة. وقد أنشأ شاعرنا معلقته للتثويه بنجاح سيدي بني مرة هرم بن سنان والحارث بن عوف في وقف حرب داحس والغبراء بعقد الصلح بين عيس وذيبيان، وتحمل ديوات قتلى القبيلتين من مالهما على الرغم من أنهما لم يفتنرا في هذه الحرب المنكرة أيّ ذنب أو جريرة.

وقد ارتأى زهير أن يبدأ مسيرة السلام - منذ مطلع معلقته - بمحاولة التصالح مع

طليقته وحبيبته الوحيدة أم أوفى بعد عشرين سنة من فراقهما، قال:²

أَمِنْ أُمَّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمَنْتَلَمِ³
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حَجَّةً فَلَأَيَّا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمِ⁴
تَبَصَّرَ خَلِيلِي! هَلْ تَرَى مِنْ طَعَائِنِ تَحْمَلْنَ بِالْعُلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْتُمِ⁵

يقف زهير سائلاً رسوم ديار حبيبته الوحيدة أم أوفى التي ما نسيها قط بعد عشرين سنة من الفراق، فلا يتعرف عليها إلا بعد جهد ومشقة، بل لقد برح به الشوق حتى طمع في رؤية هواجسها لحظة ارتحالها، على بعد الزمن الذي مضى من تصارمهما. ثم يخرج شاعرنا من حالة الوله والخيبة في سلامه الشخصي الذي عقى عليه الزمن إلى حالة اليقظة والتفاؤل على صيت السلام الجمعي الذي حققه السيدان الكريمان هرم بن سنان والحارث ابن عوف، وهو السلام ذاته الذي ينشده، ويحب أن يحيا قومه في ظلله، يقول:⁶

فَأَفْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ رِجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجَرْتُمِ⁷
يَمِينًا لِنَعَمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْنِمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمَبْرَمِ⁸

¹ أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام: ص 134.

² زهير بن أبي سلمى: ديوان زهير بن أبي سلمى، كرم البستاني، دار بيروت، بيروت (لبنان)، ط، 1979، ص 74-76.

³ الدمنة: ما أسود من آثار الدار بالبعير والرّماد وغيرهما، والجمع الدمن - حومانة الدراج والمنتم، موضعان وقوله: أمن أم أوفى، أمن منازل الحبيبة المكتاة بأم أوفى دمنة لا تجيب.

⁴ الحجّة: السنة، وجمع الحجج - اللاي: الجهد والمشقة.

⁵ الطعائن: جمع طعينة، لأنها تظعن مع زوجها من الطعن، وهو الإرتحال - بالعلياء: بالأرض العلياء، أي المرتفعة - جرتم: ماء بعينه - والتبصر: النظر - والتحمل: الترحل.

⁶ المصدر السابق: ص 78 - 80.

⁷ البيت: الكعبة المشرفة - جرم: قبيلة قديمة تزوج فيهم إسماعيل عليه السلام، فغلبوا على الكعبة والحرم بعد وفاته عليه السلام وضعف أولاده، ثم استولى عليها بعد جرم خزاعة إلى أن عادت إلى قريش، وقريش اسم لولد التضرين كنانة.

⁸ السحيل: المفتول على قوة واحدة - المبرم: المفتول على قوتين أو أكثر، ثم يستعار السحيل للضعيف والمبرم للقوي.

تَدَارَكُنَا عَبَسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا تَقَانُوا وَدَفُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمٍ¹
 وَقَدْ قُلْنَا : إِنَّ نُذْرَكَ السَّلْمِ وَأَسِيعًا بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ نَسْلَمٍ²
 فَأَصْبَحَ يَجْرِي فِيهِمْ مِنْ تِلَادِكُمْ مَغَانِمُ شَتَّى مِنْ إِفَالٍ مُزَمِّمٍ³

إنه يريد أن ينفى صفة المداهنة عن مدحه لصانعي السلام، فيقسم بالكعبة المشرفة التي ورثها العرب عن أجدادهم من جرهم وقريش، فقدسوها وحجوا إليها، بأنه صادق عاطفة ولهجة في تقدير هذين السيدين العظيمين الخادمين لقومهما في السراء والضراء، واللذين حقنا ما بقي من دماء عبس وذبيان بعد أن أشرفنا على الفناء، فبذلا من أعز ماليهما ديات لأهل المقتولين من القبيلتين حبا في إفشاء السلام. لذا، يخشى زهير أن تضيع ذبيان

هذه الفرصة السانحة بتردها وتناقض موقفها إزاء عقد الصلح، فلا تحسم أمرها، يقول:⁴
 أَلَا أَبْلَغُ الْأَخْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً وَذُبْيَانَ: هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلَّ مَقْسَمٍ⁵
 فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهْمَا يَكْتُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ⁶
 يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعَجَّلَ فَيُنْقَمَ⁷

إنه - بعقيدته الغامضة في إله الوجود - يذكر ذبيان وحلفاءها بما عقدوا من أيمن لتحقيق الصلح، ويحذرهم من خبث الطوية، لأن الله تعالى يعلم السر وأخفى؛ فقد أعد للغادر الناقض العهد عقابا مرقوما في كتاب، يعجله له في الدنيا أو يؤخره له ليوم الحساب. ثم يواصل ابن أبي سلمى وعظه لقومه بنم الحرب والتذكير بويلاتها، يقول:⁸

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَدَقَّقْتُمْ وَمَا هُوَ عَنَّا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ⁹
 مَنَى تَبَعْتُوهَا تَبَعْتُوهَا ذَمِيمَةً وَتَضَرَّ إِذَا ضَرَبْتُمُوهَا فَتَضَرَّمْ¹⁰

1- التدارك: التلافي - التفتاني: التشارك في الفناء - منشم: قيل فيه إنه اسم امرأة عطارة إشتري قوم منها جفنة من العطر، وتعاقدوا وتحالفوا، وجعلوا آية الحلف غمسهم الأيدي في ذلك العطر، فقاتلوا العدو الذي تحالفوا على قتاله، فقتلوا عن آخرهم، فنطير العرب بخطر منشم وسير المثل به. وقيل بل كان عطارا يشتري منه ما يحتط به الموتى فسار المثل بخطر.
 2- المنتم: الصلح، يذكر ويؤت.
 3- التلاد والتلديد: المال القديم الموروث - المغانم: جمع المغنم وهو الغنيمة - شتى: أي متفرقة - الإفال: جمع أفيل وهو الصغير السن من الإبل - المزمم: المعلم بزئمة.
 4- المصدر السابق: ص 81.
 5- الأحلاف والحلفاء: الجيران، جمع حليف على أحلاف - أقسم: أي حلف - وتقاسم القوم أي تحالفوا، والقسم الحلف والجمع الأقسام وكذلك القسيمة - هل أقسمتم: أي قد أقسمتم.
 6- فلا تكتمنن الله ما في نفوسكم: أي لا تخفوا من الله ما تضمرون من الغدر ونقض العهد - يكتم الله: أي يكتم من الله.
 7- أي يؤخر عقابه ويرقم في كتاب، فيتخر ليوم الحساب، أو يعجل العقاب في الدنيا قبل المصير إلى الآخرة فينتقم من صاحبه.
 8- المصدر السابق: ص 81 - 82.
 9- الذوق: التجربة - الحديث المرجم: الذي يرمج فيه بالظنون أي يحكم فيه بظنونها.
 10- الضرى: شدة الحرب واستعار نارها، وكذلك الضراوة، والفعل ضري يضري، والإضرأ والتضرية الحمل على الضراوة، ضرمت النار تضرم ضرما واضطرمت وتضرمت: إلتهبت، وأضرمتها وضرمتها: ألهبتها.

فَتَعَزَّكُمْ عَرَكَ الرَّحَى بِثِقَالِهَا وَتَلْفَحُ كِشَاقًا ثُمَّ تُنْتِجُ فُتْنًا¹
 وهو لا يألو جهدا في تقبيح الحرب والتشنيع عليها، ووضعها بشؤم الطالع على كل
 من يصطلي نارها ويؤججها، فهي تحصد الأرواح - بكل قسوة وفضاعة - حصد الرحي
 لخبثها، ولا تلتفح إلا موتا زواما وشرًا مستطيرا مضاعفا.

ثم ينفذ صبر شاعرنا، فيعلن تدمره من طول البقاء، وضجره مما عايش خلال سنيه
 الطويلة، فينفث سأمه ذاك حكما بليغة في الزمن وفي الحياة والموت، وفي القيم السائدة
 وأخلاق الناس، منكئا على فن التضاد الذي يكفل له تصوير ذلك الصراع الدائم والكائن
 على ساحة الخليقة منذ الأزل، يقول:²

سَمِئْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ، وَمَنْ يَعِشُ
 وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ
 رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشْوَاءَ مَنْ نُصِبَ
 وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ
 وَمَنْ يَعِصِ أَطْرَافَ الزَّجَاجِ فَإِنَّهُ
 وَمَنْ لَمْ يَذُدَّ عَنِ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ
 وَمَنْ يَعْتَرِبُ يَحْسِبُ عَدُوًّا صَدِيقَهُ
 وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ أَمْرٍ مِنْ خَلِيقَةٍ
 وَكَائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ
 تَمَانِينَ حَوْلًا - لَا أَبَا لَكَ - يَسَامُ³
 وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمٍ
 لُئِمْنُهُ وَمَنْ تُخَطِي يُعَمَّرُ فِيهِ رَمٌ⁴
 يَكُنْ حَمْدُهُ دَمًّا عَلَيْهِ وَيَدْمٌ
 يُطْبِعُ الْعَوَالِي رُكْبَتَ كُلِّ لَهْمٍ⁵
 يُهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ⁶
 وَمَنْ لَمْ يُكْرَمْ نَفْسَهُ لَمْ يُكْرَمْ
 وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ
 زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ

¹ نفال الرحي: خرقة أو جلدة تبسط تحتها ليقع عليها الطحين - اللقح واللقاح: حمل الولد - الكشاف: أن تلتفح التعجة في السنة مرتين - أنتجت الناقة
 إنتاجا: إذا ولدت عندي - الإتمام: أن تلد الأنثى توأمين، وامرأة متأم: إذا كان ذلك دأبها، والتوأم يجمع على التوام.

² المصدر السابق: ص 86 - 89.

³ سميت الشيء سامة: ملتهه - التكاليف: المشاق والشدائد - لا أبا لك: كلمة جافية لا يراد بها الجفاء، وإنما يراد بها التوبيه والإعلام.

⁴ الخبط: الصرَب بالبد، والفعل خبط بخبط - العشواء تأنثى وجمعها عشو، والعشواء: الناقة التي لا تبصر ليلا، ويقال في المثل: هو خابط
 خبط عشواء أي قد ركب رأسه في الضلالة كالناقة التي لا تبصر ليلا، فتخطب ببديها على عمى، فربما تردت في مهواة وربما وطنت سبعا أو حبة
 أو غير ذلك - التعمير: تطويل العمر.

⁵ الزجاج: جمع زج الرمح وهو الحديد المركب في أسفله، وإذا قيل: زج الرمح عتي به ذلك الحديد والستان - اللهم: استان الطويل - وعالية الرمح
 سافلته والجمع العوالي، إذا التقت فتتان من العرب سددت كل واحدة منهما زجاج الرمح نحو صاحبها، وسعى الساعون في الصلح، فإن أبنا إلا
 التماذي في القتال، قلبت كل واحدة منهما الرمح، وإفتلتنا بالأمسة.

⁶ اللؤد: الكف والردع - استنار الحوض للحريم.

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ قَلَمٌ يَبْقَى إِلَّا صُورَةَ اللَّحْمِ وَالذَّمَّ¹
وَأَنَّ سِقَاةَ الشَّيْخِ لَا حِلْمَ بَعْدَهُ وَإِنَّ الْفَتَى بَعْدَ السَّقَاةِ يَحِلْمُ
سَأَلْنَا فَأَعْطَيْتُمْ وَعَدْنَا فَعَدْتُمْ وَمَنْ أَكْثَرَ التَّسْأَلِ يَوْمًا سَيُحْرَمُ²

إنَّ شاعرنا لا يعظ قومه من ذبيان بضرورة اعتناق شريعة السِّلْم ونبذ الحرب، إلا بعد أن وعظته الحوادث الجسام التي عاشها خلال سنه الثمانين، وبخاصة الأربعين الأخيرة منها، والتي كان فيها شاهد عيان لحرب ضروس لا تُبقي ولا تذر. إنه لا يتوق أن يعيش أكثر ممَّا عاش، فقد ملَّ حياة يترصدها الموت في كلِّ حين، فيما علم الإنسان بما يجري حوله يتأرجح بين الأمس واليوم فقط، فهو قاصر عن التنبؤ بما يصير إليه غدا، ولذا فلا يمكنه تلافى الموت الذي لا يميِّز بين الصَّغِير والكبير؛ فقد يُهلك الإنسان في ربيع العمر أو يتركه حتى يدركه الهرم، وأيا كان حاله، فهو يختطف الأعرَاء، ويخلف الحسرة في قلوب ذويهم. وما دام الموت كأسا لا بدَّ من شربه، فليعش الإنسان في سلام، وليملأ حياته وحياة الآخرين بالخير، ولكن ليَجعل خيره في من يستحقه، وليتَّق شرَّ الإحسان إلى اللئام، وليُذعن إلى داعي الصِّلح بإرادته حتى لا ترغمه مرارة الحرب على الذل والهوان. وهذه الدَّعوة إلى السِّلَام لا تتناقض مع الاستعداد الدائم للحرب دفاعا عن الأرض والعرض، وردًا للعدوان؛ فتلك شريعة العرب في صحرائهم، فمن لم يستطع ردَّ الظلم عن نفسه بكلِّ ما أوتي من قوَّة، ظلَّمه أدنى النَّاس وأقصاهم.

والمرء في علاقته بالآخرين - في وطنه أو في غربته - بين مدَّ وجزر، لذا يجب عليه أن يتسلَّح - عند الاختلاط بهم - بالحذر والكتمان والحكمة؛ فمن شأن الاغتراب أن يفضي إلى النِّقمة بالعدو إن لبس لبوس الصِّديق، ومن شأن عدم التُّرفع عن الدُّنيا أن يجرِّئ النَّاس عليه، فتضيع هيئته في نفوسهم. والنَّاس - منذ خلقوا - مجبولون على اهتمام بعضهم ببعض بالتَّجسس والنَّقد، فلا ينفع معهم التَّطبُّع والتَّصنُّع؛ فهما بالغ الشَّخص في إخفاء بعض نقائصه، فإنهم - لا بدَّ - كاشفوها وفاضحوها. فقد تجد من يخنفي وراء

¹ هذا كقول العرب: المرء بأصغريه لسانه وجنانه.
² التسأل: السؤال.

الصّمت، فيبالغ فيه حتى إنّك لتتحكم له - لأوّل وهلة - بالوقار والحكمة، فإذا تكلم واسترسل في الحديث، انكشف مقداره من العقل، وحظّه من حسن الأدب والمنطق، ذلك أنّ المرء مخبوء تحت لسانه، والرّجولة صدق نيّة وقول فاصل وفعل حازم، وإلا فهي جسد فارغ فان ذكورة مجردة عارية من الخلال الحميدة. والحياة مدرسة كبرى نتعلّم فيها من خلال معادلة الصّواب والخطأ، فليس صحيحا دائما أنّ من شبّ على شيء شاب عليه، فللشّاب فرصة ليست للشيخ، إذ يمكنه أن يستقبل من أمره ما استدير، فيستفيد من أخطائه السّالفة، فيثوب إلى رشده، ويترك غيّه ليسيّر على جادة الصّواب. أمّا الشّيوخ الفاسد فقد وصل إلى نهاية طريق الحياة، ورجوعه عمّا ألفه من سفاسف صعب بل مستحيل، ولا شفاء له ممّا هو فيه من غواية إلا بالموت والقبر.

هكذا استطاع زهير بعقله الرّاجح، وأخلاقه الفاضلة، وتحبيذه الوفاق على الصّدّام، والسّلم على الحرب، أن يجد التّوازن الغائب بين تناقضات الحياة في عصره، فكان استخدامه للطّباق مناسبا فنيا، وافيا بالحاجة إلى إبراز المتضادات، ثمّ الحكم بتتحي أحد طرفي التّضاد وسيادة الطّرف الآخر، بما يتوافق والقيم السّائدة ونواميس الوجود. وقد فهم شاعرنا المعادلة الاجتماعية الصّحيحة معادلة الأخذ والعطاء، فكلّ ميسّر لما خلّق له، يأخذ من الدّنيا بقدر كدّه فيها، ويُعطي بقدر ما ينبغي له أمّا من ألحف في الطّلب، وأذله الطّمع، عوقب بالحرمان في النهاية.

ومن طبقة زهير الشّعريّة، ومن ذبيان أصلا ومولدا النّابغة زياد بن معاوية بن ضباب المتوفى سنة 604 م، الذي اشتغل بالمدح مثله، ولكنه قصر مدحه على الملوك فقط، وترقّع عن تمجيد من هم دونهم. وكان النّابغة يقصد بلاط المناذرة بالحيرة وبلاط الغساسنة بالشّام، على الرّغم من تنافر الملكين وتقاتلتهما، واستطاع بحنكته السّياسيّة أن يحظى بمكانة مرموقة عندهما، وأن يقدّم على سائر الشّعراء، لأنّه عرف حاجة كلّ منهما إلى شعره، فأغدقا عليه من العطايا والهدايا حتى صار يأكل في آنية من الذهب والفضّة¹، كما كان له حقّ الشّقاعة عند بني غسان في فكّ أسرى قومه الذين كانوا يغيرون على مراعيهم في أيّام

¹ - العمدة 1: ص 80.

الجذب والقحط.¹ إذن، لم يكن تقرب التابغة من ملوك المناذرة والغساسنة ومدحه لهم لأجل تحقيق مصلحة شخصية فحسب، بل كان سفير قبيلته ذبيان في كلا البلاطين، يجلب لها من ملك الحيرة أبي قابوس الدعم في حربها مع بني عبس وحلفائهم، ويفك أسرى قومه من قبضة الملك الغساني عمرو بن الحارث، ويحذّرهم من غاراته. غير أنّ علاقة الشاعر بهؤلاء الملوك لم تخل من المودة والإخلاص، نستشف ذلك من علاقته المتميزة بملك الحيرة التّعمان بن المنذر أبي قابوس الذي أغدق عليه من العطايا، وقدمه على سائر الشعراء في قصره حتى كثر حسّاده، ثم حدثت بينهما جفوة طويلة عميقة بسبب قصيدته في زوجه المتجرّدة²، أو لسبب آخر³، فخاف شاعرنا على نفسه من بطش التّعمان بن المنذر، ولجأ إلى عمرو بن الحارث الغسانيّ معزّزا مكرّما، فطفق يمدحه وينال عطاياه، دون أن ينسى حقّ ممدوحه السابق في المدح والاعتذار إليه، والتبرؤ من وشاية الحساد؛ نلمس ذلك جليّا من خلال قصيدته المشهورة في مدح عمرو بن الحارث وآبائه، حين هرب إلى الشام ونزل به، قال:⁴

كَلَيْبِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلِي أُنَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ⁵
تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَهْدِي النُّجُومَ بِأَيْبِ⁶
وَصَدْرِي أَرَا حَ اللَّيْلِ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ⁷

إذ يبدأ قصيدته بوصف ليله، على غير عادته ولا عادة شعراء عصره في البدء بالوقوف على الأطلال، فيصف ليلته التابغية بطول الهمّ والتسديد، حتى لكأنها لا تريد أن تنقضي، فليست أحزان النهار بأقلّ من معاناة الليل؛ وهذا الوصف يكاد يقترب من وصف امرئ القيس لليله، وإن اختلفت أسباب طوله عند الشعارين. وما كدر حياة التابغة، وما أفضّ مضجعه وزرعه بالأشواك إلا تغير قلب ممدوحه الأثير له، فلم يتحرّج من مدحه

¹ أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام: ص 196.

² الشعر والشعراء: ص 93 - 94. ومطلع قصيدته:

أمن آل مية رانح أو مغتد ؟ عجلان، ذا زاد، وغير مزود.

³ محمد زكي العشماوي: التابغة الذبياني، دار التهضة العربية، بيروت (لبنان) ط. 1980، ص 82 - 88.

⁴ التابغة الذبياني: ديوان التابغة الذبياني، تحقيق وشرح محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر ط. 1976، ص 43 - 44.

⁵ كَلَيْبِي: أتركبني - ناصب: أي ذي نصب، أي ذي تعب، أي متعب.

⁶ يهدي النجوم: التجم المتقدّم من النجوم لأنه إذا غاب في ضوء الصبح غابت بقية النجوم بقرب غيابه - أيب: راجع أو ليس بغائب.

⁷ أراح: أرجع إليه - عازب: بعيد - همّة: غمّه وحزنه - تضاعف: تكاثّر.

والاعتذار إليه، حتى وهو ينعم بالأمن والرخاء في بلاط الغساسنة؛ من ذلك معلقته التي استهلها بالوقوف على الأطلال ذلك الوقوف المعتاد اليائس، يسألها -في ذات عشية- عن ديار حبيبته مية التي عقى عليها الزمن، من دون أن يظفر بجواب، فيقع نفسه بالانصراف عما لا يجدي، وامتناء ناقته الجسيمة القوية السريعة إلى مبتغى أمله، يقول: ¹

يَا دَارَ مِيَّةَ بِالْعِبَاءِ فَالْسِّنْدِ أَقْوَتَ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبْدِ ²
 وَفَقْتُ فِيهَا أُصَيْلَانًا أُسَائِلُهَا عَيْتَ جَوَابًا وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدٍ ³
 فَعَدَّ عَمَّا تَرَى إِذَا لَا أُرْتَجَاعَ لَهُ وَأُمُّ الْقَتُودِ عَلَى عَيْرَانَةٍ أُجْدٍ ⁴
 فَتِلْكَ تُبَلِّغُنِي التُّعْمَانَ إِنْ لَهْ فَضْلًا عَلَى النَّاسِ فِي الْأَدْنَى وَفِي التُّبْعَدِ ⁵

فتبدر ظهره لأمل مضى وولى، وليستقبل أملاً قائماً في نفسه، يؤرقه ويطيل لياليه، وينغص عليه نهاره، آلاً وهو أمل تجديد العهد بممدوحه التعمان بن المنذر، وصفاء نفسه له بعد طول جفاء؛ وكيف يضيق صدره له وهو يسع بعطفه وحده القريب من الناس والبعيد؟ فمثل التعمان نادر الوجود في الناس، ولا يساويه في الفضل إلا أبوه أو من نجم من صلبه. ومن بلغ هذه المكانة السامقة كان محكماً في مصائر الناس على تناقض أخلاقهم وتبدل سلوكاتهم، يقول: ⁶

وَلَا أَرَى فَاعِلًا فِي النَّاسِ يُشْبِهُهُ وَلَا أَحَاشِي مِنْ الْأَقْوَامِ مِنْ أَحَدٍ ⁷
 إِلَّا لِمِثْلِكَ أَوْ مِنْ أَنْتَ سَابِقُهُ سَبَقَ الْجَوَادِ إِذَا أُسْتَوَلَى عَلَى الْأَمْدِ ⁸
 فَمَنْ أَطَاعَكَ فَأَنْفَعُهُ بِطَاعَتِهِ كَمَا أَطَاعَكَ وَأَذَلَّهُ عَلَى الرَّشْدِ
 وَمَنْ عَصَاكَ فَعَاقِبُهُ مَعَاقِبَةً تَنْهَى الظُّلْمَ وَلَا تَقْعُدُ عَلَى ضَمَدٍ ⁹

فمن شأن الحاكم الحازم أن يوقف إلى تقويم هذا التضاد في علاقة أفراد رعيته به، وتأرجحهم بين الطاعة والعصيان، وليس الطائع كالعاصي، فلهذا الثواب ولذاك العقاب،

¹ المصدر السابق: ص 76-81.

² العلباء: رأس الجبل - والسند: ما علا عن سفح الجبل - أقوت: أفقرت - السالف: الماضي - الأبد: الدهر، جمعه: أباد.

³ الأصيلان: تصغير أصيل، وهو الموقت بعد العصر إلى المغرب، ويجمع على أصلان - عيت: لم ترد جواباً - الربيع: المنزل.

⁴ عدَّ عما ترى: أي أمسك عن رؤيته وتجاوزته إلى غيره - أم: أرفع - القتود: جمع قند وهو عود من أعود الرّحل - العيرانة: النافقة التي تشبه العير، وهو حمار الوحش، في صلابه خفها وسرعتها - الأجد: الموثقة الخلق، القوية.

⁵ تلك: الإشارة إلى النافقة - تبليغي: توصلني إليه - البعد: جمع بعيد.

⁶ المصدر السابق: ص 82.

⁷ أرى: بمعنى أعلم - حاشى أحاشي: استنتني.

⁸ إلا لمثلك: أي أهلك ومن خرج من صلبك - الجواد: الفرس - استولى: غلب - الأمد: الغاية المجهولة لخيل المتباق.

⁹ الظلم: كثير الظلم - الضمد: الغيظ والضميم والحقد.

والطائع يقدم فروض الولاء بقدر ما يستطيع، وبخاصة إذا كان كالتابغة له علاقات حسنة
بالغساسنة خصوم النعمان الذين يحسنون وفادته كلما حلّ ببلادهم، يقول فيهم¹:
مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا أُتِيَهُمْ أَحْكَمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَقْرَبُ²

فإن كان مدحه للملك الغساني خطيئة في عين أبي قابوس، فليدّله على الصواب، ولا
يعاقبه من غير ذنب ولا جريرة. فأولى الناس باللوم من استفحل شره، واستشرى ظلمه،
وتأكدت معصيته، فوجبت له العقوبة الرادعة التي تشفي غليل النفس، وتذهب ما بها من
غيظ وحنق. لكن الشاعر لا يذكر أنه اقترف ذنبا في حقّ ممدوحه، ولا يملك دليلا على
خيانته سوى براءته منها، يؤكدها بما قرّ في نفسه من عقيدة جاهلية، فيقسم بالله تعالى ربّ
هذه الكعبة التي طاف بها ولمس حجرها الأسود، ويثني قسمه بما دُبِح من قرابين للأصنام
الموضوعة فيها، أنه ما خانها، ولا تأمر عليه، ولا تعدّى على حرمانه، وإلا فهو يدعو على
نفسه دعاء المؤمن الساذج البريء بشلل يده ونزول عقاب ربّه به عقابا ترتاح له شماتة
الوشاة الأعداء، ويظهره من فرية تتعص عليه حياته، وتحرق كبده ليلا ونهارا، يقول³:

فَلَا لَعَمْرُ الَّذِي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ وَمَا هُرَيْقٌ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدٍ⁴
مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أُتَيْتَ بِهِ إِذَا فَلَا رَفَعَتْ سَوَاطِي إِلَى يَدِي⁵
إِذَا فَعَاقَبَنِي رَبِّي مُعَاقِبَةً قَرَّتْ بِهَا عَيْنٌ مَنْ يَأْتِيكَ بِالْفَنَدِ⁶
إِلَّا مَقَالَةَ أَقْوَامٍ شَقِيَّتْ بِهِمْ كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرَعًا عَلَى كَبِدِي⁷

إنه يريد أن ينظّر من ذنب لم يقترفه، إنّه يبتغي تجديد العهد مع النعمان، لذا فهو
يكفّ عن الدفاع عن نفسه، ويمضي إلى استعطافه، وإسباغ عظيم الصنقات عليه،
بل يخاطبه بكنيته زيادة في استمالته، وينعت وعيده الذي أقض مضجعه بزئير الأسد الذي
لا قبّل له به، ويدعوه إلى التأنّي في غضبه عليه، وألا يُسِمّت به الأعداء؛ فالتاس كلهم وما

1 المصدر السابق : ص 55.

2 ملوك وإخوان : عنى ملوك آل جفنة الغساسنة.

3 المصدر السابق : 85 - 86.

4 مسّحت كعبته : زرت وطفّت - هريق : لغة في أريق - الأنصاب : حجارة الأصنام، وهي دماء القرابين التي ينحرونها على أصنامهم - الجسد
والجساد : الزعفران، وهو هنا الدم.

5 السوط : ما يضرب من جلد مضفور أو نحوه.

6 قرّت عين فلان : صارت مسرورة بنواله ما يشتهي - الفند : الكذب.

7 أي لكن مقالة أقوام كاذبة - القرع : الضرب.

يملك من مال ومن ولد فداء لمن فاق الفرات بفيض كرمه، وعمومه القريب والبعيد بفضله،
يقول:¹

أُنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسٍ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الْأَسَدِ²
مَهْلًا فِدَاءً لَكَ الْأَقْوَامُ كُلُّهُمْ وَمَا أُمْتَرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدِ³
لَا تَقْدَفَنِي بَرَكْنٍ لَا كِفَاءَ لَهُ وَإِنْ تَأْتَفَكَ الْأَعْدَاءُ بِالرَّقْدِ⁴
فَمَا الْفُرَاتُ إِذَا جَاشَتْ غَوَارِبُهُ تَرْمِي أَوَادِيَهُ الْعَبْرَيْنِ بِالزَّبْدِ⁵

إنَّ التَّابِغَةَ، بعقليته الحضريَّة وباحترافه للمديح وبإحسانه آداب مخاطبة الملوك، لا يرى غضاضة - عند الاعتذار - في أن يباليغ في رفع ممدوحه إلى أعلى عليين، وأن يتضاءل أمامه، ويتهاون في حق نفسه لإرضاء كبره واستمالة قلبه. ويختتم الشاعر قصيدته بالتأكيد على أن ثناءه على النعمان خالص لا تشويه شائبة من غرض أو مصلحة، وأن اعتذاره الدائم إليه، إن لم يصادف هوى في نفسه هذه المرَّة، فقد حكم على بقتة حياته بالتغيب والتكدير، يقول:⁶

هَذَا التَّنَاءُ فَإِنْ تَسْمَعَ بِهِ حَسَنًا فَلَمْ أُعْرَضْ - أَبَيْتُ اللَّعْنَ - بِالصَّفْدِ⁷
هَـَا إِنَّ ذِي عِذْرَةٍ إِلَّا تَكُنْ نَفَعَتْ فَإِنَّ صَاحِبَهَا مُشَارِكُ التَّكْدِ⁸

هذا جزاء من ضاقت به صحراؤه على سعتها، ففرط في حرَّيته، وأنف من مدح من يستحق المدح من سادة العرب كفعل زهير بن أبي سلمى، وأثر صحبة الملوك وخصمهم بمدائحهم، حتى أكل في صحاف من الذهب والفضة، وأمن مصلحته ومصالح قومه لدى البلاطين المتنافرين المتقاتلين، لكنه لم يحسب حسابا لغضبات السلطان، وتقلبات مزاجه، وبطشه بأخص ندمائه لأدنى ريبة، ولا لدسائس الحساد ووشاياتهم؛ فجنى على نفسه

¹ المصدر السابق: ص 87.

² أبو قابوس: كنية النعمان بن المنذر - أنبئت: أخبرت - أوعدني: هددني.

³ أُمْتَرُ: أجمع وأتخر.

⁴ لا تقذفني: لا ترميني، أراد لا تقطعني من جملتك - بركن: بجانب - لا كفاء له: لا مثل له - تأتفك: أي أحاطوا بك إحاطة الأثافي بالنار - بالرقد: جمع رقدة، وهي الإعانة، أي يعين بعضهم بعضا.

⁵ الفرات: نهر معروف، مخرجه من أرمينية، ويصب ما يفضل منه في دجلة - جاشت: فارت وارتفعت - غواربه: أعالي أمواجه - أواذيه: أمواجه، مفردا أذي - العبرين: منى عبر، ضقتا النهر وشطاه.

⁶ المصدر السابق: ص 88 - 89.

⁷ تسمعه: تقبله - أبئت اللعن: تحية الملوك في الجاهلية - أعرض: التعريض: كلام يكتى به عن شيء مما يستلزمه معناه - بالصفد: بالعطاء، والمراد أردت رضاك فقط لا عطاءك.

⁸ عذرة: العذر - مشارك: مخالط وملابس - التكد: قلة الخير.

بأن تبقى حياته معلقة بكلمة عفو على جرم يزعم أنه لم يأتته، وقضى على شعره أن يظلّ موزعاً بين المدح والاعتذار، فيحظى بتقدير فنيّ كامل من أهل عصره، إذ كان حكم الشعراء في سوق عكاظ¹، وتقدير اجتماعي منقوص من لدنهم، لأنه شقّ في الشعر طريقاً جديداً طريق الاعتذار الذي ياباه العربيّ، لذا لم ينازعه زعامته شاعر بعده فيما نعلم.

وشاعر مدّاح آخر هو الأعشى ميمون بن قيس بن جندل البكريّ المتوفى سنة 629م، نشأ فقيراً في بلدته منفوحة من اليمامة، فهو ابن "قتيل الجوع"²، لذلك اتخذ لنفسه طريقاً ثالثاً في المديح، حيث طوّف في شبه جزيرة العرب، ومدح الملوك والسادة والسوقة³، ما دام ذلك يوقر له مالا ينفقه - بإسراف - على معشوقتيه: الخمر والنساء، وكان حرمانه منهما يزيد تعلقاً بهما؛ إذ كان فقره يحرمه - في بعض الأحيان - من معايرة الخمر الغالية إلا على الأغنياء الكرماء، وكان عشاؤه وشيبهه يزهد الحسان في صحبتته.

ويبدو الأعشى - منذ مطلع معلقته - عاشقاً قد أثلته عشق من لا تبالي به. إنها هريرة، المرأة الوحيدة من بنات جنسها التي استطاعت أن توفد مشاعر الشيخ من جديد، فيزداد بها تعلقاً، وتزداد منه تمنعاً، لذا فهو يخشى على قلبه لحظات الوداع، يقول:⁴

وَدَعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكْبَ مُرْتَحِلٌ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ ٥
غَرَاءُ فَرَعَاءُ مَصْفُولٌ عَوَارِضُهَا تَمْشِي الْهُوَيْنَا كَمَا يَمْشِي الْوَجَى الْوَحْلُ ٦
صَدَّتْ هُرَيْرَةُ عَنَّا مَا نَكَلَّمْنَا جَهْلًا بِأَمِّ خَلِيدٍ حَبْلٌ مَنْ تَصِلُ ٧
أَنَّ رَأَتْ رَجُلًا أَعَشَى أَضَرَّ بِهِ رَيْبُ الْمُنُونِ، وَدَهْرٌ مُفْنِدٌ خَيْلٌ ٨

إنه يعشق بياضها وغازاة شعرها وأسنانها، ومشيتها في دلالتها على هدوء طبعها وتنعّمها، ولكنها تعرض عنه، وتتجاهل مشاعره، لأنها لا ترى فيه إلا رجلاً أعشى أنهكته

¹ الشعر والشعراء: ص 95.

² أبو قيس بن جندل يدعى قتيلاً الجوع، لأنه لجأ إلى غار في يوم شديد الحرارة، فوقعت صخرة كبيرة من الجبل، فسدت مدخل ذلك الغار، فمات فيه جوعاً (ينظر: الشعر والشعراء: ص 159).

³ كان المحلق الكلابي رجلاً فقيراً حامل الذكر، فلما مدحه الأعشى رفعه، وتسابق الأشراف لخطبة بنائه. (ينظر: العمدة 1: ص 48 - 49).

⁴ الأعشى ميمون: ديوان الأعشى، شرح عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت (لبنان)، (د.ت)، ص 173 - 174.

⁵ هريرة: قبيلة كانت لبشر بن عمرو بن مرتد، وتكلى بأمة الخليل.

⁶ غراء: بياض - فرعاء: طويلة الشعر - العوارض: ما يظهر من الأسنان عند التبسم - الهويبا: السير المتمهل - الوجى: الذي حفي قدمه - الوحل: الغائص في الوحل.

⁷ صدت عتاً: عرضت - أم خليل: كنية هريرة.

⁸ ريب المنون: نوابئ الدهر - الدهر المفند: المفسد - الخبل: فساد العقل.

الأيام الغدّارة، ولو رأته في عنفوان شبابه وإقبال الدنيا عليه لما توانت في وصله. لكن، لا كرامة في الحبّ، فشاعرنا مفتون بفنّاته من غير إرادته، غير أنّها تحبّ رجلاً آخر يحبّ امرأة أخرى، فيما تحبّه فتاة قد هام بها حبّاً فتى من أهلها. ثمّ يعلمنا الشاعر أنّ امرأة غير مناسبة له - كما يزعم - قد أحبّته. إذن، نحن أمام شبكة من العلاقات المهزوزة يغيب فيها العقل، ويحكمها الهوى؛ إذ يتعلّق الرّجل بمن تحبّ غيره، وتتعلّق المرأة بمن يحبّ غيرها، كلّهم مسلوب الإرادة، مستعذب لما هو فيه، قد انتفى في عينيه هذا التناقض الفاضح، وتساوي القريب والبعيد، والصيّد والصيّاد، لذا يتجاهل الأعشى غيرته ويأسه، ويحاول أن يتقرّب من معشوقته من جديد، لكنّها تصدّه في جفاء وازدراء، فهي تخاف عليه وتخاف منه، يقول: ¹

عَلَّقَهَا عَرْضًا، وَعَلَّقْتَ رَجُلًا
وَعَلَّقْتَهُ فَتَاةً مَا يُحَاوِلُهَا
وَعَلَّقْتَنِي أَخِيرَى مَا ثَلَاثِي
فَكُنَّا مُغْرَمَ يَهْذِي بِصَاحِبِهِ
قَالَتْ هُرَيْرَةٌ لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهَا:
غَيْرِي، وَعَلَّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ ²
مَنْ أَهْلَهَا مَيِّتٌ يَهْذِي بِهَا وَهَلْ ³
فَأَجْتَمَعَ الْحُبُّ حُبًّا كُلُّهُ تَبَلٌ ⁴
نَاءٍ وَدَانٍ، وَمَحْبُولٌ وَمُحْتَبِلٌ ⁵
وَيَلِي عَلَيْكَ، وَيَلِي مِيكَ يَا رَجُلُ

إنّ شاعرنا يعجب لما يحدث له مع صاحبتة بعد شباب حافل بمجالس اللّهو والطرب والنساء، فكأنّه لا يستسيغ هذا الإخفاق في الحبّ على الرّغم من طول أسفاره في البلاد وكثرة تجاربه في الحياة، فيعاوده الحنين إلى مجالس أنسه يغرق فيها إخفاقاته، يقول: ⁶

وَقَدْ غَدَوْتُ إِلَى الْحَاوِيَتِ يَنْبَعْنِي
فِي فَيْئَةٍ كَسَيُوفِ الْهَيْدِ قَدْ عَلِمُوا
نَازَعَتْهُمْ قُضْبَ الرِّيْحَانِ مُتَكِنًا
شَاوٍ مِثْلُ شَوْلٍ شَتْلُ شَوْلٍ شَتْلُ شَوْلٍ ⁷
أَنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذِي الْحَيْلَةِ الْحَيْلُ
وَقَهْوَةٌ مَزَّةٌ رَاوُوقَهَا خَضِلٌ ⁸

¹ المصدر السابق: ص 175.

² العلاقة: الحب - عرضا: من عرض له كذا، أتاه على غير قصد.

³ الوهل: ذهاب العقل.

⁴ التبل، من تبله: ذهب بعقله.

⁵ حبل الصيّد: أخذته في الجباله، فالصيّد محبوب - واحتبل الرّجل الصيّد: أخذه في الجباله، فالصائد محتبل.

⁶ المصدر السابق: 177.

⁷ الحانوت: الخنّارة - الشتاوي: الذي يشوي اللحم - المثل: سواق الإبل - الشلول: الخفيف - الشتل: الشول: الذي يحمل الأشياء.

⁸ القهوة: الخمر - الراووق: الإناء الذي تروق فيه الخمر - خضل: مخضّل بالتدنى.

وَمُسْتَجِيبٍ تَخَالُ الصَّحَجَ يَسْمَعُهُ إِذَا تُرْجِعُ فِيهِ الْقَيْنَةَ الْفُضْلُ¹

مِنْ كُلِّ ذَلِكَ يَوْمٌ قَدْ لَهَوْتُ بِهِ وَفِي التَّجَارِبِ طَوْلُ اللَّهْوِ وَالْغَزْلُ

لم يصف الأعرابي الخمرة للتفاخر بالغنى والكرم وتبذير المال في لحظات اللهو، كما فعل شعراء عصره في البيت والبيتين، ولكنه وصفها وصف العاشق المدله في جملة من الأبيات كان يقحمها في قصائده، وما ذكرها إلا في مجلس أنس متكامل يضم رفاق الشرب من الشباب الكرام، وشاوياء، وساقيا، وآلات الطرب كالعود والصنج، وقينة مغنّية، وخمرة عتيقة، وشعرا رفيقا من نظمه؛ إنها هالة تليق بمعشوقته التي تفانى في حبها حتى أفنته.²

هكذا أمضى شاعرنا شبابه مغتما اللذات، يقضي أيامه في اللهو والغزل، تلك الأيام التي لم تخل من التجارب ولحظات الجد، وبخاصة إذا تحرش به أو بقومه أحد الجاهلين، فينبري له بلسانه الحاد الذي كان يرفع به الوضع، ويضع الرفيع؛ فيخاطبه ساخرا حيناً، ومتوعداً حيناً، ومفتخرا عليه بالأيام حيناً آخر، كفعله لما هجا يزيد بن مسهر الشيباني أحد زعماء بكر يوم ذي قار³، يقول:⁴

أَبْلَغَ يَزِيدَ بَنِي شَيْبَانَ مَأْكَةً أَبَا تُبَيْتٍ! أَمَا تَنْفَكُ تَأْكُلُ⁵

أَلَسْتَ مُنْتَهِيًا عَنْ نَحْتِ أَلْتِنَا وَأَلَسْتَ ضَائِرَهَا مَا أَطَّتِ الْإِبِلُ⁶

كَنَاطِجِ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيُقْلِفَهَا فَلَمْ يَضِرْهَا، وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلُ

كَلَّا زَعَمْتُمْ بَأَنَّا لَا نُقَاتِلُكُمْ إِنَّا لَأَمْتَالِكُمْ، يَا قَوْمَنَا، قُتِلُ⁷

قَالُوا الرُّكُوبُ! فَقُلْنَا تِلْكَ عَادَتُنَا أَوْ تَنْزِلُونَ، فَإِنَّمَا مَعَشَرٌ نُزِلُ⁸

إنه شاعر القبيلة في اللحظة الشائكة يسالم من يسالمها، ويعادي من يعاديه، لا يرضى أن يمسّ شرفها، أو يشكك في مجدها الذي هو كالصرح رفعة وصلابة، فهيهات

¹ المستجيب: العود يجيب صوت الصنج - الصنج: دوائر نحاسية صغيرة تمسك بأصابع اليد، ثم يصفق بها الواحدة على الأخرى - القينة: المغنّية - الفضل التي تلبس ثوبا واحدا فتبدو مبتذلة.

² قيل إنه مات وهو عائد إلى بلدته منفوحة لشرب خمرة باقية قبل إسلامه (ينظر: الشعر والشعراء: ص 159)

³ ذو قار: اسم ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة، وسبب واقعة ذي قار أن كسرى غضب على التعمان وقتله، ثم طالب هاني بن قبيصة الشيباني بودائع التعمان، فرفض تسليمها له، فجهز كسرى جيشا كثيفا من الفرس والعرب الموالين له، والتقى بالبركيين وحلفائهم الذين استتبسوا في القتال وهزموا جيشه شر هزيمة، وكان ذلك في صيف 610 م أو 611م، وقد قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع بهذه الواقعة، قال: اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم، وبني نصرورا. (ينظر: في تاريخ العرب قبل الإسلام: ص 230-231).

⁴ المصدر السابق: ص 177 - 179.

⁵ المأكلة: الرسالة - تأكل: من الإبتكال وهو المتعي بالفساد.

⁶ الأئلة: التتجرة، وهي كناية عن الأصل والمجد العريق، ونحت ألتنا: ذمنا وتلقصنا - أطت الإبل: أتت من شدة التعب.

⁷ قتل: قاتلون، وهي جمع قتل.

⁸ تنزلون: أي تنزلون عن خيولكم لمقاتلتكم بالسيف.

أن ينال منه قرن وعل جاهل! فمن أراد أن يكون نذاً للصخرة الراسخة وضداً لها خاب وانهمزم، وبقيت هي مكانها لم يصبها شيء. فقوم الأعشى أصحاب مجد مؤتل وأيام كثيرة لا تجهلها العرب، لأنهم متمرسون على القتال، أكفاء لأعدائهم، يحسنون فنون الصراع: من مطاردة على الخيل بالرماح، أو منازلة بالسيوف على الأرض، وتانك ميزتا الفارس العربي.

ولقد قضى الأعشى أواخر سني حياته في جدّ يتخلله بين الفينة والفينة حنين إلى مجالس الأنس لمعاقرة الخمرة ومواصلة النساء، ومن جدّه ذلك إقباله على دعوة جديدة ظهرت بمكة، يدعو إليها رجل من قريش يسمّى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم، فأناه مسلماً ومادحا بقصيدة حافلة بالتضاد الذي اتخذها أداة للتعبير عن تناقضات حياته كلها وعدم قرارها على حال طيبة، يقول:¹

أَلَمْ تَعْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةً أُرْمَدًا وَعَادَاكَ مَا عَادَ السَّلِيمَ الْمُسَهَّدًا²
وَمَا ذَاكَ مِنْ عَشْقِ النِّسَاءِ وَإِنَّمَا تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ خَلَّةً مَهْدَدًا³
وَلَكِنْ أَرَى الدَّهْرَ الَّذِي هُوَ خَاتِرٌ إِذَا أَصْلَحْتَ كَفَّايَ عَادَ فَأَفْسَدًا⁴
شَبَابٌ وَشَيْبٌ، وَأَفْتِقَارٌ وَثَرْوَةٌ فَلِلَّهِ هَذَا الدَّهْرُ كَيْفَ تَرَدَّدًا
وَمَا زِلْتُ أَبْغِي المَالَ مَدًّا أَنَا يَافِعٌ وَكَيْدًا وَكَهْلًا حِينَ شَيْبْتُ وَأَمْرَدًا⁵

وكما هو واضح، فالتضاد يشيع في القصيدة منذ مطلعها في قوله: "السليم" الذي يطلق على الملدوغ نفاؤلاً بشفائه، أصلح وأفسد، شباب وشيب، افتقار وثروة. إنه يعرض علينا خلاصة حياته بجميع مراحلها في إيجاز بليغ كفله له الطباق، لذلك لم يتخل عن التوسل به في مدحه للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، والإشارة إلى الدين الجديد الذي يدعو إليه، حاثاً ناقته للوصول إليه، يمنيها ويمني نفسه بالراحة بعد التعب، وبالتوال بعد الحرمان، وبالرشاد بعد الغي، وبالتزود بالصلاح إلى حياة أخرى بعد انحسار أمل

¹ المصدر المتأنيق: ص 59 - 60.

² الأرمدم: الذي يعاني من رمد في عينيه - السليم: الذي لدغه عقرب أو حية، وقيل لهذا الملدوغ "السليم" من باب التفاضل - المسهد: الأرق الذي لا ينام.

³ الخلة: المودة والصداقة - مهدد: أسم امرأة.

⁴ الدهر الخاتر: الغادر.

⁵ اليافع: الذي يكون في سن العشرين - الوليد: الصبي - الأرمدم: الذي لم ينبت شعر لحينه.

الجاهليين في حياة واحدة يتربص بها الموت في كل حين، وذلك ما زاد من تيه الإنسان العربي واضطراب حاله في صحرائه الشاسعة، يقول:¹

فَأَقْبَيْتُ لَا أَرْتِي لَهَا مِنْ كَلَالَةٍ
وَلَا مِنْ حَفَى حَتَّى تَرُورَ مُحَمَّدًا²
مَتَى مَا تُنَاخِي عِنْدَ بَابِ ابْنِ هَاشِمٍ
تُرِيحِي وَتَلْقِي مِنْ فَوَاضِلِهِ يَدًا³
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا تَرُونَ، وَذِكْرُهُ
أَغَارَ، لِعَمْرِي، فِي الْبِلَادِ وَأَنْجَدًا⁴
لَهُ صَدَقَاتٌ مَا تُغِبُّ، وَتَائِلٌ⁵
وَأَجِدُكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ
نَبِيِّ الْإِلَهِ، حِينَ أَوْصَى وَأَشْهَدًا⁶
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ النَّقَى
وَلَأَقْبَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَرَوَدًا⁷
وَأَنْتَ لَمْ تُرْصِدْ لِمَا كَانَ أَرْصَدًا⁸

ويبدو لنا أن الأعشى كان يبغى بالإسلام حسن الختام، لكن سادة قريش حالوا بينه وبين ما يريد، خوفا من نصرته للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فاعترض طريقه زعيمهم أبو سفيان بن حرب، وساومه على عزمه ذلك بمائة من الإبل وبتخويفه من تحريم الخمر عليه في الدين الجديد، فقبل عرضه، وعاد إلى بلده منفوحة، فمات بناحية اليمامة.⁸ وهناك شاعر معاصر للأعشى كان أوفر حظا منه، إذ كان نقيضه في كل شيء، في

بداية حياته وفي نهايتها، ذلك هو لبيد بن ربيعة بن مالك العامري المتوفى سنة 661م (41هـ)، كان سيّدا في قومه؛ فأبوه يقال له ربيعة المقترين لسخائه⁹، وعمّه أبو براء عامر ابن مالك يلقّب ملاعب الأستة، إذ كان من فرسان العرب وسادتهم¹⁰. وكان لبيد شاعر القبيلة وخطيبها في الحرب وفي السلم؛ فهو في السلم رجل جواد منفق لماله على المحتاجين ما هبّت الصّبا¹¹، وهو في الحرب فارس شجاع شديد البأس ينود عن قبيلته بكلّ

¹ - المصدر السابق: ص 60 - 61.

² - الكلاله: الإعياء وشدة التعب - حفى: تلطّف في السؤال عنه.

³ - هاشم جدّ الرسول محمد (ص) - تريحى: تستريحى - الفواضل: العطايا.

⁴ - الغور: ما إنخفض من الأرض - أنجد: سار متجها إلى التجاد أي الأعلى والمرتفعات، والمراد إرتفع ذكره وإشتهر.

⁵ - ما تغيب: ما تنقطع - التائل: العطاء.

⁶ - أجدك: أحقّ ما تقول ؟

⁷ - أرصد له الشيء: أعدّه وهبّاه له.

⁸ - الشّعر والشّعراء: ص 159.

⁹ - المصدر نفسه: ص 171.

¹⁰ - المصدر نفسه: ص 173.

¹¹ - المصدر نفسه: ص 172.

ما أوتي من قوة. وتمثل معلقته عزة العربي وكرمه وفروسيته، مما يدل على أنه لم ينكسب بشعره.

ولقد بدأ ليبد معلقته بداية تقليدية -كعادة شعراء الجاهلية- بالوقوف على آثار الديار
الدارسة التي كشفت السيول عما بقي منها، فبدت كبقايا كتابات أقوام بائدة، فوقف يسألها
سؤال الطامع اليائس عن حفظها لذكريات صاحبه نوار التي حرمه وصالها الزمان
والمكان، يقول¹:

عَقَبَتِ الدِّيَارُ مَحِلَّهَا فَمَقَامُهَا بِمَنَى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فِرْجَامُهَا²
وَجَلَا السُّيُولَ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ نُجِدُ مُثُونَهَا أَقْلَامُهَا³
فَوَقَفْتُ أَسْأَلُهَا وَكَيْفَ سُؤْلَانَا صُمًّا خَوَالِدًا مَا يُبَيِّنُ كَلَامُهَا⁴
بَلْ مَا تَذَكَّرُ مِنْ نَوَارٍ وَقَدْ نَاَتَ وَتَقَطَّعَتْ أَسْبَابُهَا وَرِمَامُهَا⁵

ثم ما له يحرص على صداقته لنوار على بعد الزمان والمكان بينهما، وهي لا تأبه
له؟ ألم تكن تعرف عزة نفسه وإبائه الهوان حتى في الحب؟ إنه لن يبقى أسير الذكريات،
وفد عود نفسه على أن يصل من وصلها، ويقطع من قطعها. وهو ليس بالرجل الفارغ
الخامل الذي تتوقف عجلة حياته لأجل حب فاشل لا حاضر له ولا مستقبل، فسيركب ناقته
التشيطة التي أهزلها كثرة الأسفار وطول التطواف في البلاد، حيث الأمل الجديد في
استمرار الحياة ينكشف من بين أودية السراب، فيبذل أقصى طاقته ليحقق مبتغاه، يقول⁶:

فَأَفْطَعُ لِبَانَةَ مَنْ تَعَرَّضَ وَصَلُّهُ وَوَلَشَرُّ وَاصِلِ خَلْقَةٍ صَرَامُهَا⁷
بَطْلِيحٍ أَسْقَارٍ تَرَكْنَ بَقِيَّةً مِنْهَا فَأَحْنَقَ صُلْبُهَا وَسَنَامُهَا⁸

1 - ديوان ليبد بن ربيعة: ص 163-166.

2 - عفت: اندرست وانمحت. المحل من الديار: ما حل فيه لأيام معدودة. والمقام منها: ما طالت الإقامة به. منى: موضع قريب من طخمة وليس بمنى
مكة- تأبَّد: نوحش- الغول والرجام: جبلان معروفان.

3 - جلا: كشف- السُّيُول: جمع سيل- الطُّلُول: جمع طلل، وهو الشاخص من آثار الديار- الزبر: جمع زبور وهو الكتاب- تجد مثونها: تجدها- المتون:
جمع متن، ومعناه في الأصل الظاهر، والمراد بها هنا الكتابة التي تكون في الزبر.

4 - الصتم: الصلاب، جمع أصم للذكر وصماء للمؤنث- الخوالد: البواقي- ما يبين: ما يظهر.

5 - نوار: اسم امرأة- التأي: البعد- الرمام: جمع الرمة، وهب قطعة من الحبل خلفة ضعيفة، والأسباب الحبال ومفرده سبب، والمراد الصلات القوية
والضعيفة.

6 - المصدر السابق: ص 167-174.

7 - اللبانة: الحاجة- تعرَّض: تعرَّض- الخلة: المحبة والصداقة التي لا خلل فيها- الصرام: القطاع من الصرم وهو القطع.

8 - الطليح: الناقة المتعبة المعيبة- الإحناق: الضمر- أسفار: جمع سفر.

فَيْتَنُوكَ إِذْ رَقَصَ التَّوَامِعُ بِالضُّحَى
وَأَجْتَابَ أُرْدِيَةَ السَّرَابِ إِكَامَهُهَا¹
أَقْضِي اللَّبَانَةَ لَا أُفْرَطُ رِيْبَةً
أَوْ أَنْ يَلُومَ بِحَاجَةِ لَوَامِهِ²

لقد أخطأت نوار تقدير أخلاقه! إنه عزيز النفس، حاسم في علاقته بالمكان أو بالناس، لا يرتبط بمنزل أو يُبقي على ودّ إنسان ما لم ينزل منهما على الرّحب والسّعة، وإلا فهي القطيعة؛ إذ لا يرغمه على ما يأباه لنفسه إلا الموت. ثمّ إنّه كريم يسخو بماله على ندمائه بشراء الخمر حين تعزّ وتغلو والاستمتاع بالشّرب والغناء في الليلة الرّائقة الهواء. أمّا في الليلة الباردة حين تهبّ ريح الشمال، ويشتدّ البلاء على النّاس، فإنّه يتصدّى لها بنحر خيار نوقه لدفع الجوع والقرّ عنهم. وهو لا يحمي قبيّله بماله فقط، بل يبذل نفسه للدود عنها، فيمتطي فرسه بكامل سلاحه، ويخرج إلى أعالي الجبال يستطلع أخبار الأعداء، ويرقب تحركاتهم، حتّى إذا غربت الشّمس، وجنّ الليل، هبط إلى السّهل بفرسه القويّة فانطلقت من إسارها تسابق التّعام حتّى اضطربت رحالتها من فرط عدوها، وتصبّب عنقها بالعرق، فابنلّ حزامها، يقول³:

أَوْ لَمْ تَكُنْ تَدْرِي نَوَارُ بَأْتِنِي
وَصَّالُ عَقْدِ حَبَائِلٍ جَدَّامَهَا⁴
تَرَّاكَ أَمَكِنَةً إِذَا لَمْ أَرْضَهَا
أَوْ يَعْتَلِقُ بَعْضَ النَّفُوسِ حِمَامَهَا⁵
بَلْ أَنْتِ لَا تَدْرِينَ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ
طَلِقِ لِذِينِ لَهْوِهَا وَنِدَامَهَا⁶
قَدِ بَتُّ سَامِرَهَا وَغَايَةَ تَاجِرٍ
وَاقِيَّتُ إِذْ رُفِعَتْ وَعَزَّ مُدَامَهَا⁷
وَعُدَاةَ رِيحٍ قَدِ وَرَعْتُ وَقِيرَةَ
إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامَهَا⁸
وَلَقَدْ حَمَيْتُ الْحَيَّ تَحْمِلُ شِكَّتِي
فَرَطُ وَشَاحِي إِذْ غَدَوْتُ لِجَامَهَا⁹
فَعَلَوْتُ مُرْتَقِبًا عَلَى ذِي هَبْوَةٍ
حَرَجٍ إِلَى أَعْلَامِنَ قَنَامَهَا¹⁰

¹ - فَيْتَنُوكَ: الإشارة إلى ناقته. رقص: اضطرب. التوامع: جمع لامة، وأراد بها الأل وهو الذي يراه الإنسان في الضحى وآخر النهار كأنه يرتفع وينحط. اجتاب: ليس الأردية، جمع رداء. السراب: ما يراه الإنسان عند اشتداد الحرّ كأنه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، وهو يكون لاصقاً بالأرض. الأكام: الأماكن المرتفعة من الأرض، ومفردها أكمة.

² - التفریط: التضييع وتقدمة العجز - الرّيبة: الشكّة والثّمة، وأصل معناها قلق النفس. اللوام: الكثير اللوم.

³ - المصدر السابق: ص 175-177.

⁴ الحبال: جمع الحبال، وهي مستعارة للعهد والمودة هنا - الجذم: القطع.

⁵ - يعلق: يتعلّق - الحمام: الموت.

⁶ ليلة طلق وطلقة: ساكنة لا حر فيها ولا قر - الندام: المنادمة.

⁷ الغاية: راية ينصبها الخمار ليعرف مكانه. واقيت المكان: أتيتنه - المدام والمدامة: الخمر.

⁸ القرّة والقر: البرد - الشمال: أبرد الرياح - وزعت: كفتت وأزلت الجوع بالقرى - زمامها: أمرها.

⁹ الشكّة: السلاح - الفرط: الفرس المتقدمة السريعة الخفيفة.

¹⁰ المرتقب: المكان المرتفع الذي يقوم عليه الرقيب - الهبوة: الغبرة - الحرج: الضيق جداً - الأعلام: الجبال والرايات - القنم: الغبار.

حَتَّى إِذَا أَقْبَتَ يَدًا فِي كَافِرٍ
 أَسْهَلَتْ وَأَنْتَصَبَتْ كَجِدْعٍ مُنِيفَةٍ
 وَآجَنَ عَوْرَاتِ النَّعُورِ ظَلَامُهَا¹
 جَرْدَاءٍ يَحْصِرُ دُونَهَا جُرَامُهَا²
 حَتَّى إِذَا سَخَنَتْ وَخَفَّ عِظَامُهَا³
 وَأَبْتَلَّ مِنْ زَبَدِ الْحَمِيمِ حِرَامُهَا⁴
 رَفَعَتْهَا طَرْدَ النَّعَامِ وَشَلَّةَ
 قَالَتْ رِحَالُهَا وَأَسْبَلَ نَحْرُهَا

وهذا الكرم الفائق وهذه الفروسية العالية هما محل فخر واعتزاز كل عربي أصيل، وقد يصبحان مجالاً للمناظرة والمزايدة بين وفود العرب المتفاخرة عند الملوك التي يؤمّل نوالها وتُجَنَّب زرايتها؛ وهنا يتأخر السيف والسنان، وتتقدم ملكة اللسان وحسن البيان لإفحام الخصم القوي اللدود واستمالة الحَكَم، فلا يكفي في عرف العرب تحقيق المجد بالسيف والمال، بل يجب الحفاظ عليه، والدفاع عنه بالحجة الدامغة التي تدحض الباطل وتحقّق الحق ولو كره الكارهون. ولشاعرنا ولسادة قومه القدح المعلى والكلمة الفصل في كل مجلس مفاخرة، يقول:⁵

وَكثِيرَةٌ عَرَبَاؤُهَا مَجْهُوْلَةٌ
 غَلَبَتْ تَشْدُرُ بِالدُّخُولِ كَأَنَّهَا
 تُرْجَى نَوَافِئُهَا وَيُخْشَى دَامُهَا⁶
 حِينَ الْبَدِيِّ رَوَاسِيًّا أَقْدَامُهَا⁷
 عِنْدِي، وَلَمْ يَفْخَرْهُ عَلَيَّ كِرَامُهَا⁸
 مِمَّا لِيَزَاؤُ عَظِيمَةٍ جَشَّامُهَا⁹
 أَنْكَرْتُ بَاطِلَها وَبُوتُ بِحَقِّها
 إِذَا أَلْتَقَتِ الْمَجَامِعُ لَمْ يَزَلْ

وهذا المجد ليس مُحدثاً، ولم ينشأ من فراغ، وإنما هو وليد تقاليد مطردة يتوارثها سلالة من الأماجد يحافظون على الإرث، ويضيفون إليه من الفضائل الدائمة التي تعمّ قومهم والناس جميعاً. وهذا الموقع السامي في القبيلة يفرض على سراة القوم أن يكونوا

¹ الكافر: الليل، والكفر الستر، والإجنان الستر أيضاً- العورات: جمع عورة، وهي الخلل في الثغر وغيره يخاف أن يأتي منه العدو- الثغور: مواضع المخافة.

² أسهلت: نزلت إلى السهل- المنيفة: العالية الطويلة جرداء- متجردة من النقصان- يحصر: يضيق صدره- الجرام: جمع جارم وهو الذي يقطع الثمر من النخل.

³ الشلل والشلل: الطرد.

⁴ الفلق: سرعة الحركة- الرحالة: شبه سرج يتخذ من جلود الغنم بأصوافها- أسبل: أمطر- الحميم: العرق.

⁵ المصدر السابق ص 177-179.

⁶ وكثيرة: أي ربة قبة كثيرة غرباؤها، وأراد بها قبة النعمان ابن المنذر- مجهولة: أي مجهولة غواقيبها- نوافلها: عطاياها، جمع نافلة- يخشى: يخاف- الدام: العيب. يفتخر بالمناظرة التي جرت بينه وبين الربيع بن زياد العبسي نديم النعمان بن المنذر، والتي انتهت بسقوط منزلته عنده. (ينظر: العمدة: 1: ص 51-52)

⁷ الغلب: الغلاظ الأعناق- تشدر: تهباً للقتال- الذحول: الأحقاد، الواحد ذحل- البدوي: موضع- الرواسي: الثوابت.

⁸ بوت بحقها: أقررت به.

⁹ اللزاز من لزابه: قرن، ولزاز عظيمة: ملازم لها، موكل بها، قادر عليها- الجشام: المتكلف من الأمور ما فيه عسر ومشقة

قدوة لغيرهم في أخلاقهم، وفي سبقهم إلى أبواب الفضل بأداء المسؤوليات والواجبات الثقيلة. فهم يقسمون الغنائم على أفراد القبيلة بالعدل، لا يجورون على حق أحد، لأنهم الأحرص على أداء الأمانة إلى أهلها. وهم أهل جود يفعلونه ويعينون غيرهم عليه، ويجتهدون في كسب المعالي، لذلك كانوا للجار وللمحتاج وللأرملة بمثابة الربيع الذي يرتمون في أحضانها، ويصيبون من خيراته العارمة. فإذا نزل بالقبيلة مكروه عظيم من أعدائها، كانوا فرسانها البواسل في الحرب، وقضاتها الحكماء عند نشوب الخصومات داخلها في أوقات السلم، وذلك ليقتضوا قضاء مبرما على شماتة الحساد وخطر اللئام. إنهم النتاج الصالح لتربية الآباء الأماجد الذين يقتدون بهم دوما، لذلك لا يعقل أن يستسلموا يوما لأهوائهم، فيرتكبوا الدنيا والسفاهات التي تدنس العرض، وتلطيح الشرف بالعار. وهذا التوفيق الدائم لصالح الأعمال وعظائم الأمور، إنما مرده إلى توفيق ربّ السماء مقسم الأرزاق بين الناس؛ فقد اصطفاهم صغارهم وكبارهم بالرفعة والسّموّ والسؤدد، وقضى لعدوهم بالانحطاط والصّعار والدونية، يقول¹:

وَمُقَسِّمٍ يُعْطِي الْعَشِيرَةَ حَقَّهَا	وَمُعْتَمِرٍ لِحُقُوقِهَا هَضَامَهَا ²
فَضْلًا وَنُؤْ كَرَمٍ يُعِينُ عَلَى النَّدَى	سَمْحٍ كَسُوبِ رَغَائِبِ غَنَائِمِهَا ³
مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ	وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا ⁴
لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يَبُورُ فَعَالَهُمْ	إِذْ لَا يَمِيلُ مَعَ الْهَوَى أَحْلَامُهَا ⁵
فَبَنَى لَنَا بَيْتًا رَفِيعًا سَمَكُهُ	فَسَمًا إِلَيْهِ كَهْلُهَا وَغَلَامُهَا ⁶
فَأَفْنَعُ بِمَا قَسَمَ الْمَلِيكُ فَإِنَّمَا	قَسَمَ الْخَلَائِقَ بَيْنَنَا عَلَامُهَا ⁷
وَإِذَا الْأَمَانَةُ قُسِّمَتْ فِي مَعْشَرٍ	أَوْفَى يَأْوِفِرُ حَظَّنَا قَسَامُهَا ⁸

¹- المصدر السابق: ص 179-180.

²- المقسم: مقسم الغنائم- التذمر والغذمة: التلغضب مع همهمة- الهضم: الكسر والظلم.

³- الندى: الجود- الرغائب: جمع الرغبة وهي ما رغب فيه من علق نفيس أو خصلة شريفة أو غيرهما- الغتام: مبالغة الغانم.

⁴- السنّة: الطريقة- الإمام: المثال الذي يقتدى به ويسار بهديه.

⁵- الطبع: تدنس العرض وتلطيحه- البوار: الفساد والهلاك.

⁶- سمكه: سقفه، وأراد أنه رفيع شرفه- سما: علا وارتفع- كهلهها وغلانها: كبيرها وصغيرها

⁷- الخلائق: جمع خليفة، وهي السجبة والطبيعة- العلام: هو الله تبارك وتعالى.

⁸- معشر: قوم - أوفى: وفى ولم ينقص، والوفور: الكثرة - بأوفر حظنا: أي بأكثره وأتمه.

وَهُمُ السُّعَاءُ إِذَا الْعَشِيرَةُ أَفْطَعَتْ

وَهُمُ قَوَارِسُهَا وَهُمْ حُكَّامُهَا¹

وَهُمُ رَيْبِعٌ لِلْمَجَاوِرِ فِيهِمْ

وَالْمُرْمِلَاتِ إِذَا تَطَاوَلَ عَامُهَا²

وَهُمُ الْعَشِيرَةُ أَنْ يُبْطِئَ حَاسِدٌ

أَوْ أَنْ يَمِيلَ مَعَ الْعَدُوِّ لِأَمُهَا³

وبالنظر إلى ما اشتملت عليه معلقة ليبيد بن ربيعة العامري من قيم عربية أصيلة، فإن الشاعر قد نجح - بامتياز - في أن يقدم لنا صورة صادقة لحياة العربي في صحرائه الشاسعة التي كانت تهدد ساكنيها بالموت في موسم القرّ وسني الجذب، حتى إذا نزل الغيث وهبت لهم الحياة من جديد. وقد أكسبت تلك الطبيعة القاسية العرب جفاء في الطباع، وشراسة في القتال، ولكنهم قاوموها وضادّوها بأخلاقهم السمحة؛ فواجهوا القحط والجوع بالخصوبة في قرى الضيف، وإطعام المحتاج، وإغاثة المهوف، وإجارة الضعيف.

وإذا كانت ثنائية الحياة والموت غالبية على تفكير هؤلاء العرب، فإن هاجس الموت لم يسيطر عليهم إلى الحد الذي يمنعهم من الحياة الطبيعية الآمنة، متى لم يكلفوا أنفسهم الغارة على جيرانهم، أو النار من أعدائهم.

وكان العربي - في صحرائه الموحشة - يحس بالحرية والعزة والمنعة، فلم يرغب سكان الحواضر على أمنهم ووفرة خيرات بلادهم، إذ كان يرى في مثل تلك الحياة الآمنة الوداعة مدعاة للجبين والكسل والترهل وبلادة الحواس! فالحياة في البادية، بما يحفها من كوارث طبيعية ومخاطر الوحوش الضارية في الفلوات، مدعاة لتيقظ الحواس، وتوقد الذكاء المتكيف مع البيئة القاهرة.

وقد اعتزّ العرب - في شبه جزيرتهم - بما لديهم من شعر وخطابة وأيام ومعتقدات، وزهدوا في الأخذ من حضارة الفرس أو حضارة الروم اللتين كانتا تعدّانهم قوما جفاة، همجا، أجلافا، يعيشون على هامش الحضارة. من هنا، كان العرب في حاجة إلى دفعة قوية لم تتوفر في الأرض، وإنما كان يجب أن تنتزل عليهم من السماء، لتتقلهم نقلة جوهرية من البداوة إلى الحضارة، وتجعلهم يقفون بموازة تينك الحضارتين المجاورتين

1- السعأة: الساعون بأمرها القائمون بحاجاتها- أفطعت: ذهبت بأمر فطيع.

2- ربيع: أي أهل خير لمن يجاورهم- المرميلات: النساء اللاتي فني زادهن ولم يبق معهن طعام- تطاول عامها: امتد عام أرمالها وفناء زادها.

3- وهم العشيرة: أي هم متوالفون متعاضدون.

اللتين بدأ ينتابها التفسخ والانحلال الذي يصيب الحضارات قبل أن يأفل نجمها وتزول.
ودار الزمان دورته، لتبدأ تباشير الدين الجديد في الظهور بالتغيير المرتقب الذي
سيزلزل حياة العرب الرتيبة، في مكة حيث الكعبة محجة القبائل العربية، على يد النبي
العربي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم من قريش سادة العرب.

الفصل الثالث:

التضاد

في

شعر الدعوة الإسلامية

أيام الرسول صلى الله عليه وسلم

لقد جاء الإسلام ليملاً نفوس العرب والبشرية جمعاء بالعقيدة الصحيحة القائمة على توحيد الله عزّ وجلّ بالعبادة، والإيمان بالبعث والحساب، وليمحو ما فيها من عقيدة فاسدة باهتة تشوبها الخرافات والأساطير، وجاء كذلك ليثبت أخلاقاً كريمة اعتزّ بها العرب كالشجاعة والكرم وإباء الضيم وإغاثة الملهوف وإجارة الضعيف، ويوجهها الوجهة القويمة، ولينهى عن موبقات اقترفوها كشراب الخمر والقمار والزنا والرّبا وغيرها.

ولما جهر محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب -صلى الله عليه وسلم- بدعوة الإسلام في مكّة، قابله قومه من قريش -وبخاصّة ساداتها- بالاستهزاء والأذى له ولأصحابه المؤمنين، لأنهم فهموا أنّه يهدّد كياناتهم بالزّوال، ويقوّض سلطانهم الدّيني والاقتصاديّ لدى القبائل العربيّة.

وحين كثّر الأذى، وطالت المعاناة، وفرغ الصّبر، أذن الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى المدينة المنورة، حيث كان أهلها من الأوس والخزرج أنصاره الجدد في انتظاره، فبني مسجده، وأخى بين المهاجرين والأنصار، وبدأ المجتمع الجديد يتشكّل أمام أعين اليهود الذين فقدوا الأمل في أن يكون النّبيّ منهم، وتزعزع وجودهم السّياسي والاقتصاديّ القائم على إثارة النعرات القبليّة بين الأوس والخزرج، والإثراء من تجارة السّلاح والمؤن للحيين المتقاتلين، فبدأوا يكيدون للإسلام، ويحرّضون سادة مكّة للقضاء عليه¹. وأخذت قريش تتناوش الرّسول صلى الله عليه وسلم في معقله الجديد، وتسلّط عليه شعراءها ينهشون عرضه، حتى ضاق بهم ذرعا، ولما أخبره الشّاعر حسّان بن ثابت أنّ أبا سفيان بن الحارث هجاه، واستأذنه في هجائه، قال له النّبيّ صلى الله عليه وسلم: فكيف تصنع بي؟ فقال: أسلك منهم كما تسلّ الشّعرة من العجين! فقال له: اهجم وروح القدس معك، واستعن بأبي بكر، فإنّه علامة قريش بأنساب العرب². فانبرى حسّان يهجو أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فعده لصيقاً حقيراً في أرومة آل هاشم الأماجد، ونعته بأنّه أوهن فرع في هذه الدّوحة العظيمة التي ازدادت شرفاً بابنها محمّد بن عبد الله بن عبد

¹سعد زغول عبد الحميد: في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار النهضة العربيّة، بيروت (لبنان)، ط. 1976، ص 373-374.

²جمهرة أشعار العرب: ص 30.

المطلب صلى الله عليه وسلم ، يقول: ¹
 لقد علم الأقبام أن ابن هاشم
 وما لك فيهم محتد يعرفونه
 وإن سنام المجد من آل هاشم
 وأنت زعيم نيط في آل هاشم

هو الغصن ذو الأفنان لا الواحد الوغد ²
 فدونك فأصق مثل ما لصق الفرد ³
 بنو بنت مخزوم ووالدك العبد ⁴
 كما نيط خلف الراكب القدح الفرد ⁵

ويبدو أن حسانا قد امتلأ قلبه بالإيمان-كبقية الأنصار- قبل أن يحل الرسول صلى الله عليه وسلم بين ظهرانيهم، نلمس ذلك من خلال تجاوبه مع الهاتف الذي بشرهم بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه يوم هجرته، فهو سعيد لأن حامل النور والهدى والطهارة حلّ بيثرب فصار اسمها المدينة المنورة، وبقيت مكة في دنسها وضلالها، وشتان بين المهتدي والضال؛ ولا سبيل للنجاة إلا بتصديق هذا النبي الذي يعلم -بفضل كتاب الله تعالى وبما أطلعه عليه من غيبه- ما لا تصل إليه عقول الناس، يقول حسنان في قصيدة حافلة بالتضاد بين أهل الهدى وأهل الضلال: ⁶

لقد خاب قوم غاب عنهم نبيهم
 ترحل عن قوم فضلت عقولهم
 هداهم به بعد الضلالة ربهم
 وهل يستوي ضلال قوم تسقوا
 نبي يرى ما لا يرى الناس حوله
 وإن قال في يوم مقالة غائب
 ليهن أبا بكر سعادة جده

وقدس من يسري إليهم ويغثدي ⁷
 وحل على قوم بنو مجد
 وأرشدهم، من يبع الحق يرشد
 عمى وهداة يهتدون يمهتد ⁸
 وينلو كتاب الله في كل مسجد
 فتصديقها في اليوم أو في ضحى الغد ⁹
 بصحبتيه، من يسعد الله يسعد ¹⁰

¹ -حسان بن ثابت: شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، عبد الرحمن البرقوقي، دار الأندلس، بيروت (لبنان)، ط. 1980، ص 215-216.
² -ابن هاشم هو الغصن ذو الأفنان يعني الرسول (ص) -الواحد الوغد: يريد أبا سفيان بن الحارث- الوغد: الرذل الذي، والوغد الخادم الذي يخدم بطعام بطنه.

³ - الفرد: جمع فراد وهو دويبة معروفة تعض الإبل- الملتصق: الدعوي أو المقيم في الحي وليس منهم بنسب.
⁴ - سنام المجد: أعلاه- وبنت مخزوم: هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم وهي أم أبي طالب وعبد الله والزيد بن عبد المطلب، فأم أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم- مخزومية.

⁵ - الزعيم: هنا المستلحق في قوم ليس منهم لا يحتاج إليه، فكأنه فيهم زئمة- وقوله: كما نيط خلف الراكب القدح الفرد أي هو مؤخر في الذكر.
⁶ المصدر السابق: ص 143-145.

⁷ - خاب قوم: يريد قريشا- قدس أي طهر، والتفديس التطهير.

⁸ - السقفة: الجهل وركوب الشطط والحيد عن الرشد.

⁹ - يقول: إن أخبر بالغيب يوما، فلا بد أن يتحقق ذلك ويصدق.

¹⁰ - ليهن أي ليهنك- والجد هنا، الحظ والسعادة- بصحبتيه: أي بصحبة رسول الله (ص)- من يسعد الله: أي من يرد الله سعادته يسعد.

لقد تغَيَّرَ شاعر القصور! نسي أو تناسى ستين سنة¹ أنفَقها في الغزل وشرب الخمر،
 وصرفها في الفخر بنفسه وبقومه، وفي مدح ملوك المناذرة والغساسنة أقربائه من اليمن،
 ونيل عطاياهم على الرغم من منافسة النابغة الذبياني وعَلْقَمَة بن عَبْدَةَ؛ كان يمدحهم
 بالشجاعة والعزّة والمنعة، والكرم الشامل الفقير والغنيّ من النَّاس، فكانت أيامه الطويلة
 التي أقامها عندهم معزّرا مكرّما كالأحلام. يقول وهو في حضرة الملك الغسائي عمرو بن
 الحارث:²

لِللّهِ دَرٌّ عَصَابَةٌ نَادِمَةٌ هُمْ يَوْمًا يَجِيئُكَ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ³
 الْأَصَارِبُونَ الْكَبِشَ يَبْرِقُ بِيضُهُ ضَرْبًا يَطِيحُ لَهُ بَنَانُ الْمُفْصَلِ⁴
 وَالْخَالِطُونَ فَقِيرَهُمْ بَعْدِيهِمْ وَالْمُنْعَمُونَ عَلَى الضَّعِيفِ الْمُرْمِلِ⁵
 أَوْلَادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضَلِ⁶
 يُعْتَشُونَ حَتَّى مَا تَهْرُ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ⁷
 يَسْتَفُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ بَرْدَى يُصَقِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ⁸
 بِيضُ الْوَجُوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ شَمُّ الْأَنْفِ سَوْفَ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ⁹
 قَلْبِي تَزَمَانًا طَوَالًا فِيهِمْ ثُمَّ أَذْكَرْتُ كَأَنْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ

إنه زمن قد ولى، غير مأسوف عليه، فشاعرنا يعيش تجربة جديدة خصبة بقيمتها
 التي تنتزل من السماء إلى الأرض، فتغيّر حياة الناس، وتهدّهم إلى السعادة الحقّة.
 فالممدوح هنا نبيّ، وهو سيّد البشر وأقربهم إلى الله منزلة، إذ ضمّ اسمه إلى اسمه عند
 التّشهُد وعند الأذان، وبعثه خاتما للأنبياء والرّسل عليهم السّلام إلى خلقه ليوحّدوه بالعبادة،

¹عاش حسان بن ثابت في الجاهلية ستين سنة، وفي الإسلام ستين سنة، ومات في خلافة معاوية، وعمي في آخر عمره. (ينظر: الشعر والشعراء: ص 192)

²المصدر السابق: ص 364-366.

³العصابة: الجماعة - وجليق: دمشق أو موضع بقربها.

⁴الكبش هنا سيد القوم ورئيسهم - البيض جمع بيضة وهي الخوذة - يطيح: يذهب - والمراد بنان المفصل أطراف الأصابع.

⁵المرمل: الذي نفذ زاده، والمراد الفقير، وأصله من الرّمْل كاتّه لصق بالرمْل.

⁶أولاد جفنة: هو أبو ملوك آل غسان ملوك الشام، وهو جفنة بن عمرو مزيقياء - حول قبر أبيهم: هم آمنون لا يبرحون ولا يخافون كما تخاف العرب، وهم مخصيون لا ينتجعون.

⁷يعشون: إن منازلهم لا تخلو من الأضياف والطّراق حتى أنست كلابهم بهم، فلا تهرّ على أحد - لا يسألون عن السواد المقبل: هم في سعة لا يروعهم الجمع الكثير.

⁸البريص ويردى: نهران بدمشق، ويقصد ماء بردى - يصقق: يمزج - الرّحيق: الخمر البيضاء - السّلسل: اللّينة السّهلة الدّخول في الحلق.

⁹شمّ الأنوف: إتهم أعزّة سادة ذوو أنفة وشرف - الطّراز: المستوى، والمراد هنا من الشكول الجيدة الحسنة المنفوقة.

ويتركوا عبادة الأوثان، وليعلمهم دينهم، ويبشّرهم بنعيم الجنة، وينذرهم من عذاب النار، فله الطاعة والحمد على هذه النعم، يقول¹:

أَغْرَزَ عَلَيْهِ لِلنُّبُوَّةِ خَاتَمٌ
وَضَمَّ إِلَيْهِ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ
نَبِيًّا أَتَانَا بَعْدَ يَأْسٍ وَقَهْرَةٍ
فَأَمْسَى سِرَاجًا مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا
وَأُنذَرْنَا نَارًا وَبَشِّرَ جَنَّةً
وَأَنْتَ إِلَهُ الْخَلْقِ رَبِّي وَخَالِقِي
تَعَالَيْتَ رَبَّ النَّاسِ عَنْ قَوْلِ مَنْ دَعَا
لَكَ الْخَلْقُ وَالتَّعَمَّاءُ وَالْأُمُرُ كُلُّهُ
مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يَلُوحُ وَيُشْهَدُ²
إِذَا قَالِ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَدِّنُ أَشْهَدُ³
فَدُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدٌ⁴
مِنَ الرُّسُلِ وَالْأَوْثَانُ فِي الْأَرْضِ تُعْبَدُ⁵
يَلُوحُ كَمَا لَاحَ الصَّقِيلُ الْمُهْدَدُ⁶
وَعَلَّمَنَا الْإِسْلَامَ فَأَلَّهِ نَحْمَدُ⁷
بِذَلِكَ مَا عَمَّرْتُ فِي النَّاسِ أَشْهَدُ
سِوَاكَ إِلَهًا أَنْتَ أَعْلَى وَأَمْجَدُ
فِيَّيَاكَ نَسْتَهْدِي وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ⁸

هكذا وقف حسان بن ثابت حياته وشعره ينافح عن الدعوة الإسلامية وإلى جانبه كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، وكلهم من الخزرج من الأنصار، يقارعون شعراء المشركين أمثال عبد الله بن الزبيري وضرار بن الخطاب وأبي سفيان بن الحارث من شعراء قريش في مكة، وكعب بن الأشرف من شعراء اليهود في المدينة⁸.

وقد نزلت آيات من الذكر الحكيم لتُميِّزَ بين هاتين الفئتين المتناقضتين من الشعراء، ولتشدَّ من أزر الفئة المؤمنة، ولتحتِّ الشاعر المؤمن على الدفاع عن الدين، وعلى تصوير الحياة الجديدة في ظلِّ الفضيلة والحقِّ والعدل بين الناس، يقول الله عز وجل: { وَالشُّعْرَاءُ

1 - المصدر السابق: ص 134-135.

2 - أغرز: كريم الأفعال ووضحها، والأغرز من الغرة بياض الوجه - وقوله: عليه للنبوَّة خاتم من الله، يجوز أن يكون المراد: عليه من إشرافه وتلألؤه ومن جميع خصاله طابع النبوَّة - يلوح ويشاهد، وأن يكون المراد خاتم النبوَّة على حقيقته، وقيل إنه شامة خضراء أو سوداء محفورة في اللحم، وقيل كغدة عند غضروف كنفه اليسرى.

3 - ذلك أن المؤذن يقول في كل صلاة من الصلوات الخمس: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله.

4 - الفترة ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة - الأوثان: جمع وثن، وأصلها عند العرب كل تمثال من خشبة أو حجارة أو ذهب أو فضة أو نحاس أو نحوها، وكانت العرب تتصبها وتعبدها.

5 - يلوح: أي يلمع لمعان السيف الصقيل.

6 - الإنذار: الإعلام والتحذير مما يخاف منه - ويشتر به: فرح، والبشارة المطلقة لا تكون إلا بالخير.

7 - كل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه - ونعمة الله ونعمائه منه - وإياك نستهدي: نطلب الهداية.

8 - محمد عزام: قضية الالتزام في الشعر العربي، دار طلاس، دمشق (سوريا)، ط 1، 1989، ص 138-139.

يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ¹ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ².

إنّ انتماء الشّاعر إلى عقيدة الإسلام وعمله بتعاليمه في حياته اليومية، يدفعانه - في قرارة نفسه - إلى الالتزام بالدّود عن الدّعوة الإسلامية، وبخاصّة إذا كانت في أحلك أوقاتها، يتأمر عليها أعداؤها من المشركين واليهود للقضاء عليها، ولا يدخرون وسيلة ما دامت تحقق غايتهم المنشودة، لذلك اتخذوا من الهجاء المقذع الذي عرفوا خطره على المهجويين في جاهليتهم، سلاحاً فتاكاً لنهش عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى آذوه، فاستجد بشعرائه ليقولوا لهم مثل ما يقولون لهم؛ فهذه حرب كلامية شعواء، و نار متقدّة، تحرق الأنساب والأمجاد التي يغار عليها كلّ عربي، فلا تطفئها إلا نار مثلها أشدّ تأجّجا وضراوة.

وقد فرض على هذه الدّعوة الجديدة السّمة أن تستعين بالشّعْر وبالسيف معا لتُمكن لنفسها في شبه جزيرة العرب، وتحمي نفسها من فتنة أعدائها. وقادت المناوشات المستمرّة بين الطرفين إلى أوّل لقاء حقيقيّ بين قوّة الإيمان وقوّة الكفر في بدر، حيث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ثلاثمائة من أصحابه ليعترض قافلة أبي سفيان بن حرب القادمة من الشّام، لكنّ زعيم مكة استنفر قريشا لحماية تجارتها وغير مساره، فوجدت الفتتان نفسيهما وجها لوجه في بدر، فما كان على هذه الفئة القليلة من المسلمين إلا القتال والثبات في مواجهة ألف مقاتل من الكفار، وشاء الله تعالى أن يؤيّد المؤمنين بنصره ليظهر الإسلام ويمحق الكفر، قال عزّ وجلّ: {وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَنفِ

¹ - الغاؤون: السفهاء والشطار، وقيل الرايون، وقيل الشياطين، وقيل شعراء قريش الكفار. وذكر الراوي والهيوم فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول وقلة مبالاتهم بالغلو في المنطق ومجازة حدّ القصد فيه، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنتره، وأشجعهم على حاتم، وان يبهتوا البريء، ويفسقوا النقي. (ينظر: تفسير الكشاف للزمخشري: 4: ص188).

² - سورة الشعراء: 224-227.

مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ¹ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ².

إذن، كانت غزوة بدر -في السنة الثانية للهجرة- أول جولة للمؤمنين على الكافرين، وكان لهذا النصر العظيم دلالاته الكثيرة: إذ عدل موازين القوى بين الطرفين، وجعل الله تعالى للمؤمنين شرعة في جهادهم لأعدائهم إلى يوم القيامة، ألا ينتصروا عليهم بعدد ولا عُدّة، ولكن بفضل اعتصامهم بحبل الله جلّ وعلا، كما كان هذا النصر قصاصا من قريش على أذاها للرسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين طيلة خمس عشرة سنة. وقضى العزيز الحكيم أن يكون الموت والحزن والألم في معسكر المشركين لأول مرة، وأن يبكي نساؤهم وشعراؤهم قتلاهم ساداتهم قبل سوقتهم المدفونين كلهم في القليب في بدر، فهذا عبد الله بن الزبير السهمي يبكي سادة قريش قتلى بدر، ويذكر بعراقه أنسابهم وكرمهم ومنزلتهم في الناس، وبخاصة رئيسهم أبا جهل عمر بن هشام، يقول³:

مِنَ فِتْيَانٍ بِيضٍ الْوَجْوهِ كِرَامِ	مَاذَا عَلَى بَدْرٍ وَمَاذَا حَوْلَهُ
وَأَبْنِي رِبِيعَةَ خَيْرِ خَصْمٍ فَنَامَ ⁴	تَرَكُوا نُبِيَهَا خَلْفَهُمْ وَمُنْبَهُهَا
كَالْبَدْرِ جَاءِي لَيْلَةَ الْإِظْلَامِ ⁵	وَالْحَارِثَ الْفَيْضَ يَبْرُقُ وَجْهَهُ
رُمَحًا تَمِيمًا غَيْرَ ذِي أَوْصَامِ ⁶	وَالْعَاصِي بِنَ مُنْبَهُ ذَا مَرَّةٍ
وَمَآثِرُ الْأَخْوَالِ وَالْأَعْمَامِ ⁷	تَتَمِي بِهِ أَعْرَاقُهُ وَجُدُودُهُ
فَعَلَى الرَّئِيسِ الْمَاجِدِ ابْنِ هِشَامِ ⁸	وَإِذَا بَكَى بَاكِ فَاعْزُولَ شَجْوَهُ
رَبُّ الْأَنْبَامِ، وَخَصَّاهُمْ بِسَلَامِ	حَيَّا إِلَهَهُ أَبَا الْوَلِيدِ وَرَهْطَهُ

¹ الطائفتان: العير والتفير - غير ذات الشوكة: العير لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارسا، والشوكة: كانت في التفير لعدددهم وعتتهم - أن يحق الحق: أن يثبت ويعليه - بكلماته: بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة ونصرة الملائكة وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطردهم في قليب بدر - قطع الدبر عبارة عن الاستئصال - ليحق الحق ويبطل الباطل: إثبات الإسلام وإظهاره وإبطال الكفر ومحقه - مردفين: متبعين بعضهم لبعض - إلا بشرى: إلا بشارة لكم بالنصر. (ينظر: تفسير الكشاف 2: ص 157-158).

² الأنفال: 7-10

³ - ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق محمد علي قطب ومحمد الدالي بلطه، المكتبة العصرية، بيروت (لبنان)، ط 1998، ج 3، ص 15-16.

⁴ - الفئام: الجماعات من الناس - نبيه ومنبه ابني الحجاج بن عامر - عتبة وشيبة ابني ربيعة:

⁵ - الفيض: الكثير الإعطاء - استنارة الحارث بن هشام الذي فر من المعركة.

⁶ - المرة: القوة والشدة - التميم: الطويل - والأوصام: العيوب.

⁷ - المآثر: جمع مآثرة، وهي ما يتحدث به عن الرجل من خير وفعل حسن.

⁸ - الإعوال: رفع الصوت بالبكاء - والشجور: الحزن.

فأجابه حسّان بن ثابت الأنصاري ناقضا كلّ ما قاله، داعيا عليه بدوام البكاء والحزن على من وصفهم بالمجد، مزريا بهم، مذكرا له بمن هو أوّلى بالمديح، مرجّحا كفته عليهم، ذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم الماجد، السّمح، المقدام، الكريم، الوفيّ بدمته، يقول¹:

إِنَّكَ بَكَتَ عَيْنَاكَ ثُمَّ تَبَادَرْتَ بَدِيٍّ يَعْلُ غُرُوبُهَا سَجَّامٌ²
 مَاذَا بَكَيْتَ عَلَى الَّذِينَ تَتَابَعُوا هَلَّا تَذَكَّرْتَ مَكَارِمَ الْأَقْوَامِ³
 وَذَكَرْتَ مِمَّا مَاجِدًا ذَا هِمَّةٍ سَمَحَ الْخَلَائِقِ مَاجِدَ الْإِقْدَامِ
 أَعْنِي النَّبِيَّ أَخَا التَّكْرُمِ وَالنَّدَى وَأَبْرًا مَن يُولِي عَلَى الْأَقْسَامِ⁴
 فَأَمَّا لَهُ وَلَمْ يُلْ مَا يَدْعُو لَهُ كَانَ الْمَمْدَحَ ثُمَّ غَيْرَ كَهَامِ⁵

وفي غمرة الحزن على المصاب الجلل، يستسلم ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهريّ يوم بدر للعصبيّة الجاهليّة والانحياز للنّسب القرشيّ، فلا يرى بأسا من الاعتراف بالهزيمة إذا كانت على أيدي الأخيار من قريش محمّد صلى الله عليه وسلم وأصحابه أبي بكر وحمزة وعلي وعمر وعثمان وسعد بن أبي وقاص، وهذا ليسلب الأوس وبني النّجّار كلّ فضل في تحقيق هذا النّصر، ويحرمهم من كلّ فخر بين العرب، ويتوعّدهم بالنّار منهم وخدمهم لقتلاهم، وإبكاء نسائهم عليهم في أقرب فرصة، فالحرب سجال، يقول⁶:

عَجِبْتُ لِفَخْرِ الْأَوْسِ وَالْحَيْنِ دَائِرُ عَلَيْهِمْ غَدَاً وَالذَّهْرُ فِيهِ بَصَائِرُ⁷
 وَفَخْرُ بَنِي النَّجَّارِ إِنْ كَانَ مَعَشَرُ أُصِيبُوا يَبْدِرُ كُلُّهُمْ ثُمَّ صَائِرُ
 فَإِنْ تَكَّ قَتَلْتَنِي غُودِرْتُ مِنْ رَجَالِنَا فَإِنَّا رَجَالٌ بَعْدَهُمْ سَنَغَادِرُ
 وَتُرْدِي بِنَا الْجُرْدُ الْعَنَاجِيحُ وَسَطَكُمُ بَنِي الْأَوْسِ يَشْقِي النَّفْسَ تَائِرُ⁸
 وَوَسَطُ بَنِي النَّجَّارِ سَوْفَ نُكْرُهُمَا لَهَا بِالْقَنَّا وَالذَّارِعِينَ زَوَافِرُ⁹

1 - ديوان حسّان: ص 441-442.

2 - بكت عيناك: دعاء عليه - ويعلّ من العلل: وهو الشرب بعد الشرب، والمراد تتكرر - والغروب ههنا مجازي الدموع - وسجّام: سائل: يقال: سجم المطر والدمع إذا سالا.

3 - التتابع والتتابع بالباء والياء واحد، وبعضهم يجعل التتابع بالياء في الشعر لا غير.

4 - يولي معناه: يحلف.

5 - رجل كهام: لا غناء عنده، ويقال: سيف كهام أي كليل لا يقطع.

6 - السيرة النبوية 3: ص 14.

7 - الحين: الهلاك - بصائر: عبر.

8 - تردي: تسرع - والجرّد: الخيل العناق القصيرة الشعر - والعناجيج: الطوال السريعة.

9 - الزوافر: الحملات للثقل - القنا: الرماح - والذّارعين: اللابسين الترع.

فَنَتْرُكُ صَرَغَى تَعْصِبُ الطَّيْرُ حَوْلَهُمْ
وَتَبْكِيهِمْ مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ نِسْوَةٌ
فَإِنْ تَنْظَرُوا - فِي يَوْمٍ بَدْرٍ - فَإِنَّمَا
وَيَالِقِرَ الْأَخْيَارَ هُمْ أَوْلِيَاؤُهُ
يَعَدُّ أَبُو بَكْرٍ وَحَمْزَةُ فِيهِمْ
وَيُدْعَى أَبُو حَقِصٍ وَعُثْمَانُ مِنْهُمْ
أَوْلِيَاكَ لَا مَنْ نَتَجَتَ فِي دِيَارِهَا
وَلَكِنْ أَبَوْهُمْ مِنْ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ
هُمْ الطَّاعِنُونَ الْخَيْلَ فِي كُلِّ مَعْرَكٍ

وَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الْأَمَانِيُّ نَاصِرٌ¹
لَهُنَّ بِهَا لَيْلٌ عَنِ النَّوْمِ سَامِرٌ
يَأْخُذُ أَمْسَى جَدُّكُمْ وَهُوَ ظَاهِرٌ
يُحَامُونَ فِي اللَّأْوَاءِ وَالْمَوْتُ حَاضِرٌ²
وَيُدْعَى عَلِيٌّ وَسَطٌ مَنْ أَنْتَ ذَاكِرٌ
وَسَعْدٌ إِذَا كَانَ فِي الْحَرْبِ حَاضِرٌ
بَنُو الْأَوْسِ وَالنَّجَّارِ حِينَ تُفَاخِرُ³
إِذَا عُدَّتِ الْأَنْسَابُ كَعْبٌ وَعَامِرٌ⁴
غَدَاةَ الْمِيَاهِ الْأَطْيَبُونَ الْأَكَاثِرُ

فأجابه كعب بن مالك الأنصاري ناقضا تعجبه الجاهلي من صروف الدهر بتعجب
إيماني لقدرة الله تعالى على صرع الطغاة الذين حشدوا جموعهم يوم بدر لرسول الله صلى
الله عليه وسلم وأنصاره من الأوس وبني النجار - وللمهاجرين من أصحابه - ولكن
المؤمنين توكلوا على ربهم متيقنين من ظهور الحق على الباطل، واستبسلوا في القتال حتى
أطاحوا بأئمة الكفر أبي جهل عمرو بن هشام وعتبة وشيبة ابني ربيعة وعمير بن عثمان
التيمي وأمية بن خلف وغيرهم، فصاروا وقودا لنار جهنم يصلونها خالدين فيها أبدا، لا
يخفف عنهم العذاب، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم دعاهم للإيمان والنجاة، فأبوا إلا
الكفر والهلاك، متهمين إياه بالسحر؛ وما كان مستطيعا أن يهديهم وقد قدر الله جل شأنه لهم
أن يضلوا على عماهم وضلالهم حتى يهلكوا به، يقول كعب⁵:

عَجِبْتُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَاللَّهُ قَادِرٌ
قَضَى يَوْمَ بَدْرٍ أَنْ نُلَاقِي مَعَشَرًا
وَقَدْ حَشَدُوا وَأَسْتَفَرُّوا مِنْ يَلِيهِمْ
عَلَى مَا أَرَادَ، لَيْسَ لِلَّهِ قَاهِرٌ
بَعَاثُوا وَسَيَّلُوا الْبَغْيَ بِالنَّاسِ جَائِرٌ
مِنَ النَّاسِ حَتَّى جَمَعَهُمْ مُنْكَائِرٌ

1 - تعصب الطير حولهم: تجتمع عصائب.

2 - اللأواء: الشدة.

3 - نتجت: ولدت.

4 - كعب بن لؤي بن غالب بن فهر (فريش): أسماء أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم - وعامر بن لؤي ليس من أجداده.

5 - السيرة النبوية 3: ص 14-15.

وَسَارَتِ الْيَنَابِلَ لَا تُحَاوِلُ غَيْرَنَا
 وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ وَالْأَوْسُ حَوْلَهُ
 وَجَمْعُ بَنِي النَّجَّارِ تَحْتَ لُؤَائِهِ
 فَلَمَّا تَقِينَا هُمْ وَكُلُّ مُجَاهِدٍ
 شَهِدْنَا بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ
 فَكُتِبَ أَبُو جَهْلٍ صَرِيحًا لُؤَجْهِهِ
 وَشَيْبَةَ وَالتَّيْمِيَّ غَادِرْنَ فِي الْوَعْيِ
 فَأَمْسَوْا وَقُودَ النَّارِ فِي مُسْتَقَرِّهَا
 تَنَظَّى عَلَيْهِمْ وَهِيَ قَدْ شَبَّ حَمِيَّتُهَا
 وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ قَالَ أَقْبِلُوا
 لِأَمْرٍ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَهْلِكُوا بِهِ

يَأْجَمِعُهَا كَعَبٌ جَمِيعًا وَعَامِرُ
 لَهُ مَعْقِلٌ مِنْهُمْ عَزِيزٌ وَنَاصِرٌ¹
 يَمْتَنُّونَ فِي الْمَآذِيِّ وَالتَّقَعُ نَائِرٌ²
 لِأَصْحَابِهِ مُسْتَبْسِلُ النَّفْسِ صَائِرُ
 وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بِالْحَقِّ ظَاهِرُ
 وَعُثْبَةُ قَدْ غَادِرْتُهُ وَهُوَ عَائِرٌ³
 وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا يَذِي الْعَرْشِ كَافِرُ
 وَكُلُّ كَفُورٍ فِي جَهَنَّمَ صَائِرُ
 بَزِيرُ الْحَدِيدِ وَالْحِجَارَةُ سَاجِرٌ⁴
 قَوْلُوا وَقَالُوا: إِنَّمَا أَنْتَ سَاجِرُ
 وَلَيْسَ لِأَمْرٍ حَمَّةُ اللَّهِ زَاجِرٌ⁵

وتبدو هذه القصيدة متفينة بظلال من سورة الأنفال⁶، حيث تظهر روح الشاعر مشبعة بنور ربها، إذ يستعويض فيها عن المقدمة الطللية الجاهلية بمقدمة إيمانية إسلامية تشيد بقدره الله تعالى ومضاء قضائه متى أراد نصرة الحق على الباطل، والانتقام من الكافرين الذين أخذتهم العزة بالإثم، ففضلوا الضلال على الهدى، وما الهدى إلا بيد الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ مَخَاطَبًا رَسُولَهُ الْكَرِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ }⁷.

فهذه الهداية حُرْمَهَا رَجُلٌ عَالِمٌ بِالْأَدْيَانِ، وَدَاعِيَةٌ إِلَى الطُّهْرِ وَالتَّوْحِيدِ كَشَاعِرٍ تَقْيِيفِ أُمِّيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ الْمَتَوَقَّى سَنَةَ 624 هـ، الَّذِي ظَنَّ أَنَّ عِلْمَهُ وَتَعَبُّدَهُ سَيَكْفِيَانِ لَهُ التَّوْبَةَ، وَمَا دَرَى أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا قَدْ دَبَّرَ فِي غَيْبِهِ أَلَّا يَكُونَ النَّبِيُّ الْعَرَبِيُّ قَارِنًا وَلَا شَاعِرًا، لِذَلِكَ

1 - المعقل: الموضع الممتنع.
 2 - المآذِي: الدروع البيض اللثبية- التقع: الخبار.
 3 - العائِر: الساقط.
 4 - تنظى: تلتهب- وشب: أوقد- وزير الحديد: قطعه- وساجر: أوقد.
 5 - حمته الله: قدره.
 6 - النقل: الخنيفة لأنها من فضل الله تعالى وعطائه. وقد أنزلت سورة الأنفال في أهل بدر حين اختلافهم في النقل، فردّه الله تعالى إلى رسوله (ص)، فقسّمه على السواء (ينظر: تفسير الكشاف 2: ص 154).

7 - القصص: 56.

منعته عزّة المتبحّر في معرفة الأديان أن يتّبع نبياً أمياً، وسقط به حسده ومقتل ابني خاله عتبة وشيبة¹ إلى رثاء قتلى أعدائه في موقعة بدر ، وتحريض قريش على قتاله². فهو يدعو إلى التّوابع على هؤلاء السادة الشجعان الكرام الذين أوحشت بفقدهم مكّة، ويحثّ شبابها وكهولها، متزوّجياً وغير متزوّجياً، على صدام المسلمين بكثرة العدد والعدّة، لينازل كلّ بطل نظيره، ويأخذ بثأره منه، يقول³:

مَازَا بِيَّ ذُرِّيِّ فَالْعَقْبُ	قُلْ مِنْ مَرَاذِبِ أُمَّةٍ جَحَاحٍ ⁴
أَلَا بَكَيْتَ عَلَى الْكِرَامِ	مَ بَنِي الْكِرَامِ أُولِي الْمَمَادِحِ ⁵
كَبُكَا الْحَمَامِ عَلَى فُرُو	عِ الْأَيْكِ فِي الْعُصْنِ الْجَوَانِحِ ⁶
بِيكِيْنَ حَرَّى مُسْتَكِي	نَاتٍ يَرُحْنَ مَعَ الرِّوَائِحِ ⁷
أَلَا تَرَوْنَ لِمَا أَرَى	وَلَقَدْ أَبَانَ لِكُلِّ لَامِحِ
أَنْ قَدْ تَغَيَّرَ بَطْنُ مَكَّةَ	ةً فَهِيَ مُوحِشَةُ الْأَبَاطِحِ
وَلَقَدْ عَنَانِي صَوْتُ هُمْ	مَنْ بَيْنَ مُسْتَسْقٍ وَصَائِحِ ⁸
لِلَّهِ دَرُّ بَنِي عَلِيٍّ	أَيِّمٍ مِنْهُمْ وَنَاكِحِ ⁹
إِنْ لَمْ يُغَيِّرُوا غَارَةَ	شَعْوَاءَ تُجْحِرُ كُلَّ نَائِحِ ¹⁰
بِالْمُقَرَّبَاتِ الْمُبْعَدَاتِ	تِ، الطَّامِحَاتِ مَعَ الطَّوَامِحِ ¹¹
مُرْدًا عَلَى جُرْدِ الْإِي	أُسْدٍ مَكَالِيَةِ كَوَالِحِ ¹²
وَيُلَاقِي قِرْنَ قِرْنَيْهِ	مَنْشِي الْمُصَافِحِ لِلْمُصَافِحِ ¹³
بِزَهَاءِ أَلْفِ نَمِّ أَلْفِ	بَيْنَ ذِي بَدَنِ وَرَامِحِ ¹⁴

- 1 - ابنا خاله: عتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه رقية بنت عبد شمس، (ينظر: الشعر والشعراء: ص305).
- 2 - الأعلام الشنمري: أشعار الشعراء السنة الجاهليين، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، منشورات الأفاق الجديدة، بيروت (لبنان)، ط2، 1981، ج2، ص193-195.
- 3 - السيرة النبوية 3: 28-29.
- 4 - العقنقل: كتيب رمل بيدر - والمرازبة: الرّؤساء، جمع مرزبان - والججاجيح: السادة، جمع ججاج.
- 5 - الممادح: ما يستحسن من الأخلاق، ضد المقابح، وهي سيء الأخلاق.
- 6 - الأيك: الشجر الملتف واحده أيكه - والجوانح: جمع جاتحة، وهي المائلة.
- 7 - حرى: اللاتي تجدن من الحزن - ومستكيات: خاضعات.
- 8 - عناني: أحزني.
- 9 - الأيم: الذي لم يتزوج.
- 10 - تجحر: أي تلجئه إلى جحره.
- 11 - المقربات: الخيل التي تقرب من البيوت لكرمها - والمبعدات: التي تبعد في جريها - والطامحات: التي ترفع رؤوسها.
- 12 - الجرد: الخيل العناق - والمكالبية: هم الذين بهم شبه الكلب وهو المتعار، يعني حدثهم في الحرب - والكوالح: العوالب.
- 13 - القرن: الذي يقاوم في قتال وشدة.
- 14 - البدن: الدرع.

وهذا كعب بن الأشرف سليل شعب الله المختار يحسّ الأرض تميد تحت أقدام قومه من يهود، حين تصل البشارة إلى المدينة بقتل سادة قريش، فيخرج إلى مكة بعد أن سمع أنّ الحارث بن هشام يجمع الجموع للانتقام، وشرع يبكي أصحاب القليب ويُشيد بفضلهم في الناس، ويحرّض المشركين على مناجزة المسلمين بدافع الحسد للرّسول صلّى الله عليه وسلّم وبدافع الحفاظ على البقاء، يقول¹:

وَلِمِثْلِ بَدْرٍ لِمَهْلِكِ أَهْلِهِ
طَحَنَتْ رَحَى بَدْرٍ لِمَهْلِكِ أَهْلِهِ
لَا تَبْعُدُوا، إِنَّ الْمَأْوَكَ تُصْرَعُ³
قَنَلْتِ سَرَاةَ النَّاسِ حَوْلَ حِيَاضِهِمْ
ذِي بَهْجَةٍ يَأْوِي إِلَيْهِ الضَّيِّعُ⁴
كَمْ قَدْ أُصِيبَ بِهِ مِنْ أْبْيَضَ مَا جِدِ
حَمَّالُ أَثْقَالٍ يَسُودُ وَيَرْبَعُ⁵
طَلِقُ الْيَدَيْنِ إِذَا الْكَوَاكِبُ أَخْلَقَتْ
إِنَّ ابْنَ الْأَشْرَفِ ظَلَّ كَعْبًا يَجْزَعُ⁶
وَيَقُولُ أَقْوَامٌ أُسْرُ بِسُخْطِهِمْ
ظَلَّتْ تَسُوحُ يَأْهَلَهَا وَتَصَدَّعُ
فِي النَّاسِ يَبْنِي الصَّالِحَاتِ وَيَجْمَعُ⁷
يَحْمِي عَلَى الْحَسَبِ الْكَرِيمِ الْأَرْوَغُ⁸
صَدَقُوا فَانْتِ سَاعَةَ قُنُوتِ
لِيَزُورَ يَنْزَبَ بِالْجُمُوعِ وَإِنَّمَا
نُبِّئْتُ أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ هُمْ

ثم رجع كعب بن الأشرف إلى المدينة، فشَبَّبَ بنساء المسلمين حتى آذاهم، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتله، فقتل، ففرغت بنو النضير لقتل زعيمها، وبات كلّ يهودي بها يخشى على نفسه الغيلة⁹، وقد سجّل كعب بن مالك مصرعه وذلّ قومه، فقال¹⁰:

فَعُوِدِرَ مِنْهُمْ كَعْبٌ صَرِيحًا
فَذَانَتْ بَعْدَ مَصْرَعِهِ النَّضِيرُ

1 - المصدر السابق: ص 47-48.

2 - رحى الحرب: معظمها ومجتمع القتال- وتستهل: تسيل بالدموع.

3 - سراة الناس: ساداتهم وروساءهم.

4 - الضييع: الفقراء.

5 - طلق اليدين: كثير المعروف- وأخلفت: أي لم يكن معها مطر- ويربع: أي يأخذ الربيع، أي أنه كان رئيساً.

6 - كعب بن لؤي بن غالب بن فهر (قريش): هو جد بطون قريش، وهو أحد أجداد الرسول صلى الله عليه وسلم.

7 - الحارث بن هشام: هو الذي قرّ في معركة بدر.

8 - الأروع: الذي يروعك بحسنه وجماله.

9 - احتال على كعب بن الأشرف أبو نائلة سلكان بن سلامة أخوه من الرضاعة، فأخرجه من حصنه ليلاً، وقتله محمد بن مسلمة، وكلاهما من بني عبد الأشهل. (ينظر: المصدر السابق 3: ص 49-52).

10 - المصدر السابق: ص 52.

عَلَى الْكَفَّيْنِ تَمَّ وَقَدْ عَافَهُ
بِأَيْدِينَا مُشَهَّرَةً دُكُورًا¹
بِأَمْرِ مُحَمَّدٍ إِذْ دَسَّ لَيْلًا
إِلَى كَعْبٍ أَخَا كَعْبٍ يَسِيرًا
فَمَا كَرَهُ فَأَنْزَلَهُ يَمِيرًا
وَمَحْمُودًا أَخُو ثِقَاتٍ جَسُورًا

ثمّ التقى المسلمون في سبعمئة مجاهد بالمشركين في ثلاثة آلاف مقاتل يوم أحد في السنة الثالثة للهجرة، وعلى الرغم من ذلك كانت الغلبة لهم، لولا أنّهم طمعوا في جمع أسلاب أعدائهم، وتبعهم الرّماة الذين وضعهم الرسول صلى الله عليه وسلم على الجبل، فانهزم جيش المسلمين شرّ هزيمة، وكسرت رباعية النبي صلى الله عليه وسلم وشجّ حتى سال الدم على وجهه الكريم²، وقتل أسد الله حمزة رضي الله عنه على يد وحشي³ بأمر هند بنت عتبة التي بقرت بطنه عن كبده، فلاكتها، ثمّ لفظتها⁴، فحزن عليه الرسول صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا، وتوعّد بالتمثيل برجال قريش، لولا أن نزلت آيات من التّكر الحكيم، فعفا وصبر ونهى عن المثلة⁵ قال تعالى: { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ }⁶

وقد نظمت عدّة قصائد في رثاء أسد الله حمزة رضي الله عنه مواساة للرّسول صلى الله عليه وسلم وللمسلمين في مصابهم الجلل بفارسهم الرّحيم مع إخوانه، الشّديد مع أعداء الدّين، والذي رزأ هنداً في أبيها عتبة، وفقدت عمّها شيبية وأخاها الوليد في يوم بدر، فأولى لها أن تظلّ تبكيهم طوال الدّهر، ولا تفرح بقتله لأنّه يتنعم في الجنّة، وأهلها يعدّون في النّار؛ فعزّ الكافرين وانتصارهم في الدّنيا، ذلّ لهم وهزيمة في الآخرة. قال الشّاعر المجاهد عبد الله بن رواحة في رثاء حمزة رضي الله عنه:⁷

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا بُكَاهَا
وَمَا يُعْنِي الْبُكَاءُ وَلَا الْعَوِيلُ
عَلَى أَسَدِ اللَّهِ غَدَاةً قَالُوا
أَحْمَزَةٌ دَاكُمُ الرَّجُلُ الْقَتِيلُ

1 - مشهّرة ذكور: سيوف مسلولة من أعضائها، قوية قاطعة.

2 - المصدر السابق: ص 73.

3 وحشي: غلام جبير بن مطعم قتل بجريته حمزة رضي الله عنه، وقتل مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة (ينظر: المصدر السابق: ص 65-67).

4 المصدر السابق: ص 83-84.

5 الزّمخشري: تفسير الكتّاف، تحقيق محمد مرسي عامر، دار المصنّف، القاهرة (مصر)، ط 2، 1977، ج 3، ص 168.

6 النحل: 126-128.

7 السيرة النبويّة 3: ص 148-149.

أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعًا
أَبَا يَعْلَى لَكَ الْأَرْكَانُ هُدَّتْ
عَلَيْكَ سَلَامُ رَبِّكَ فِي جَنَانٍ
أَلَا يَا هِنْدُ قَابِكُنِي لَا تَمَّتْ
أَلَا يَا هِنْدُ لَا تُبَدِّئِي شَمَاتًا

هُنَاكَ وَقَدْ أُصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ
وَأَنْتَ الْمَاجِدُ الْبِرُّ الْوَصُولُ¹
مُخَالِطَهَا نَعِيمٌ لَا يَزُولُ
فَأَنْتِ الْوَالِيَةُ الْعَبْرَى الْهَبُولُ²
بِحَمْزَةٍ إِنَّ عَزَّكَمُ ذَلِيلُ

وشبيهه بهند المنتصرة المنهزمة في شماتها بقتل حمزة رضي الله عنه والمسلمين يوم أحد، الشاعر عبد الله بن الزبعرى الذي مسح دموع التلكى التي ذرفها على قتلى قريش يوم بدر، واستعاض عنها بدموع المشتاق الذي ولّى شبابه، وبعد عنه أحبته، لكن هيهات أن ترجع الدموع الغزار من قد ذهب! لذلك، فلا جدوى من البكاء، ففي انتقال أنباء النصر تحملها الركبان إلى كل مكان عزاء على كل فراق، وفخر وأيّ فخر! فقد سارت قريش في ثلاثة آلاف مقاتل يقودهم قائد يُضمر البغضاء والشرّ لأعدائه، ويؤدي الودّ والخير لأحبابه، وقد زرع الرعب في نفوس خصومه من الأوس وبني النجّار، فأيقنوا بالهلاك، وتمنّوا لو أنّ الأرض ابتلعتهم، ففقدوا صبرهم، واستولى عليهم الفزع، فكانوا فريسة سهلة لسيوف قريش البتّارة، ولقمة سائغة لضباع الفلاة وطيورها، ولم يسلم منهم إلا محمد صلى الله عليه وسلم حين أوى إلى أعلى الجبل، وبقي حمزة رضي الله عنه ضجيجا مضرّجا بدمائه؛ وهكذا كان يوم أحد ثارا مروّعا بما ارتوت فيه رماح الفرسان من دماء المسلمين، يقول ابن الزبعرى:³

أَلَا ذَرَفْتُ مِنْ مَقَلَّتَيْكَ دُمُوعًا
وَلَيْسَ لِمَا وُلِّيَ عَلَى ذِي حَرَارَةٍ
قَدْرُهُ ذَا وَكَيْنَ هَلْ أَتَى أُمَّ مَالِكٍ
عَشِيَّةَ سِرْنَا فِي آهَاءٍ يُقَوِّدُنَا

وَقَدْ بَانَ مِنْ حَبْلِ الشَّبَابِ فُطُوعٌ⁴
وَإِنْ طَالَ تَدْرَافُ الدُّمُوعِ رُجُوعٌ
أَحَادِيثُ قَوْمِي وَالْحَدِيثُ يَشِيْعُ
ضَرُورُ الْأَعَادِي لِلصَّدِيقِ نَفُوعٌ⁵

1- أبو يعلى: كنية حمزة رضي الله عنه- الوصول: الواصل أهله وإخوانه ببره وفضله.

2- الواله: الفاقد- والعبرى: الكثيرة الدمع- والهبول: الفاقدة.

3- المصدر السابق: ص 131.

4- ذرفت: سالت.

5- النهام: الجيش الكثير.

فَلَمَّا رَأَوْنَا خَالِطَهُمْ مَهَابَةً
وَوَثُوا لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ يَنْشَقُّ ظَهْرُهَا
فَعَادَرْنَ قَتْلَى الْأَوْسِ عَاصِيَةً بِهِمْ
وَجَمَعَ بَنِي النَّجَّارِ فِي كُلِّ تَلْعَةٍ
وَلَوْلَا عُلُوُّ الشَّعْبِ غَادَرْنَ أَحْمَدًا
كَمَا غَادَرَتْ فِي الْكُرِّ حَمْزَةَ ثَاوِيًا
يُأْخِذِي وَأَرْمَاحُ الْكَمَاةِ يَرِدُنَّهُمْ

وَعَايَنَهُمْ أَمْرٌ هُنَاكَ فَظِيغُ
بِهِمْ وَصَبُّورُ الْقَوْمِ تَمَّ جَزْوَعُ
ضِيَاغٌ وَطَيْرٌ يَعْتَفِينُ وَقُوعُ¹
بِأَبْدَانِهِمْ مِنْ وَقَعْنَهُنَّ تَجِيغُ²
وَلَكِنْ عَالًا وَالسَّمْهَرِيُّ شُرُوعُ³
وَفِي صَدْرِهِ مَاضِي الشَّبَابَةِ وَقِيغُ⁴
كَمَا غَالَ الْأَشْطَانُ الدَّلَاءُ لُزُوعُ⁵

وهكذا كانت لهجة الفخر عند شعراء قريش لهجة جاهليّة في مضامينها، تعتمد على إبراز القوة الماديّة بالعدد والعدّة وشدة البطش بالأعداء، وإطعام الوحش من ضحاياهم، والرفق بالأصدقاء ودفع الأذى عنهم. كما صور هؤلاء الشعراء حربهم الضروس وكأنها حرب ضدّ الأوس وبني النجّار لا ضدّ المسلمين جميعاً؛ فهي أيام جديدة بين القريتين مئة ويثرب، تضاف إلى أيام العرب في الجاهليّة. وكان على شعراء الدّعوة الإسلاميّة التّحويل على المضامين نفسها، والتّذكير بالوقائع والأيام لإفحام خصومهم، مع مزجها بمضامين جديدة إسلاميّة تتمثل في تثبيت الله تعالى ونصره لرسوله صلى الله عليه وسلّم وللمؤمنين، وفوز قتلاهم بالخلود في الجنة. فهذا حسّان بن ثابت الشّاعر المؤمن لا يبدي جزعه على ما أصاب المسلمين يوم أحد، فيبدو وانقاً من نفسه عند مناقضته قصيدة ابن الزّبير معنى بمعنى. فهو يسخر - بادئ ذي بدء - من مقدّمته الطلليّة الغزليّة التي تتنافى والموقعة الحربيّة التي تدعو إلى مزيد من التأمّل ومعاودة النّظر لاستخلاص الدّروس منها. فالأوس وبني النّجّار ما فزعوا ولا استكانوا، بل جالدوا أعداءهم، وآمنوا بالله تعالى، ونصروا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلّم حين كفر به قومه من قريش، وأنوه وخذلوه، فشثان بين الطّاعة والعصيان، وما أقسى ظلم الأقرباء! وأيّ فخر بالنّصر يجوز لقتل قوم إمامهم حمزة

¹يعتفين: يطلبن الرزق.

²التلاع: جمع تلعة، وهي مجرى الماء من أعلى الأرض إلى بطون الأودية. وهي أيضاً المرتفع من الأرض والمنخفض منها، فهي من الأضداد.

والتجيع: الذم.

³الشعب: الطريق في الجبل - والسّمهري: الرّماح - وشروع: مائلة للطعن.

⁴وشبابة كلّ شيء: حذّه - وقيع: محدّد.

⁵الكمّاة: الشّجعان - غال: أهلك - الأشطان: الحبال - الدّلاء: جمع دلو - التّزوع بضمّ النون: جذب الدلو وإخراجها من البئر، والتّزوع بفتحها: المستقى.

أسد الله استشهدوا كلهم في طاعة ربهم، فأعد لهم جنات خالدين فيها أبداً، ينتعمون بخيراتها، كما أعد لقتلى الكفار ناراً متأججة، يشربون فيها حميماً، ويطعمون ضريعاً لا يسمن ولا يغني من جوع، قال حسان:¹

أَشَافَكَ مِنْ أُمَّ الْوَلِيدِ رُبُوعٌ
قَلَمَ يَبْقُ إِلَّا مَوْقِدُ النَّارِ حَوْلَهُ
فَدَعِ ذِكْرَ دَارٍ بَدَدَتْ بَيْنَ أَهْلِهَا
وَقُلْ إِنْ يَكُنْ يَوْمَ يَأْخُذُ يَعْدُهُ
وَقَدْ ضَارَبَتْ فِيهِ بَنُو الْأَوْسِ كُلُّهُمْ
وَحَامَى بَنُو النَّجَّارِ فِيهِ وَضَارِبُوا
أَمَامَ رَسُولِ اللَّهِ لَا يَخْذُلُونَهُ
وَقُوا إِذْ كَفَرْتُمْ يَا سَخِينِ بِرَبِّكُمْ
فَإِنْ تَذَكَّرُوا قَتَلَى وَحَمْرَةٌ فِيهِمْ
فَإِنَّ حِجَانَ الْخُلْدِ مَنَزَلُهُ بِهَا
وَقَتْلَكُمْ فِي النَّارِ أَفْضَلُ رِزْقِهِمْ

بَلَاقِعُ مَا مِنْ أَهْلِهِنَّ جَمِيعٌ²
رَوَاكِدُ أُمَّتَالِ الْحَمَامِ وَقُوعٌ³
نَوَى فَرَقَتْ بَيْنَ الْجَمِيعِ قُطُوعٌ
سَفِيهَةٌ فَإِنَّ الْحَقَّ سَوْفَ يَشِيْعُ⁴
وَكَانَ لَهُمْ ذِكْرٌ هُنَاكَ رَفِيعٌ
وَمَا كَانَ مِنْهُمْ فِي اللَّقَاءِ جَزُوعٌ
لَهُمْ نَاصِرٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَشَفِيعٌ
وَلَا يَسْتَوِي عَبْدٌ عَصَا وَمُطِيعٌ⁵
قَتِيلٌ نَوَى لِلَّهِ وَهُوَ مُطِيعٌ
وَأَمْرٌ الَّذِي يَقْضِي الْأُمُورَ سَرِيعٌ
حَمِيمٌ مَعًا فِي جَوْفِهَا وَضَرِيعٌ⁶

هي ذي عقيدة المؤمن وأخلاقه عند الهزيمة، ثباتاً على الحق حين تزيغ الأبصار، وعزة يحار لها الكفار، سلاحه في ذلك قوله جل شأنه: {وَلَا تَهَيُّوْا وَلَا تَحْزَنْوْا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}.⁷

لكن المشركين وحلفاءهم بعد نصرهم في أحد - طمعوا في المسلمين حتى إن بني التضير حاولوا الغدر برسول الله صلى الله عليه وسلم لولا أن نجاه وحى من السماء، فأجلاهم عن المدينة،⁸ فازداد حقد اليهود عليه، وخوفهم على مقامهم في أرض العرب،

¹ ديبوان حسان: ص 313-315.

² ربوع: جمع ربع، محلة القوم ومنزلهم - بلاقع: جمع بلقع، ومنزل خال - وتقول: قوم جميع أي مجتمعون، يقول: ما أهلهم مجتمعون.

³ الرواكِد: الثرايت، يعني الأثافي.

⁴ يعده سفيه: أي يعتد به علينا.

⁵ ياسخينة: والسخينة طعام يتخذ من دقيق وتمر أو ماء يطبخ ثم يؤكل، أغلظ من الحساء وأرق من العصيدة؛ وكانت قريش تكثر من أكلها، فغيرت بها حتى سموها سخينة. وعبد عصا أي عصا ربه.

⁶ الحميم: الماء الحار - والضريع: نبات أخضر يرميه البحر، طعام أهل النار.

⁷ آل عمران: 139.

⁸ السيرة النبوية 3: ص 172-174.

فحزبوا الأحزاب من قريش وغطفان ضده. فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يدبر له، ضرب الخندق على المدينة برأي من سلمان الفارسي، حتى إذا أقبلت جموع المشركين في عشرة آلاف مقاتل، ورأوا الخندق، أسقط في أيديهم، لأنهم لا عهد لهم بهذا الضرب من القتال. ثم إن يهود بني قريظة نقضوا عهدهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فاشتد الحصار على المسلمين. فكانت غزوة الخندق سنة خمس للهجرة-امتحانا رهيبا لإيمانهم، وزلزلوا زلزالا شديدا، حتى فرج الله سبحانه وتعالى كربتهم بأن زرع الفرقة في صفوف المشركين، وبعث عليهم الريح في ليال شديدة البرد، فاقتلعت خيامهم وقلبت قدورهم¹. وقد صور القرآن الكريم ما نزل بالمؤمنين من بلاء وتمحيص لنفوسهم، ثم إنعام الله عليهم بأن فرج كربتهم، قال عزّ وعلا: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَّكَّرُوا نِعْمَةً أَللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا }².

فلما اطمان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجوع الأحزاب إلى بلادهم، غزا بني قريظة، وحاصرهم عدة ليال حتى استسلموا له، فردّ حكمهم إلى سيّد الأوس سعد بن معاذ، فحكم بقتل الرجال ونقسيم الأموال، وسبي الثراري والنساء، وهكذا كان حكم الله تعالى عليهم³. وبعد انقضاء شأن قريظة، انفجر بسعد بن معاذ جرحه، لسهم أصابه في غزوة الخندق، فمات شهيدا، وقد أخبر جبريل عليه السلام الرسول صلى الله عليه وسلم أن أبواب السماء قد فتحت له، واهتزّ له العرش⁴. وإن لم تكن نتيجة معركة الخندق لأحد الطرفين، فإن شعراء المشركين عدّوا حصار جيوش الأحزاب للمسلمين شهرا كاملا وراء خندقهم نصرا مؤزرا يدلّ على قوة موقفهم وصواب عقيدتهم الوثنيّة، وبخاصّة بعد أن استفسرت قريش ذلك النفر من اليهود الذين جاءوا مكة لدعوتها إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستئصاله، فقالت لهم: "يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأوّل والعلم

¹ المصدر السابق: ص 195-210.

² الأحزاب: 9.

³ المصدر السابق: ص 212-218.

⁴ المصدر السابق: ص 227.

بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق".¹

لذلك، لا نعجب حين نجد الشاعر ضرار بن الخطاب يتخلى عن الهجاء الجاهلي بالوقائع والأيام، وتوعد الأوس وبني النجار من دون المهاجرين، ويستبدل به هجاء عقيدياً ضد المسلمين جميعاً هذه المرة، فينعتهم بالغواية والخطيئة والسقفة، على الرغم مما يدعونه من الحلم والتقوى؛ فقد حاصرهم جيش كثيف مدجج بالأسلحة، فكأته جبل أحد كتم أنفاسهم شهراً كاملاً، صباح مساء، وفي كل يوم، ولم ينقذهم من التدمير إلا خندق احتموا وراءه مذعورين، فكانوا قريين بعيدين، وأمساوا قاب قوسين أو أدنى من الهلاك، لولا الريح التي اضطرت الجيوش المحاصرة إلى الرحيل. ولكن عزاء الشاعر الوحيد يكمن في سماعه نوح الثكالي من النساء على مقتل سعد بن معاذ رضي الله عنه، وأمله أن يجتمع العرب الأشاوس من كنانة في أقرب فرصة لاقتحام المدينة على من فيها، يقول ضرار:²

ومشققية تظن بنا الظنوننا	وقد قُذنا عرندسة طحوننا ³
كان زهاءها أهد إذا ما	بدت أركائه للناظريننا ⁴
ترى الأبدان فيها مسبغات	على الأبطال واليلب الحصيننا ⁵
وجرداً كالقذاح مسومات	نومُ بها العواة الخاطيننا ⁶
كأنهم إذا صالوا وصلنا	يباب الخندقين مصافحوننا ⁷
أناس لا نرى فيهم رشيداً	وقد قالوا آسننا راشديننا
فأحجرتناهم شهراً كريتنا	وكنا فوقهم كالفاهريننا ⁸
نراوحوهم ونغدو كل يوم	عليهم في السلاح مدججيننا ⁹
قلولاً خندق كائنا والديه	لدمرنا عليناهم أجمعيننا

¹ المصدر السابق: ص 195.

² المصدر السابق: ص 230-231.

³ العرندسة: الشديدة القوة، يريد كتيبة. والطحون: التي تطحن كل ما مرت به.

⁴ زهاؤها: تقدير عددها.

⁵ الأبدان: الدروع- ومسبغات: كاملة- واليلب: الترسة أو الدرق.

⁶ الجرد: الخيل العتاق- القذاح: السهام- المسومات: المرسلات- نوم: نقصد.

⁷ المصافحة: أخذ الرجل بيد الرجل عند السلام، والمراد أنهم كانوا قريين بعضهم من بعض.

⁸ أحجرتناهم: حصرناهم- شهراً كريتنا: تاماً كاملاً.

⁹ المدجج: الكامل السلاح.

وَأَكُنْ حَالٌ دُونَهُمْ وَكَائُوا
فَإِنْ نَرَحَلَ فَإِنَّا قَدْ تَرَكْنَا
إِذَا جَنَّ الظَّالِمُ سَمِعْتُ نَوْحِي
وَسَوْفَ نَزُورُكُمْ عَمَّا قَرِيبٍ
بِجَمْعٍ مِنْ كِنَانَةٍ غَيْرِ عَزْلٍ
بِهِ مِنْ حَوْفِنَا مُتَعَوِّدِينَ
لَدَى أَيْيَاتِكُمْ سَعْدًا رَهِينًا
عَلَى سَعْدٍ يُرْجَعُ مِنَ الْحَرِينَا¹
كَمَا زُرْنَاكُمْ مُتَوَازِرِينَ²
كَأَسَدِ الْغَابِ قَدْ حَمَتِ الْعَرِينَا³

فأجابه كعب بن مالك ناقضا افتراءاته على المسلمين، مفندا ادعاءاته بالقوة والسطوة، مشيدا بصبر المؤمنين الملتقين حول النبي صلى الله عليه وسلم، لأنذين بعون الواحد القهار في جهاد الظالمين الرافضين للهدى والرشاد. فقد كان المسلمون في ثلاثة آلاف كالأسود الضارية في كامل عدتهم، يقتلون كل من سولت له نفسه اجتياز الخندق، وهم صادقو العزم في نصره الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم حتى لا يُعبد غيره في الأرض. ولتتأكد الأحزاب أن الله وحده لا شريك له قادر على نصرته عباده الأحياء، وإحياء أمواتهم الشهداء أمثال سعد بن معاذ رضي الله عنه في جنات النعيم، وعلى رد أعدائهم مخذولين مشتتين منهزمين بريح عاصفة، كادت تدمرهم تدمير الأمم العاتية الغابرة، قال كعب:⁴

وَسَائِلَةٌ نُسَائِلٌ مَا تَقِينَا
صَبْرُنَا لَا نَرَى لِلَّهِ عَدْلًا
وَكَانَ لَنَا النَّبِيُّ وَزِيرَ صِدْقٍ
نُقَاتِلُ مَعْتَرًا ظَلَمُوا وَعَقُّوا
نُعَاجِلُ هُمْ إِذَا نَهَضُوا إِلَيْنَا
تَرَانَا فِي فِضَافِضٍ سَابِغَاتٍ
بِيَابِ الْخَنْدَقِينَ كَأَنَّ أَسَدًا
وَأَوْ شَهِدَتْ رَأَيْتُنَا صَابِرِينَ
عَلَى مَا نَابَنَا مُتَوَكِّلِينَ
بِهِ نَعْلُو الْبَرِّيَّةَ أَجْمَعِينَ
وَكَأَنَّوَا بِالْعَدَاوَةِ مُرْصِدِينَ⁵
بِضَرْبٍ يُعَجِّلُ الْمُتَسَرِّعِينَ
كَعُدْرَانِ الْمَلَأِ مُتَسَرِّبِينَ⁶
شَوَائِبِكُمْ مِنْ يَحْمِيدِ الْعَرِينَا⁷

¹ التوحى: جماعة النساء اللاتي يحنن.

² متوازيين: متعاونين.

³ كنانة: أحد أجداد قريش - العزل: الذين لا سلاح لهم - الغابة: هي الأجمة - العرين: موضع الأسد.

⁴ المصدر السابق: ص 231-232.

⁵ المرصد: المعه للأمر عكته.

⁶ الفضفاض: الذروع المتسعة - سابغات: كاملة - الملا: المتسع من الأرض - المتسربلون: لابسو الذروع.

⁷ الشوايبك: التي يتشبهت بها فلا يقلت.

فَوَارِسُنَا إِذَا بَكَرُوا وَرَأَحُوا
لِنَنْصُرَ أَحْمَدًا وَاللَّهِ حَتَّى
وَيَعْلَمُ أَهْلُ مَكَّةَ حِينَ سَارُوا
يَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ
فَأَمَّا تَقْنَا وَاسْعَدَا سِفَاهَا
سَيَدْخُلُهُ جِنَانًا طَيِّبَاتٍ
كَمَا قَدْ رَدَّكُمْ قَلًّا شَرِيَدًا
خَزَائِمًا لَمْ تَنَالُوا تَمَّ خَيْرًا
بِرِيحٍ عَاصِفٍ هَبَّتْ عَلَيْكُمْ

عَلَى الْأَعْدَاءِ شَوْسًا مُعْلَمِينَ¹
تَكُونُ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَ
وَأَحْزَابِ أُنُورًا مُتَّخِزِينَ
وَأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ
فَإِنَّ اللَّهَ خَيْرُ الْقَادِرِينَ
تَكُونُ مَقَامَةً لِلصَّالِحِينَ
يَغِيظُكُمْ خَزَائِمًا خَائِبِينَ²
وَكِدْتُمْ أَنْ تَكُونُوا دَامِرِينَ³
فَكُنْتُمْ تَحْتَهَا مُكْمَلِينَ⁴

ولعلّ في تلك الرّيح العاصفة التي هدمت خيام قريش وحلفائها، وأطّأت نيرانهم، دلالة على ذهاب أمرها وخور قوتّها، وتحول المبادرة إلى معسكر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم يغزوها في عقر دارها ولا تغزوه⁵. وبدأت بشائر هذا التحول الإيجابي في مسار الدّعوة الإسلاميّة، بدعم صفوف المسلمين بإسلام رجلين من أشرف قريش ذوي رأي وحكمة وسيف بئار، هما خالد بن الوليد وعمرو بن العاص⁶. أمّا البشارة الأخرى فهي خروج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومعه سبعمائة من أصحابه معتمرا لا محاربا في ذي القعدة من سنة ست للهجرة، وساق معه الهدى، وأحرم بالعمرة لتعلم قريش أنّه أتى زائرا بيت الله الحرام، ومعظما له، ولكنها كرهت منه ذلك، وعدّته تحديا لها، وقد طال التفاوض بينهما حتى أفضوا إلى عقد صلح الحديبية⁷: على أن يأمن النّاس من الحرب عشر سنين، وأن يرجع الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ذلك العام، ويعود في العام المقبل، فتخرج قريش من مكّة، ويقيم بها ثلاثا هو وأصحابه⁸.

¹ الشّوس: جمع أشوس، وهو الذي ينظر نظر المتكبر بموخر عينه- والمعلم:- بفتح اللام وكسرها- الذي أعلم نفسه بعلامة الحرب ليشتهر بها.

² الفلّ: القوم المنهزمون- الشّريد: الطريد.

³ دامرين: هالكين.

⁴ العاصف: الرّيح الشّديدة- المتكمه: الأعمى الذي لا يبصر.

⁵ المصدر السابق: ص 230.

⁶ المصدر السابق: ص 252.

⁷ الحديبية: قرية متوسطة، سميت ببئر هناك عند مسجد الشجرة التي بويع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تحتها بيعة الرضوان، بينها وبين مكّة مرحلة، وبينها وبين المدينة تسع مراحل. (ينظر: المصدر السابق: ص 282).

⁸ المصدر السابق: ص 292.

ثم انصرف الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وفيما هو بين مكة والمدينة، نزلت سورة الفتح، يبشّره الله تعالى فيها بالفتح المبين: { إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيمًا }¹.

وفي ظلال صلح الحديبية، جادت قريحة الشاعر حسّان بن ثابت بقصيدة تنبأ فيها بفتح مكة، ومطلعها:²

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجِوَاءُ إِلَى عَدْرَاءَ مَنَزَلُهَا خَلَاءُ³
وبعد مقدّمة طلليّة غزليّة على عادة شعراء الجاهليّة، شرع حسّان في وصف خيل المسلمين بشوقها إلى مصادمة مشركي قريش، وتعطّش رماحهم إلى دمائهم، حتّى إنّ فرسانهم جنبوا وانسحبوا من المعركة، ولم تبق إلا نساؤهم تردّ وجوه الخيل بخرهنّ، فكان أمام قريش خياران أحلاهما مرّ: فإن آثرت السّلام، أدّى المسلمون عمرتهم، وانكشف الغيب عن وعد الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بفتح مكة، وإلا فهي الحرب يعزّ فيها الله عزّ وجلّ جنده ودينه الذي نزل به روح القدس جبريل عليه السّلام من السّماء إلى الأرض، على المصطفى صلى الله عليه وسلم الذي لم يخش في تبليغ الحقّ لومة لائم، ولكنّ قومه الأقربين في مكة كذبوه، وخذلوه، وطردوه، فيسرّ الله تعالى له من المدينة جندا صدّقوه، وآووه، ونصروه، فسمّوا الأنصار؛ وصار ديدنهم مع قريش في كلّ يوم: سباب، أو قتال، أو هجاء، وفي كلّ حال كانت لهم الغلبة عليها. فشعراء الأنصار: حسّان وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، كانوا أفذع هجاء، وفرسانهم كانوا أقدر على الجلاد، يُذلون بسيوفهم البتّارة أمثال أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الجبان الرّعيد، وبني عبد الدّار الذين ضيّعوا اللّواء في بدر ثمّ في أحد، حتّى صار إلى عبد لهم، فقتل وهو في يده. فكيف يجوز -بعد كلّ هذا- أن يتناول أبو سفيان بن الحارث على

¹ الفتح: 1-3.

² ديوان حسّان: ص 57.

³ عفت: درست. ذات الأصابع والجواء: موضعان بالثّمام بأكناف دمشق، وعذراء: موضع على بريد من دمشق؛ وكانت بهذه المواضع منازل بني جفنة ملوك غسّان الذين كان يقصدهم حسّان مادحا في الجاهليّة.

محمد صلى الله عليه وسلم المبارك، الخير، الأمين، الوفي، فيهبوه وهو دونه؟ بل شره
فداء لخيره صلى الله عليه وسلم، وهجاؤكم ومدحكم ونصركم له-اليوم- سواء، بعد
أن ضعفتم وذهبت ريحكم. فقد تواسجت أواصر النسب والقرابة بين الرسول صلى الله
عليه وسلم وحسان رضي الله عنه، حتى لكأما عرضهما واحد، لذا وقف لسانه القاطع
وشعره البارع لصيانة عرضه الشريف، لا يبغي من ذلك سوى ثواب الله ومغفرته، يقول: ¹
عَدِمْنَا خِيَانًا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا نُثِيرُ النَّعْمَ مَوْعِدَهَا كَدَاءً ²
يُبَارِينِ الْأَسِيَّةَ مُصْعِدَاتٍ عَلَى أَكْتَفَيْهَا الْأَسْلُ الْظَّمَاءُ ³
تَظَلُّ حِيَادُنَا مُتَمَطَّرَاتٍ تَلْطَمُنَّ هُنَّ بِالْخُمْرِ النَّسَاءُ ⁴
فِيمَا تُعْرَضُوا عَنَّا أَعْتَمَرْنَا وَكَانَ الْفَتْحُ وَأُكْشِفَ الْغَطَاءُ ⁵
وإِلَّا فَأَصْبِرُوا لِجِلَادِ يَوْمِ يُعِزُّ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ ⁶
وَجَبْرِيلَ رَسُولِ اللَّهِ فِينَا وَرُوحَ الْقُدُسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ ⁷
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبَدًا يَقُولُ الْحَقَّ إِنْ نَفَعَ الْبَلَاءُ ⁸
شَهِدْتُ بِهِ فِقُومُوا صِدْقُوهُ فَقَالُوا لَا نَفُومٌ وَلَا نَشَاءُ ⁹
وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا هُمُ الْأَنْصَارُ عَرْضُهَا الْقَاءُ ¹⁰
كُنَّا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ سِيَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءُ ¹¹
فَنَحَكُمُ بِالْقَوَافِي مِنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَخْتَلِطُ الدَّمَاءُ ¹²
أَلَا أُبْلِغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي فَأَنْتَ مَجُوفٌ نَخِبٌ هَوَاءُ ¹³

المصدر السابق: ص 60-66.

² النعنع: الغبار - كداء: التثية العليا بمكة مما يلي المقابر، وهو المعلى، وباب من ابوابها. وقد دخلها المسلمون بعد ذلك يوم الفتح منه.
³ يبارين الأعتة: أي أنها تجاري الأعتة في اللين وسرعة الانقياد - مصعدات: أي ذاهبات صعودا - الأسل الظماء: الرماح الستمر أو الرماح المتعطشة
إلى التماء.

⁴ متمطرات: تعدو بشدة يسبق بعضها بعضا - والخمر: جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها - وتلطمن بالخمر النساء أي يضربن خدود الخيل
بخمرهن لتردها، وهو كناية عن ضعف أهل مكة.

⁵ اعتمرنا: أي أتينا العمرة - وانكشف الغطاء عما وعد الله به نبيه صلى الله عليه وسلم من فتح مكة في غير وقت الحج، إذ دخلها في رمضان سنة
ثمان للهجرة.

⁶ الجلاد: التضارب بالسيف في القتال.

⁷ روح القدس هو جبريل عليه السلام، لأن القدس الطهارة، وهو من الطهارة خلق - وليس له كفاء أي ليس له نظير.

⁸ عبدا يعني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والبلاء الامتحان والاختبار يكون في الخير وفي الشر.

⁹ شهدت به: آمنت وصدقت.

¹⁰ الأنصار هم أنصار النبي صلى الله عليه وسلم - العرضة: الهمة، وهي عرضة له أي قوي عليه.

¹¹ لنا يعني معشر الأنصار - وقوله: من معد يريد قريشا لأنهم عدائون.

¹² فمن هجانا منهم رجعناه ومنعناه من أن يعود بقوافينا اللذاعة المفحمة، ومن صمد لقتالنا ضربناه وعصفنا به.

¹³ مجوف نخب هواء كلها بمعنى جبان لا قلب له، ونخب مزروع القلب هو هواء: خالي الجوف

بَانَ سَيُوقِنَا تَرَكَكَ عَبْدًا
هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتُ لِيَهُ يَكْفَاءُ
هَجَوْتَ مُبَارَكًا بَرًّا حَنِيفًا
فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ
فإِنَّ أَبِي وَأَوَالِدَهُ وَعَرَضِي
لِسَانِي صَارَ لِي عَيْبًا فِيهِ
وَعَبْدَ الدَّارِ سَادَتْهَا الْإِمَاءُ¹
وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْجَزَاءُ²
فَشَرُّكُمْ مَا لِي خَيْرُكُمْ الْفِدَاءُ³
أَمِينُ اللَّهِ شَيْمَةُ الْوَقَاءُ⁴
وَيَمْدَحُهُ وَيُنْصُرُهُ سَوَاءُ
لِعَرَضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءُ⁵
وَبَحْرِي لَا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ⁶

إذن، بدأ صوت الشعاع المؤمن يعلو، وصوت الشاعر المشرك يخفت، وأخذت شوكة المؤمنين تقوى وتشتد، فقد استغلّ الرسول صلى الله عليه وسلم الهدنة بينه وبين قريش وفتح حصون خيبر⁷، وصادف هذا الفتح المبين قدوم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة من المهاجرين إلى الحبشة، فسُرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا التوفيق من الخالق عز وجل⁸. ثم مكث الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة أشهرًا، حتى إذا حلّ شهر ذي القعدة من سنة سبع للهجرة، خرج هو وأصحابه معتمرا عمرة القضاء أو عمرة القصاص، لأنه اقتصر من قريش، إذ صدّته عن البيت في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ست للهجرة⁹، فدخل مكة، وأدى العمرة على مرأى من أهلها، وأقام بها ثلاثًا، ثم قفل راجعا إلى المدينة في ذي الحجة.

1 - عبدا: ذليلا- وعبد الدار بطن من بيطون قريش، وهو عبد الدار بن قصي بن عبد مناف، وبنو عبد الدار هم سنة البيت وأصحاب الألوية، وكانوا قد تناوبوا حمل اللواء يوم أحد حتى صار إلى عبد لهم اسمه صواب (بالضم)، فقتل وهو في يده.
2 - الجزاء: المكافأة على الشيء إن خيرا وإن شرا، يروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم حين سمع منه ذلك قال: جزاؤك على الله الجنة يا حستان.
3 - فشرُّكم ما لي خَيْرُكُمْ الْفِدَاءُ، جار على أسلوب الكلام المنصف، كقول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق مني ومنك، وإن ألدنا لكاذب.
4 - الحنف في الأصل الميل من قولهم رجل أحنف ورجل حنفاء، وهو الذي تميل قدماه كل واحدة إلى أختها بأصابعها، ورجل حنيف من هذا فهو الذي يتحقت عن الباطل أي يميل إلى الحق ويدين به.
5 - العرض: المراد به هنا نفسه- الوقاء والوقاية كل ما وقيت به شيئا، فحفظته وصننته وحميته.
6 - شبهه لسانه بالسيف القاطع يقطع السنة الأعداء- وشبهه شعره بالبحر الصافي البعيد الغور الغزير الماء- والدلاء: التي يستقي به، وواحداه دلو، أي لا ينال من شعره نقد نافذ ولا طعن معاند.
7 - السيرة النبوية 3: ص303 وما بعدها.
8 - المصدر نفسه: ص332.
9 - المصدر السابق 4: ص5.

وفي جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً من ثلاثة آلاف مجاهد لجسّ نبض الروم، وإعلامهم بظهور أمر الإسلام الذي سيزاحم النصرانية في الشام، فخرج لهم هرقل في مائة ألف من الروم ومائة ألف من العرب، والنقى الجمعان في مؤتة¹، فشجّع الناس عبد الله بن رواحة قائلاً: يا قوم، والله إن التي تكرهون لآتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوّة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحسينين: إمّا ظهور وإمّا شهادة²؛ فكأنما سنّ الشاعر المجاهد؛ بهذه الكلمات البليغة في تلك اللحظة الحرجة، ناموساً جهادياً اعتنقه المجاهدون الفاتحون بعده. وقد تشجّع المسلمون، فقاتل القائد الأوّل زيد بن حارثة رضي الله عنه براية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استشهد، فأخذها القائد الثاني جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقاتل حتى قطعت يمينه ثمّ شماله، فاحتضنها بعضديه حتى استشهد. فإذا جاء دور القائد الثالث عبد الله بن رواحة رضي الله عنه تقدّم بالرّاية، فطفت نفسه تضادّه، وتثنيه عمّا هو مُقِيم عليه، فأخذ يعنقها ويؤثبها على ترددها وزهداها في الجنّة وقت الهول والحرب، بعد أن كانت تحلم بها وقت الأمن والسلام؛ فما لها ترغب عن الشرب من الكأس التي شربت منها نفسا الشهيدين العظيمين زيد وجعفر رضي الله عنهما؟ إنّها أحقر من أن تضنّ بما جاد به المجاهدون المسلمون، فلا خيار لها عن النزال راغبة أو راغمة، يقول: ³

أَفَسَمْتُ يَا نَفْسُ أَنْتِ زِلِيَّةٌ	لَتَنْزِلَنَّ أَوْ لَتُكْرَهَنَّ رَهِيَّةٌ
إِنْ أَجَلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرِّتَّةَ	مَا لِي أَرَاكَ تَكْرَهِيْنَ الْجَنَّةَ ⁴
قَدْ طَالَ مَا قَدْ كُنْتَ مُطْمَئِنَّةً	هَلْ أَنْتِ إِلَّا نُطْفَةٌ فِي شَنَّةٍ ⁵

فإذا انقادت له نفسه ساقها إلى الشهادة، ما دام الموت مصيرها، فلنُبَادِرَ إلى انتهاز الفرصة وتحقيق الأمنية، ولنَهْتَدِ إلى الفوز كما اهتدت له نفسا القائدين الشهيدين،

1 - مؤتة: قرية قريبة من الكرك، وهي مشارف الشام.

2 - المصدر السابق: ص 11.

3 - المصدر السابق: ص 15.

4 - أجلب القوم: صاحوا واجتمعوا - الرتة: صوت ترجيع شبه البكاء.

5 - النطفة: الماء القليل الصافي - الشنتة: السقاء البالي، أي فيوشك أن تهرق النطفة أو ينحرق السقاء، ضرب ذلك مثلاً لنفسه في جسده.

قال الشاعر المجاهد:¹

يا نَفْسُ إِلَّا تَقَاتِلِي تَمُوتِي
وما تَمَنَيْتِ فَقَدْ أُعْطِيتِ
هذا حِمَامُ الْمَوْتِ قَدْ صُلِيَتْ
إِنْ تَقَعَلِي فِعْلَهُمَا هُدَيْتِ

ثم استشهد عبدُ الله بن راحة رضي الله عنه ، فاختر المسلمون خالد بن الوليد رضي الله عنه قائداً، فأثر توفير دمائهم، فاستطاع -بعبريته الحربيّة- أن ينسحب بهم إلى المدينة، واستقبلهم النَّاسُ يَحْتَوْنَ عليهم التراب، ويقولون: " يا فرّار، فررتم في سبيل الله! فيقول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ليسوا بالفرّار، ولكنهم الكُرّار إن شاء الله تعالى".² وقد حزن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمقتل حبيّه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه حزناً شديداً، فواساه والمسلمين في شهادتهم شاعرُه حسانُ رضي الله عنه بمرثية متفجّعة هيّجت ذكرياته الحزينة لأحبته، وأسالت دموعه غزارا على مقتل خيار المؤمنين الذين صاروا إلى جنّات النّعيم، يقودهم المبارك المظفر زيد بن حارثة الذي تربّى في حجر النّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعبد الله بن راحة شاعر الدّعوة الذي شهد المشاهد كلّها بسيفه وبشعره، وذو الجناحين جعفر بن أبي طالب الوفيّ الحازم من خيرة بني هاشم ذروة الإسلام وأولياء الله تعالى، ووعاء الكتاب المقدّس، قال حسان:³

تَأَوَّبَنِي لَيْلٌ يَبْتَرِبُ أَعْسَرُ
لِذَكَرِي حَبِيبٍ هَيَّجَتْ تَمَّ عَبْرَةٌ
وَهُمْ إِذَا مَا نَوَّمَ النَّاسُ مُنْهَرٌ⁴
بَلَاءٌ وَفَقْدَانُ الْحَبِيبِ بَلِيَّةٌ
سَفُوحًا وَأَسْبَابُ الْبُكَاءِ التَّذْكَرُ⁵
وَكَمْ مِنْ كَرِيمٍ يُبْتَلَى ثُمَّ يَصْبِرُ
رَأَيْتُ خِيَارَ الْمُؤْمِنِينَ تَوَارَدُوا
شَعُوبٌ وَقَدْ خَلَقْتُ فِيمَنْ يُؤَخَّرُ⁶
فَلَا يُبْعَدَنَّ اللهُ قَتْلِي تَتَابَعُوا
بِمُؤْتَةٍ مِنْهُمْ ذُو الْجَنَاحِينَ جَعْفَرُ⁷
جَمِيعًا وَأَسْبَابُ الْمَنِيَّةِ تَخْطُرُ⁸
وَزَيْدٌ وَعَبْدُ اللهِ حِينَ تَتَابَعُوا

¹ المصدر السابق: ص 15.

² المصدر السابق: ص 19.

³ ديوان حسان: ص 235-237.

⁴ تأوَّبني: عاودني ورجع إليّ - أعسر أي عسير - مسهر: مانع من النوم.

⁵ هيّجت: أي الذّكرى - ثمّ: هناك - العبيرة: الذمعة - السّفوح: المتائلة المنهرة.

⁶ شعوب: من أسماء المنية، من قولهم شعبت الشيء إذا فرقته.

⁷ ذو الجناحين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أثابه الله تعالى بيديه جناحين في الجّنة يطير بهما حيث شاء. (ينظر: السيرة النبوية 4: ص 15).

⁸ أسباب المنية تخطر: يقال خطر في مشيئة إذا تبختر فيها وتحرك واهتزّ.

غَدَاةً غَدَوْا بِالْمُؤْمِنِينَ يَوْمَهُمْ
فَصَارَ مَعَ الْمُسْتَشْهِدِينَ تَوَابُهُ
وَكُنَّا نَرَى فِي جَعْفَرٍ مِنْ مُحَمَّدٍ
فَمَا زَالَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
هُمُ جَبَلُ الْإِسْلَامِ وَالنَّاسُ حَوْلَهُ
هُمُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ أَنْزَلَ حُكْمَهُ
إِلَى الْمَوْتِ مَيْمُونُ النَّقِيبَةِ أَنْزَهَرُ¹
جِنَانٌ وَمُلْتَقَى الْحَدِيقَةِ أَخْضَرُ
وَفَاءٌ وَأَمْرًا حَازِمًا حِينَ يَأْمُرُ
دَعَائِمُ عِزٌّ لَا تُرَامُ وَمُخَرُّ
رِضَامٌ إِلَى طُودٍ يَرُوقُ وَيَقْهَرُ²
عَلَيْهِمْ وَفِيهِمْ ذَا الْكِتَابِ الْمُطَهَّرُ

ثم حدث أن نقضت قريش ما كان بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من العهد والميثاق بما استحلت هي وبنو بكر بن عبد مناة بن كنانة من دماء خزاعة التي دخلت في عقده وعهده في صلح الحديبية³، ولم ينفع أبا سفيان بن حرب اعتذاره عما حدث، بل زحف الرسول صلى الله عليه وسلم في عشرة آلاف مجاهد على مكة في العاشر من رمضان سنة ثمان للهجرة، وفي طريقه لقيه الشاعر أبو سفيان بن الحارث ابن عمه وأخوه من الرضاة، فأسلم واعتذر إليه عما مضى من محاربتة وهجائه له، وعبر عن ندمه على طول عمالته وانغماسه في ظلمات الضلال، واعترف بفضل محمد صلى الله عليه وسلم عليه، إذ لم يسأم من دعوته مرارا إلى طريق الهدى ودين الحق، يقول:⁴

لَعَمْرُكَ إِنِّي يَوْمَ أَحْمَلُ رَايَةَ
كَأَلْمُدْلِجِ الْخَيْرَانِ أَظْلَمَ لَيْلِي
هَدَانِي هَادٍ غَيْرُ نَفْسِي وَنَالَنِي
أَصْدُ وَأَتَى جَاهِدًا عَنْ مُحَمَّدٍ
لِنَعْلَبِ خَيْلَ اللَّاتِ خَيْلَ مُحَمَّدٍ⁵
فهذا أوانِي حين أهدي وأهتدي⁶
مع الله من طردت كل مطرد
وأدعى وإن لم أنسب من محمد

وواصل الرسول صلى الله عليه وسلم سيره إلى مكة، ودخلها فاتحا بدون قتال، فأمن أهلها، وحطم الأصنام التي كانت في الكعبة، وجاءه الشاعر عبد الله بن الزبير السهمي مسلما معتذرا، نادما على ضلاله وعلى مجاراته الشيطان في حرب دعوة الإسلام، وإيراد

¹ ميمون النقيبية: مبارك النفس مظفر بما يحاول - رجل أزهري: أبيض مشرق الوجه.
² الرضام: صخور عظام يرضم بعضها فوق بعض، الواحدة رضمة - يروق: يعجب - الطود: الجبل.
³ المصدر السابق: ص 30 وما بعدها.
⁴ المصدر السابق: ص 36.
⁵ اللات: اسم صنم من أصنام قريش.
⁶ المدلج: الذي يسير ليلا.

نفسه موارد الهلاك، ثم واعدنا إياه بأن يبدأ حياة جديدة في ظلّ الإيمان، فيصلح في إسلامه ما أفسد في كفره، ويجبر ما انكسر، ويرتق ما انفتق في سالف الأيام، بدءا بتسليمه المطلق - وبكلّ جوارحه - بأن الله عزّ وجلّ هو ربّ السمّوات والأرض، وأنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم هو النّذير البشير للنّاس كافّة، يقول: ¹

يا رسولَ المليكِ إنَّ لِساني رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ²
 إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ العَيِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلُهُ مُبْـُورٌ³
 آمَنَ اللّٰحْمُ والعِظَامُ لِربِّي ثُمَّ قَلْبِي الشَّهيدُ أَنْتَ النّذيرُ⁴

ولما استتب الأمر في مكّة، خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في غزوات ثلاث أخيرة إلى حنين⁴، فالطائف⁵، ثمّ تبوك⁶، وبعدها استقرّ في المدينة، فطفقت العرب أفرادا وقبائل تأتيه مسلمة خاضعة من كلّ أطراف شبه الجزيرة سنة تسع للهجرة، حتى سمّيت سنة الوفود. ومن هؤلاء الأفراد الثّائبين المسلمين الشّاعر كعب بن زهير بن أبي سلمى الذي أنكر دعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم طويلا، بل أرسل إلى أخيه الشّاعر بجير يثنيه عن الإسلام، زاعما أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم غرر به وأضله عن طريق الهدى، حين أخرجته من دين الآباء والأجداد، فإن لم يثب إلى رشده، ولم يعد إلى أخلاق أهله، هلك غير مأسوف عليه، قال كعب: ⁷

أَلَا أَبْلَغَا عَنِّي بُجَيْرًا رِسالَةً فَهَلْ لَكَ فِيمَا قُلْتَ بِالخَيْفِ هَلْ لَكَ⁸
 شَرِبْتَ مَعَ المَأْمُونِ كَأَسَاءَ رَوِيَّةً فَأَنْهَكَ المَأْمُونُ مِنْهَا وَعَاكَ⁹

¹ المصدر السابق: ص 53.

² رتق الفتق: خالطه - البور: الرّجل الضالّ الهالك الفاسد الذي لا خير فيه.

³ السنن: الطريق حال ميله: ذهب مذهبه عادلا عن الطريق المستقيم - المثبور: الملعون المطرود الهالك، من الثبور: وهو الهلاك والضياع.
⁴ خرج الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بعد الفتح سنة ثمان إلى وادي حنين، فقاتل هوازن وحلفاءها، وانتصر عليهم، فدخلت هوازن في الإسلام. (ينظر: المصدر السابق: ص 69 وما بعدها)

⁵ بعد وقعة حنين، سار الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إلى الطائف، فأغلقت ثقيف أبواب مدينتها، فحاصروهم ليالي طويلة، وقاتلهم قتالا شديدا، ولما امتنعت عليه، عاد إلى المدينة. (ينظر: المصدر السابق: ص 106 - 108).

⁶ ثمّ خرج الرّسول صلّى الله عليه وسلّم إلى تبوك لغزو الرّوم، وصالح حكام تلك البلاد على دفع الجزية له، ثمّ قفل راجعا إلى المدينة، فكانت آخر غزوة له. (ينظر: المصدر السابق: ص 131 - 142).

⁷ كعب بن زهير: شرح ديوان كعب بن زهير، صنعة أبي سعيد السّكريّ (ت 275هـ)، الدار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة (مصر)، ط 1950، ص 3-4.

⁸ الخيف: أسفل الجبل.

⁹ كانت قريش تسمي النبيّ صلّى الله عليه وسلّم المأمون والأمين.

وخالفت أسباب الهدى وتبعته
على خلق لم تلف أمما ولا آبا
على أي شيء ويب غيرك دلكا¹
عليه ولم تدرك عليه آخا لكا

فأنشدها بجير رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأهدر دم كعب. فكتب بجير إلى أخيه يحذره من مصير الشعراء المشركين الذين هجوا المصطفى الأمين وآذوه فقتلهم، وبنّبه إلى أن ما هو فيه من عبادة اللات والعزى هو الضلال بعينه، ويدعوه إلى اللّجاة في الدنيا وفي الآخرة بالإسلام إلى الله وحده لا شريك له، وإلى ترك التّشبّث بدين أبيه زهير وجدّه أبي سلمى، فقد حرّمه هو على نفسه، ثمّ خيرّه بين القدوم إلى المدينة تائبا مسلما أو التّيه على وجهه في الأرض، قال بجير الشّاعر المسلم:²

من مبلغ كعباً فهل لك في التّي
إلى الله لا العزى ولا اللات وحده
تقوم عليها باطلا وهي أخزم
فتجؤ إذا كان النّجاء وتسلم³
لدى يوم لا ينجو وليس بمقليت
مّن النّار إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا شيء ديبه
ودين أبي سلمى على محرم

فلما بلغ كعباً كتاب أخيه، ضاقت به الأرض بما رحبت، وأيقن أنّه مقتول، فقدم المدينة، وأقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يمدحه ويعتذر إليه عما فرط منه، بقصيدة مطلعها:⁴

بانت سعاد فقلبي اليوم مذبذب⁵
منيم إثرها كم يجز مذبذب⁵

بدأ كعب بن زهير قصيدته بمقدّمة غزليّة طويلة لا تتناسب وحالة الشّاعر التائب، إذ بلغت ثلاثة عشر بيتا، شكّا فيها تباريح الشّوق لبعده صاحبته سعاد عنه، وممّاطلتها في لقائه ووصاله، ثمّ انصرف إلى وصف ناقته القويّة النّشيطة في سيرها الحثيث نحو غايتها، فأطال أكثر من ذي قبل، واستغرق في ذلك ثمانية عشر بيتا. وكانت ناقته سائرة وحواليها الوشاة الأعداء يتوعدونه بالقتل، فيما كان الأصدقاء يزورون عنه متدرّعين بمشاغلهم حتى

¹ تقول: وبيا لهذا الأمر، أي عجبا له.

² المصدر السابق: ص 4.

³ اللات والعزى: صنمان من اصنام قريش.

⁴ المصدر السابق: ص 6.

⁵ بانت: فارقت- ومذبذب: أصيب بذب، أي تلبت قلبي- ومنيم: مضلل وهو التذلل، ذلله الحب- ومكببول: محتبس عندها، والكبل: القيد- ولم يجز: من الجزاء، يقول: ما أتابنتني.

أسلموه لقدره، فما كان منه إلا أن استسلم لقضاء الله تعالى ما دام الموت غاية كل حيٍّ مهما
عُمر، يقول: ¹

يَسْعَى الْوَشَاةُ بِجَنَابِيهَا وَقَوْلُهُمْ
وَقَالَ كُلُّ خَلِيلٍ كُنْتُ أُمَّبِئَهُ
فَقُلْتُ خَلُّوا طَرِيقِي لَا أَبَاكُمْ
كُلُّ أُنْبِيٍّ أَنْتَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ
إِنَّكَ يَا ابْنَ أَبِي سَلْمَى لَمَقْعُورٌ ²
لَا أَلْفِيَّكَ إِنَِّّي عَنْكَ مَشْتَعُورٌ ³
فَكُلُّ مَا قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَقْعُورٌ
يَوْمًا عَلَى آلَةِ حَذْبَاءَ مَحْمُورٌ ⁴

ثم مضى يستعطف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينشد عفوه، مستجيرا من
غضبه بمنزل الذكر الحكيم، حتى لا يأخذه بالظن أو بما لفق له الوشاة الشامتون من تهم
هو بريء منها! فهو في موقف حرج، يجزع له الفيل ويفرق قلبه، ما لم ينل الأمان من
الرسول صلى الله عليه وسلم؛ هذا الأمان الذي سرى في جوارح الشعاع مخلوطا بالرّهبة
وهو يكلم الأمين صلى الله عليه وسلم وسط أصحابه، فكأنه الأسد الجسور في عرينه،
يقول: ⁵

أُنْيَيْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَوْ عَدَنِي
مَهْلًا هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةَ الْوَشَاةِ
لَمْ تَأْخُذْ بِي بِأَقْوَالِ الْوَشَاةِ وَلَمْ
لَقَدْ أَقْوَمُ مَقَامًا لَوْ يَقُومُ بِهِ
كُظْلٌ يُرْعَعِدُ إِلَّا أَنْ يَكُونُ لَهُ
حَتَّى وَضَعْتَ يَمِينِي لَا أَنْزَعُهُ
لَذَلِكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذْ أَكَلْتُمَهُ
وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُورٌ
قُرْآنَ فِيهَا مَوَاعِيظٌ وَتَفْصِيلٌ ⁶
أَذْنِبَ وَلَوْ كَثُرَتْ عَنِّي الْأَقَاوِيلُ
أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفَيْلُ
مِنَ الرَّسُولِ يَا ذَا اللَّهِ تَنْوِيلٌ ⁷
فِي كَفِّ ذِي نَقَمَاتٍ قَيْلُهُ الْقَيْلُ ⁸
وَقَيْلٌ إِنَّكَ مَسْبُورٌ وَمَسْئُولٌ ⁹

¹ المصدر السابق: ص 19.

² الوشاة: الذين يشنون الكذب ويزيتونه- بجنيبها: حوالها.

³ لا ألفيئك: أي لا أكون معك في شيء، أو لا أنفعلك فاعمل لنفسك

⁴ الآلة: الحالة أو التعش- وحذباء: صعبة أو معوجة.

⁵ المصدر السابق: ص 19-21.

⁶ النافلة: العطية

⁷ التنويع: من التائل وهو العطاء، يقال: نلتته وأنلتته، والتنويع هاهنا: الأمان والعفو.

⁸ نقمات: جمع نقمة- قيله القيل: أي قوله الصادق- وضعت يميني: أي صافحت النبي صلى الله عليه وسلم بالإسلام.

⁹ إنك مسبور ومسؤول: أي إنه باحث عنك ومسائلك عما نقل عنك.

مِنْ ضَيْغِمٍ مِنْ ضِرَاءِ الْأَسَدِ مَخْدَرَةٌ بِيْطِنٍ عَثْرَ غَيْلٍ دُونَهُ غَيْلٌ¹

فكعب لا يرى بأسا من أن يتوكأ - لهجة وصياغة - على بعض معاني التابغة
التبباني إمام شعر الاعتذار² ليحقق غرضه، ثم يمضي إلى مدح رسول الله صلى الله عليه
وسلم، فينعتة بأته نور للمهتدين، وسيف قاطع من سيوف الله على المعتدين، يعينه ويؤازره
في دعوته خيار قريش الذين أسلموا وهاجروا من مكة لا ضعافا ولا عزلا، بل فرسانا
شجعانا في كامل عدتهم، قد تعلموا من كثرة انتصاراتهم شكر الله تعالى والتواضع له، ومن
هزائمهم الصبر والثقة بنصره؛ فهم إذا واجهوا عدوهم - وإن كثر عدده - وقفوا له في ثبات
ووقار، وجالدوه مجالدة يعجز عنها غيرهم من الأقرام الرعايد، وإتهم يقبلون على الشهادة
بصدورهم لا مدبرين ولا خوارين من الموت، يقول³:

إِنَّ الرَّسُولَ كَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَيِّدٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مَسْئُولٌ⁴
فِي عَصَبَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ قَائِلُهُمْ بِيْطِنٍ مَكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُؤَلُوا⁵
زَالُوا فَمَا زَالَ أَنْكَاسٌ وَلَا كُشْفٌ عِنْدَ اللَّقَاءِ وَلَا مَيْلٌ مَعَاذِيلٌ⁶
يَمْتَشُونَ مَشْيَ الْجَمَالِ الزُّهْرُ يَعْصِمُهُمْ ضَرْبٌ إِذَا عَرَدَ السُّودُ الثَّنَائِيلُ⁷
لَا يَفْرَحُونَ إِذَا نَالَتْ رِمَاحُهُمْ قَوْمًا وَلَيْسُوا مَجَازِعًا إِذَا نِيَّوْا⁸
لَا يَقَعُ الطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمْ مَا إِنَّ لَهُمْ مِنْ حِيَاضِ الْمَوْتِ تَهْلِيلٌ⁹

وما إن أنهى كعب بن زهير قصيدته حتى خلع عليه الرسول صلى الله عليه وسلم
بردته التي صارت عنوانا لها اشتهرت به¹⁰، وعارضها الشعراء في العصور اللاحقة. وإذا

1- الضيغ مشق من الضغم وهو العض - ضراء الأسد: أعنفها وأقواها - مخدرة: عرينه أي مكانه الذي يستتر فيه - بطن عثر: موضع قيل تباله نكسر فيه الأسود - الغيل: الشجر الملتف - ودونه: بمعنى قريب أي من حوله.

2 - قال النابغة معتذرا إلى النعمان أبي قابوس ملك الحيرة:

أَبَيْتُ أَنْ أَبَا قَابُوسٍ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرِ مِنَ الْأَسَدِ
مَهْلًا فِدَاءَ لَكَ الْأَقْوَامُ كُلَّهُمْ وَمَا أُنْمَرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدِ
لَا تَقْدَقْتِي بِرُكْنٍ لَا كِفَاءَ لَهُ وَإِنْ تَأْتَفَكَ الْأَعْدَاءُ بِالرَّقَدِ

(ينظر: ديوانه: ص 87).

3 - المصدر السابق: ص 23-25.

4 - المهتد: السيف المطبوع من حديد، وسيوف الهند أفضل السيوف.

5 - زؤلوا: انتقلوا من مكة إلى المدينة، ويعني بذلك الهجرة.

6 - أنكاس: جمع نكس وهو الضعيف الجبان - الكشف: الذين يهزمون ولا يثبتون - الميل: جمع الأميل، وهو الذي لا يثبت على السرج - معاذيل: جمع معزال، وهو الذي لا سلاح معه أو الضعيف.

7 - الزهر: البيض - يعصمهم: يمنعهم - الثنائيل: جمع تبال، وهو القصير - عرد: هرب.

8 - مجازيع: جمع مجزاع وهو الكثير الجزع.

9 - تهليل: تكذيب، يقال: هلك الرجل إذا جبن في حملته أو إذا هرب.

10 - العمدة 1: ص 24.

جرت العادة أن يمنّ الشاعر الكبير على ممدوحه بشعره الذي سيخلّده عبر الزمن، فهذا لا ينطبق على ممدوح كعب، ذلك لأنه أفضل البشر وخاتم الأنبياء والمرسلين، كما أنّه منّ على الشاعر بالهداية بعد الضلال، وبالأمن بعد الخوف، وبالذكر والخلود في ظلّ الإيمان بدل الخمول والنسيان في غياهب الكفر.

ثمّ كان من وفود العرب التي قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنة تسع للهجرة، وفد بني تميم الذين دخلوا مسجده، ونادوه من وراء حجراته ليفأخروه حتى تأدّى من صياحهم¹، فنزل فيهم قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ }². فبمثل هذه الآيات الكريمة - وفي أخصّ دقائق الحياة اليومية - ربّى الله تعالى هؤلاء البداءة الجفافة، ونقلهم النقلة الحضاريّة التي مكنتهم - في ظرف قصير - من أن يصبحوا سادة العالم الجديد الذي تحكّمه حضارة الإسلام. وقد أوتي رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحكمة وسعة الصّدّر ما جعله يخرج لجفافة بني تميم، ويتحمّل لغتهم وفخرهم، فيأذن لخطيبهم عطارد بن حاجب بن زرارة ليقول ما يشاء، ثم ينهض خطيبه ثابت بن قيس الخزرجي فيجيبه. حينذاك قام شاعرهم الزبيرقان بن بدر ليدعو بدعوى الجاهلية، ويفخر بقبيلته متجاهلاً الوضع الجديد الذي يستدعي توحيد العرب تحت راية الإسلام، معتصمين بحبل الله جميعاً، غير متفرّقين ولا متعادين. فقد رفع الزبيرقان حيّه بني تميم فوق أحياء العرب شرفاً وسيادة وكرماً؛ فهم يطعمون الناس الشّواء حين يحتبس الغيث ويحلّ القحط، ولذلك أذعنّت لهم سادات العرب، وأسرعت إليهم تقدّم فروض الطّاعة، فأحسنوا وفادتها وأكرموها بنحر كرائم أموالهم، وبهذه الفعال كان لهم العزّ والإباء والمنعة في النّاس، ممّا شهدوا به وتناقلت أخباره الرّكبان، يقول³:

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَاحِيٌّ يُعَادِلُنَا
مِنَّا الْمُؤَاكِبُ وَفِينَا يُقَسِّمُ الرَّبُّعُ¹

1 - السيرة النبوية 4: ص 177.

2 - الحجرات: 4-5.

3 - ديوان حسّان بن ثابت: ص 301-302.

وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلَّهُمْ
وَنَحْنُ نَطْعِمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مَطْعَمًا
تُمْ تَرَى النَّاسَ تَأْتِينَا سِرًّا لَهُمْ
فَنَنْحَرُ الْكُومَ عَبْطًا فِي أَرْوَمِنَّا
فَلَا تَرَانَا إِلَى حَيٍّ نَفَاخِرُهُمْ
إِنَّا أَمِينْنَا وَلَا يَأْبَى لَنَا أَحَدٌ
فَمَنْ يُقَادِرُنَا فِي ذَاكَ يَعْرِفُنَا

عِنْدَ النَّهَابِ وَقَضَلُ الْعِزِّ يَتَّبِعُ¹
مِنَ الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُؤْتَسِ الْقَزَعُ²
مِنْ كُلِّ أَرْضٍ هَوِيًّا تُمْ نَصْطَنِعُ³
لِلنَّازِلِينَ إِذَا مَا أَنْزَلُوا شَيْعُوا⁴
إِلَّا اسْتَقَادُوا وَكَانُوا الرَّأْسَ يَقْتَطِعُ⁵
إِنَّا كَذَلِكَ عِنْدَ الْقَحْرِ نَرْتَفِعُ
فَيَرْجِعُ الْقَوْمُ وَالْأَخْبَارُ تُسْتَمَعُ

ثم قام حسّان رضي الله عنه فعارضه في كلّ ما قاله، ولكن بترقع الشاعر المؤمن الذي تشبعت روحه بمعاني الإسلام فمازجت شعره، ونقته من شوائب الجاهلية. فقد خاطب حسّان بني تميم بلسان الوحدة، ولم يذكر حيّه من الأوس وبني النجّار كعادته، بل جمع الأنصار إلى المهاجرين في خندق واحد، وبيّن فضلهم في هداية الناس إلى الإسلام دين الفطرة الذي تعنتقه كل نفس خيرة، وتتحلّى بأخلاقه، وتتصاع لأوامره ونواهيّه. وفي هؤلاء المسلمين طبع دأبوا عليه دوما: أن يضرّوا أعداءهم ويردعوهم، وأن ينفعوا أولياءهم وأتباعهم وينصروهم. وهم يتسلّحون - في الحرب وفي السلم - بالعزّة والحلم والأناة والعفة والترقع عن الدنيا، وبهذه الأخلاق السامية صاروا أئمة الناس، يقول حسّان⁶:

إِنَّ الدَّوَائِبَ مِنْ فَهْرِ وَإِخْوَتَهُمْ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ

قَدْ بَيَّنُّوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ⁷
تَقْوَى الْإِلَهِ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا⁸
أَوْ حَاوَلُوا النَّعْ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَقَعُوا⁹

1 - النهاب: جمع نهب، والنهب الغنيمة.
2 - القزع: ههنا الغنيم، وقوله: إذا لم يؤتس القزع، أب إذا لم ير المطر وذلك آية القحط.
3 - هويّا: أي سراعا.
4 - الكوم: جمع أكرم وكوماء، ويعبر أكرم: عظيم السنام طويله، وناقاة كوماء ضخمة السنام - وعبطا: أي نحرها من غير علة بها ولا كسر - والأرومة: الأصل.
5 - استقادوا: أعطوا مقادتهم أي سلموا لنا.
6 - المصدر السابق: ص 304-305.
7 - الدوائب: الأعالي، والمراد هنا السادة - وفهر أصل قريش وهو فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وقريش كلها ينتسبون إليه. ولعله يريد باخوة فهر الأنصار، والدوائب من فهر المهاجرين.
8 - السريرة: عمل السرّ من خير أو شرّ، والسرّ ما أسررت به أو ما أخفيت.
9 - حاولوا: راموا وطلبوا - والأشياء: جمع شيعة، وهي الأنصار والأتباع.

سَحِيَّةٌ تَلِكُ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ
لَا يَرَقُّعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَعْيُنُهُمْ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ
وَلَا يَضُئُونَ عَنْ مَوْلَى يَفْضُلِهِمْ
لَا يَجْهَلُونَ وَإِنْ حَاوَلْتَ جَهْلَهُمْ
أَعْقَبَتْ ذُكْرَتٌ فِي الْوَحْيِ عَقَبَتُهُمْ
كَمْ مِنْ صَدِيقٍ لَهُمْ نَالُوا كِرَامَتَهُ

إِنَّ الْخَلَائِقَ قَاعًا شَرُّهَا الْبِدْعُ¹
عند الدَّقَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَفَعُوا²
فَكُلُّ سَبْقٍ لِلْأَدْنَى سَبْقُهُمْ تَبَعُ
وَلَا يُصِيبُهُمْ فِي مَطْمَعٍ طَبَعُ³
فِي فَضْلِ أَحْلَامِهِمْ عَنْ ذَلِكَ مَتَسَعُ⁴
لَا يَطْبَعُونَ وَلَا يُرِيدُهُمْ الطَّمَعُ⁵
وَمَنْ عَدُوٌّ عَلَيْهِمْ جَاهِدْ جَدْعُوا⁶

لقد آمنوا بالله عزّ وجل، وكانوا طوع بنان نبيّه صلى الله عليه وسلم في الحلّ والتّرحال، في السّلم وفي الحرب، يخرج بهم مجاهدين في الحرّ وفي القرّ حتّى أخضعوا النّصارى واليهود والمشركين، وهم يسالمون من يسالمهم، ويحاربون من يحاربهم، وهم في حربهم باسلون مستميتون في الدّفاع عن حياضهم، لا يأخذ منهم عدوّهم إلا العفو، فإذا هزموا صبروا، فلم يضعفوا ولم يستكينوا ثقة بنصر الله تعالى، وإن انتصروا شكروه وتواضعوا له خوف الغرور والطّغيان؛ ذلك أنّهم أسد الله وجنده يقتحمون عدوّهم بصدورهم مقبلين غير مدبرين، لا يبالون، وقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم. فهؤلاء هم خير أمة أخرجت للنّاس، إمامهم وجامع كلمتهم وناصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تفرّق الناس جميعا، وضلّوا عن الصّراط المستقيم، لذلك استحقّوا أن يجتمع لأجلهم حبّ القلب وصنعة اللسان بالمؤازرة والمديح مدى الدّهر، قال حسّان⁷:

أَعْطُوا نَبِيَّ الْهُدَى وَالْبِرِّ طَاعَتَهُمْ
فَمَا وَئَى نَصْرُهُمْ عَنْهُ وَمَا نَزَعُوا
إِنْ قَالَ سِيرُوا جَدُّوا السَّيْرَ جَهْدَهُمْ
أَوْ قَالَ عَوْجُوا عَلَيْنَا سَاعَةً رَبَّعُوا⁸

1 - السّحِيَّة: الغريزة وما جُبل عليه الانسان - والخلائق: جمع خليفة وهي الطّبيعة هنا - والبِدْع: جمع بدعة، والمراد بها هنا مستحدثات الأخلاق لا ما هو كالغرائز فيها.

2 - يقول إنهم أعرّة، والكلام تمثيل.

3 - لا يضنون: لا يبخلون - الموالى: الحليف - الطبع: الدّس والعيب، وكلّ شين في دين أو دنيا فهو طبع.

4 - الجهل هنا ضدّ العقل والأناة والحلم - وقوله: في فضل أحلامهم متسع أي أنّ عقولهم أسمى وأرحب من أن تسفّ إلى الجهل.

5 - أعة: جمع عفيف، والعقة الكفّ عمّا لا يحلّ ويجمل - ولا يطبعون: لا يفعلون ما يدتسهم - ولا يريدبهم الطّمع أي لا يطمعون طمعا يؤدّي بهم إلى الهلاك.

6 - قوله: نالوا كرامته مقلوب أي نال كرامتهم - وجاهد أي مجتهد في عداوته - وجدعوا من الجدع: أي القطع البائن في الأنف والأذن والثقة واليد ونحوها، والمراد الإذلال.

7 - المصدر السابق: ص 306-307.

8 - عاج بالمكان: عطف عليه ومال وألم به - ربّعوا: أقاموا

مازال سيرهم حتى استقاد لهم
 خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا
 فإن في حربهم فأنرك عدوتهم
 نسمو إذا الحرب نالتنا مخاليتنا
 لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم
 كأنهم في الوغى والموت مكتنع
 إذا نصبنا لقوم لا ندب لهم
 أكرم يقوم رسول الله شيعتهم
 أهدى لهم مدحي قلب يؤزره
 أهل الصليب ومن كانت له البيع¹
 ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
 شراً يخاض عليه الصاب والسلع²
 إذا الزعانف من أظفارها خشعوا³
 وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع⁴
 أسد بييشة في آرساغها قدع⁵
 كما يدب إلى الوحشية الدرع⁶
 إذا تفرقت الأهواء والشيع⁷
 فيما يحب لسان حائك صنع⁸

بهذه القيم الجديدة الإسلامية، أفحم الشاعر المؤمن حسان بن ثابت شاعر تميم
 وأسكت غيره من الشعراء، لينتصر خيار رسول الله صلى الله عليه وسلم في اتخاذ الشعر
 سلاحاً فتاكاً يساند الدعوة الإسلامية، ويردّ عنها كيد خصومها، ويكون رافداً من روافد
 نجاحها، بشهادة الأقرع بن حابس التميمي -والحق ما شهدت به الأعداء- حيث قال:
 "وأبي، إن هذا الرجل لمؤتى⁹ له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا،
 وأصواتهم أعلى من أصواتنا"¹⁰، ثم أسلموا، وأحسن الرسول صلى الله عليه وسلم
 جوائزهم.

لكن ليت وفد بني عامر كان كوفد بني تميم، فقد جاء فارسهم وشاعرهم عامر بن
 الطفيل وهو عاقد العزم على الاختلاء بالرسول صلى الله عليه وسلم لاغتياله بمساعدة أربد
 ابن قيس أخي الشاعر ليبيد بن ربيعة لأمه، ولكن الله جلّ وعلا خيبيهما، فلما انصرفا، دعا

1 - استقاد لهم: أي أعطوهم مقادنتهم، يقول: مازال سيرهم ذلك حتى انقاد لهم التصاري واليهود والكفار.

2 - الصاب والسلع: ضربان من الشجر مران.

3 - الزعانف من الناس: سفلتهم ومن لا خير فيهم.

4 - الخور: الضعفاء الذين لا بقاء لهم على الشدة. والجزع نقيض الصبر.

5 - الموت مكتنع: أي دان قريب- وببيشة: موضع تنسب إليه الأسود- الفدع: عوج وميل في المفصل كلها.

6 - لا ندب لهم من الدبيب- الدرع: كل ما استترت به من بعير أو غيره حتى تدنو من الوحشية فترميها أو تضربها، يقول: إذا حاربنا قوما لم نخالطهم كما نخال الوحشية.

7 - يقع على الواحد والإثنين والجمع والمذكر المؤنث بلفظ واحد، ومعنى شيعتهم هنا ناصرهم.

8 - صنع: أي صانع حاذق.

9 - المؤتى له: أي الموقف له من أتاه الشيء واقفه.

10 - السيرة النبوية 4: ص 181.

رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما، فأما عامر بن الطفيل فَأَهْلِكَ بِالطَّاعُونَ فِي عَنَقِهِ،
وَأَمَّا أُرَيْدُ فَأَحْرَقَهُ الْعَلِيُّ الْقَدِيرُ بِصَاعِقَةٍ¹.

وقد تأثر الشاعر لبيد بن ربيعة² كثيرا لموت أخيه أربد بتلك الصّورة المروّعة،
فرثاه بعدة قصائد باكية متفجّعة، نُخْتارُ منها قصيدته التي ترك فيها الجزع، وتحلّى بالصبر
والسلوان، ممّا مكّنه من إنعام النّظر في الحياة والمصير، فكانت نظراته أكثر واقعية،
مستسلمة للقدر، مسلّمة وراضية بقضاء الله سبحانه وتعالى. فمن طبيعة الإنسان أن تنهكه
السّتون، فيصاب بالشيخوخة والعجز، ويلحقه الفناء، فيما تبقى التّجوم والجبال والعمارات
ثابتة صامدة لصروف الدّهر. لذلك، فلا عجب أن يفاجأ المرء -في يوم من الأيام- بفقد
عزيز أحبّه، وحرص عليه، ونعم بصحبته زمنا طويلا، مثله في ذلك مثل الدّيار تكون
مسكونة مأنوسة بأهلها سنين عدّة، ثمّ تصبح -في ذات يوم- فقرا موحشة كأنّها ما قطنت
قط. وقد يحوز المرء من المجد والمال في الدنيا ما يجعله أشهر من نار على علم، ثم
يحول رمادا تذروه الرّياح، فكأنّه لم يَعْزْ فيها؛ لأجل ذلك، كان خير ما يدّخره الإنسان
ويكتنزه أعمال صالحات باقيات تنفعه في آخرته، أمّا المال والبنون والأهل فالى زوال غير
معلوم. لكنّ المصائر معلومة، والأرزاق مقسومة بين النّاس على أساس ناموس التّضادّ،
فهم صنفان متضادّان: سعيد مستمتع بالحياة، ينمو الخير بين يديه فيفيض منه على
الآخرين، وشقيّ متبرّم من الحياة، قد لازمه الخسران، فرضي من الدنيا بالفُتات، يقول
لبيد³:

بَلِينَا وَمَا تَبَكَّى النَّجُومُ الطَّوَالِغُ وَتَبَقَّى الْجِيَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ⁴
وَقَدْ كُنْتُ فِي أَكْنَافِ جَارٍ مَضِيَّةٍ ففَارَقْنِي جَارٌ يَأْرَبِدُ نَافِعُ⁵
فَلَا جَزَعُ إِنَّهُ قَرَقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا وَكُلُّ قَتْلَى يَوْمًا بِهِ الدَّهْرُ فَاجِعُ⁶

¹ - المصدر السابق: ص 182-184.

² - قيل إن لبيد بن ربيعة أسلم مع وفد بني كلاب حين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم - في المدينة سنة تسع للهجرة، فحوّره بتحية الإسلام، ثم رجعوا إلى بلادهم، (ينظر: الشعر والشعراء: ص 171).

³ - ديوان لبيد بن ربيعة: ص 88-89.

⁴ - المصانع: المباني تتخذ للماء أو هي القصور.

⁵ - أكناف: جوانب - وجار مضية: جار يرضن به لأنه عزيز - فارقني بآربد: فارقني منه جار نافع - وجار نافع: أي كان نافعا خيرا في حياته.

⁶ - جزع: خوارج عند المصيبة - فاجع به: فاجع له، أي يرميه بالفجائع.

وما النَّاسُ إِلَّا كالدِّيَارِ وَأَهْلَهَا
وما المَرءُ إِلَّا كالثَّهَابِ وَضَوْئِهِ
وما البِرُّ إِلَّا مُضْمَرَاتٌ مِنَ النَّكِيِّ
وما المَالُ والأَهْلُونَ إِلَّا وَدِيعَةٌ
وما النَّاسُ إِلَّا عَامِلَانُ: فَعَامِلٌ
فَمِنْهُمْ سَعِيدٌ آخِرٌ لِنَصِيْبِهِ

بها يَوْمَ حُلُوْهَا وَغَدَوًا بِلَاقِعٍ¹
يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ²
وما المَالُ إِلَّا مُعْمَرَاتٌ وَدَائِعٌ³
ولا بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الأُودَاعُ⁴
يُنْتَبِرُ مَا بَيْنِي، وَآخِرُ رَافِعٌ⁵
ومنهم شَقِيٌّ بِالمَعِيشَةِ قَانِعٌ

إذن، ما عمَلُ الشاعر وقد أفلته الموت، فعمّر⁵ حتى صار يدبّ دبيبا على عكازه سنّده في شيخوخته وضعفه بعد أخيه الفقيد؟ إنّه ما زال يحتفظ بصفاء ذهنه وإيائه نفسه وإن هرم جسمه، مثله في ذلك مثل السيف الحادّ الصقيل في غمد قديم، فما بقي له إلا أن يفيد الخلف بخبرات السلف عن حياة يترصدها الموت، فيتعجّل البعض يؤجّل البعض الآخر، "وما تدرّي نفسٌ ماذا تكسبُ غداً وما تدرّي نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت".⁶ لذا، فلا يجوز الفرع ممّا هو مقدر محتوم، فما نجا أحد من الكروب والخطوب المخبوءة في سبيل المرء عن مزاعم المنجمين والعرافين، لأنّها من تدبير القاهر فوق عبادته، علام الغيوب وحده، بأجال الناس ومنازل الغيث، يقول لبيد:⁷

أليسَ ورأيي، إن تراخت منيَّتي،
أخبرٌ أخبارَ القُرُونِ التي مضتْ
فأصبحتُ مثلَ السيفِ غيرَ جفنه
فلا تبعدنَّ إنَّ المنيّةَ موعِدٌ
أعاذلُ ما يُدرِيك، إلا تظنّيّا

لُزومُ العَصَا نُحْنِي عَلَيْهَا الأَصَابِعُ⁸
أدبٌ كأني كلما قُمتُ راعٍ⁹
تقادمُ عهدِ القينِ والنَّصلِ قاطِعٌ¹⁰
عليك فدانٍ للظُّوعِ وطلالعٍ¹¹
إذا ارتحلَ الفتيانُ من هو راجعٌ¹²

1 - غدوا: أي غدا - وبلاقع: قفار خالية من أهلها.
2 - الثّهاب: النار - يحور: يتحول، يصير - ساطع: مشتعل.
3 - مضمّرات: ما أضمّرت وأخفيت - ومعمرات: أي ما عمرت.
4 - ينتبر: من التنبير وهو الخسارة والهلاك - وآخر رافع: أي يفعل الخير ويشيد بنيانه.
5 - قيل إن لبيدا مات وهو ابن مائة وسبع وخمسين سنة في أول خلافة معاوية بن أبي سفيان. (ينظر: الشعر والشعراء: ص 171)
6 - لقمان: 34.
7 - ديوان لبيد: ص 89 - 90.
8 - ورأيي: قدامي - تراخت منيَّتي: امتدّ بي العمر - لزوم العصا: أي مصاحبة المحجن.
9 - أدب: أمشي التبييب وهو مشية الشيخ الهرم - راع: بسبب الانحناء من كبر السنّ.
10 - أخلق جفنه: غير غمده القدم - القين: الحداد - النصل: الحدّ القاطع.
11 - فلا تبعدن: دعاء للمخاطب - فدان للظُّوع وطلالع: أي قريب الأجل وبعيد الأجل.
12 - أعاذل: أعاذلتني - التظني: الظنّ والتخمين.

أَتَجَزَعُ مِمَّا أَحَدَتَ الدَّهْرُ بِالْفَتَى
وَأَيُّ كَرِيمٍ لَمْ تُصِبْهُ القَوَارِعُ¹
لَعَمْرُكَ مَا تَدْرِي الضَّوَارِبُ بِالْحَصَى
وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللهُ صَانِعُ²
سَلَوْهُنَّ إِنْ كَذَّبْتُمُونِي مَتَى الْفَتَى
يَذُوقُ المَنَايَا أَوْ مَتَى العَيْثُ وَأَقِغُ

لكن من فقده لبيد ليس أعز من سيّد البشر رسول الله صلى الله عليه وسلّم، الذي اشتدّ به المرض أشهراً بعد حجة الوداع سنة عشر للهجرة، حتى توفاه الله عزّ وجلّ، فحزن المسلمون لفقده حزناً شديداً، وأحسوا بالضّياح دونه، لولا أن ردّهم إلى صوابهم صاحبه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بموقفه الحازم، حين ذكرهم بقوله تعالى: "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يُنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فُلْنُ يَضُرُّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ"³، ثمّ قال قولته الفاصلة: "أيها الناس، إنّه من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإنّ الله حيّ لا يموت"⁴.

وقد نظم حسّان بن ثابت رضي الله عنه قصائد كثيرة يبكي فيها حبيبه رسول الله صلى الله عليه وسلّم، الذي نعم بصحبته، وناصر دعوته طيلة عشر سنوات، نقف عند إحداها لأثّه وقف فيها طويلاً عند طلل قبره في مدينة طيبة العامرة بالإسلام، يذرف دموعه الغزار، ويسترجع ذكرياته الطيبة التي حياها إلى جواره. فكان الرسول صلى الله عليه وسلّم مازال حيّاً يعظ المسلمين من على منبره، أو يؤمّمهم في مسجده، أو يستقبل الوحي في حجراته؛ فما فنتت تلك الأماكن تفيض بنفح النبوة على مرّ الزّمن، يقول:⁵

بِطَيْبَةِ رَسَمٍ لِلرُّسُولِ وَمَعَهْدُ
مُنِيرٌ وَقَدْ تَعَفُّو الرُّسُومَ وَتَهَمَّدُ⁶
وَلَا تَنْمَحِي الأَيَّاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ
بِهَا مُنِيرُ الهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْنَعُ⁷
وَوَاضِحُ آيَّاتٍ وَبَاقِي مَعَالِمِ
وَرَبَّعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلَّى وَمَسْجِدُ
بِهَا حُجَرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسَطَهَا
مِنَ اللهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ⁸

¹ القوارع: المصائب والدواهي.

² الضّوارب بالحصى: كانت بعض النساء في الجاهلية تضرب بالحصى، وتزعم العلم بالغيب- وزاجرات الطير: كان العرب إذا أراد أحدهم القيام بسفر أو غزو أو عمل هام، فكن يزجرن له الطير، فإذا طار على اليمين تفاعلوا وأقدموا على ما يريدون، وإلا عدلوا عنه.

³ آل عمران: 144.

⁴ السّيرة النبوية 4: ص 271.

⁵ ديوان حسّان: ص 145- 147.

⁶ طيبة: هي مدينة النبي صلى الله عليه وسلّم هو سماها بذلك-المعهد: المنزل الذي لا يزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه- وتهمد: فالهمود البلى في كل شيء.

⁷ الآيات: جمع آية وهي العلامة.

⁸ الحجرات: جمع حجرة يعني مساكن الرسول صلى الله عليه وسلّم.

مَعَالِمٌ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى الْعَهْدِ أَيَّهَا

أَطَالَتْ وَقُوفًا تَذْرِفُ الْعَيْنُ جُهْدَهَا

قُبُورِكُمْ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكُمْ

أَتَاهَا الْيَأَى فَالْأَيُّ مِنْهَا تَجَدَّدٌ¹

عَلَى طَلَلِ الْقَبْرِ الَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ

بِلَادُ تَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ²

إنه قبر مبارك في بلاد مباركة، يحوي هادي الناس إلى الخير والتجاة، فحين وارى المؤمنون جسده الطاهر بالتراب، فإثما واروا حلما رحبا وعلما سماويا ورحمة مهداة، ثم عادوا إلى بيوتهم دون نبيهم منكسرين، لا ينفكون عن بكاء من بكته -يوم موته- السماوات والأرض، يقول حسّان:³

تَهْيَلُ عَلَيْهِ التُّرْبُ أَيْدٍ وَأَعْيُنٌ

لَقَدْ غَيَّبُوا حِلْمًا وَعِلْمًا وَرَحْمَةً

وَرَأَحُوا بِحُزْنٍ لَيْسَ فِيهِمْ نَبِيُّهُمْ

يُبْكُونَ مَنْ تَبْكِي السَّمَاوَاتُ يَوْمَئِذٍ

وَهَلْ عَدَلَتْ يَوْمًا رَزِيَّةٌ هَالِكٌ

عَلَيْهِ وَقَدْ غَارَتْ بِذَلِكَ أَسْعَدُ⁴

عَشِيَّةَ عَوَّةِ الثَّرَى لَا يُوسِّدُ⁵

وَقَدْ وَهَنْتَ مِنْهُمْ ظُهُورٌ وَأَعْضُدُ⁶

وَمَنْ قَدْ بَكَتُهُ الْأَرْضُ فَالْتَّاسُ أَكْمَدُ⁷

رَزِيَّةٌ يَوْمَ مَاتَ فِيهِ مُحَمَّدُ

لقد كان فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم رزء في إنسان، لأن بقاءه كان يعني بقاء الصلة بين السماء والأرض مرتبطين بنور الوحي يعم أصقاع الأرض، فينقذ الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم سبل الرشاد ليسعدوا في الدنيا وفي الآخرة. فقد كان المصطفى صلى الله عليه وسلم للمسلمين مثل الأب العطوف يتجاوز عن أخطائهم في حقه، ويقبل عذرهم، ويؤخر عقوبتهم، فإن أحسنوا فالله يضاعف لمن يشاء. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يتجنب التعسير، ويميل إلى التيسير رافة بالمؤمنين أن يشق عليهم الأمر، فينحرفوا عن الهدى إلى الضلال؛ فكان لهم مثلما صورّه القرآن الكريم: "لَقَدْ جَاءَكُمْ

¹ لم تطمس: لم تغير - على العهد أيها: أي أن آياتها لا تزال على ما عهدت - فالأي منها تجدد: أي تتجدد، ولعل المراد بالأي هنا آيات الذكر الحكيم.

² المسدد: يقال سدده الله وفقه للسداد وهو الصواب والقصد من القول والعمل.

³ المصدر المنقول: ص 147-148.

⁴ تهيل عليه التراب: تدفنه فينهال ويسقط - وأعين عليه: أي تذرّف عليه الدموع - أسعد: جمع سعد أحد سعود التجوم، ومراده أنه غاب بغيبابه صلى الله عليه وسلم اليمن والبركة.

⁵ لا يوسد: لا يجعل له وساد، والوساد: المنكأ.

⁶ وهنت: ضعفت وفترت من أثر الحزن.

⁷ يبكون: يبكون عليه - من تبكي السماوات يومه: أي اليوم الذي قضى فيه - فالتاس أكمد: أي أحزن من الكمد وهو الحزن.

رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ¹ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ² حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ³ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ⁴. وفيما كان المسلمون ينعمون بحدب الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم ورحمته بهم، إذ أطفأ نورهم سهم الموت الذي لا يخيب، يقول حسّان:⁵

تَقَطَّعَ فِيهِ مَنْزِلُ الْوَحْيِ عَنْهُمْ
يَدُلُّ عَلَى الرَّحْمَنِ مَنْ يَقْتَدِي بِهِ
إِمَامٌ لَهُمْ يَهْدِيهِمْ الْحَقَّ جَاهِدًا
عَفْوٌ عَنِ الزَّلَّاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُمْ
وَإِنْ نَابَ أَمْرٌ لَمْ يَقُومُوا بِحَمْدِهِ
عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيدُوا عَنِ الْهُدَى
عَطُوفٌ عَلَيْهِمْ لَا يَنْتِي جَنَاحَهُ
قَبِيْلَاهُمْ فِي ذَلِكَ النَّوْرِ إِذْ غَدَا

وَقَدْ كَانَ ذَا نُورٍ يَعُورُ وَيُنْجِدُ⁶
وَيُنْقِذُ مِنْ هَوْلِ الْخَرَائِبِ وَيُرْشِدُ⁷
مُعَلِّمٌ صِدْقٍ إِنْ يُطِيعُ وَهُوَ يَسْعَدُوا
وَإِنْ يُحْسِنُ— وَفَاللَّهُ بِالْخَيْرِ أَجْوَدُ⁸
فَمِنْ عِنْدِهِ تَيْسِيرٌ مِمَّا يَشْتَدُّ⁹
حَرِيصٌ عَلَى أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا
إِلَى كَنْفٍ يَحْنُو عَلَيْهِمْ وَيَمُهَدُّ¹⁰
إِلَى نُورِهِمْ سَهْمٌ مِنَ الْمَوْتِ مُقْصِدٌ¹¹

لقد اختطف الموت من بكته الملائكة، وعادت بلاد الحرم قفارا من أنسها بنزول الوحي عليه، لذلك كان فقده صلى الله عليه وسلم لا يساويه فقد في الماضي ولا في مستقبل الأيام حتى يرث الله الأرض وما عليها. ولم يكن أنس المؤمنين بنزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم فقط، بل كان أنسهم بحياته بينهم، يتفتأون بظلال أخلاقه القرآنية: من عفاف نفسه، وأمانته، ووفائه بالعهد، وجوده الذي كان يضاهي به الرياح المرسله وبخاصة في رمضان، وجود بما ملكت يداه، لا يبقي مالا قديما، ولا يوقر مالا محدثا؛ يصدر في كل

¹ من أنفسكم: من جنسكم ومن نسبكم عربي قرشي مثلكم.

² عزيز عليه ما عنتم: أي شديد عليه شاق لكونه بعضا منكم ولقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب.

³ حريص عليكم: حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحق الذي جاء به. (ينظر: تفسير الكشاف 2: ص 220).

⁴ التوبة: 128.

⁵ ديوان حسّان: ص 148-150.

⁶ يعور ويعير: يبلغ الغور وهو المنخفض من الأرض- وينجد: يبلغ التجرد وهو المرتفع من الأرض، والمراد يعم جميع الأمكنة.

⁷ أي يرشد من يتبعه إلى الحق سبحانه وتعالى، وينقذه من عاقبة الكفر والضلال: الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة.

⁸ عفوّ من العفو: وهو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطمس.

⁹ نأب الأمر: نزل- لم يقوموا بحمده: أي لم يقضوا حقه ولم يقوموا بما يجب عليهم نحوه- وما يشتد: أي ما يتصعب من الشدة.

¹⁰ عطوف عليهم: مشفق عائد بفضلله بارّ بهم- ولا ينتي جناحه إلى كنف: أي لا يصرف عطفه عن أحد، أي أنه عطوف عليهم جميعا- يحنو عليهم ويمهد: أي يوطئ، وأصل المهد التوشير.

¹¹ مقصد: أي مصيب، من أقصد السهم أي أصاب فقتل مكانه.

ذلك عن أشرف نسب في قريش وأكرم بيت في مكة، وعن حسن أدب أدبه به الله تعالى،
وعن علم غزير مبدول للناس، ورأي سديد منزّه عن الهوى، يقول حسّان: ¹

فَأَصْبَحَ مَحْمُودًا إِلَى اللَّهِ رَاجِعًا
وَأَمْسَتْ بِلَادُ الْحَرَمِ وَحَسًّا بِقَاعِهَا
وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ
أَعْفَى وَأَوْقَفَى ذِمَّةً بَعْدَ ذِمَّةٍ
وَأَبْدَلَ مِنْهُ لِلطَّرِيفِ وَتَالِدٍ
وَأَكْرَمَ حَيًّا فِي الْبُيُوتِ إِذَا أَلْتَمَى
وَأَمْنَعَ ذُرُوتٍ وَأَنْبَتَ فِي الْعُلَى
وَأَنْبَتَ قَرْعًا فِي الْفُرُوعِ وَمَنْبِتِيَا
رَبَاهُ وَكَيْدًا فَاسْتَنْتَمَّ تَمَامَهُ
تَنَاهَتْ وَصَاةُ الْمُسْلِمِينَ بِكُفِّهِ
وَلَيْسَ هَوَائِي نَازِعًا عَنْ تَنَائِيهِ
مَعَ الْمُصْطَفَى أَرْجُو بِذَلِكَ حِيَارَهُ

يُبَكِّيه جَفْنُ الْمُرْسَلَاتِ وَيَحْمَدُ ²
لِغَيْبَةِ مَا كَانَتْ مِنَ الْوَحْيِ نَعْمَهُ ³
وَلَا مِثْلُهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفَقِّدُ ⁴
وَأَقْرَبَ مِنْهُ نَائِلًا لَا يُنْكَدُ ⁵
إِذَا ضَنَّ مِعْطَاءً بِمَا كَانَ يُنْبِلُ ⁶
وَأَكْرَمَ جَدًّا أَبْطَحِيًّا يُسَوِّدُ ⁷
دَعَائِمَ عِزٍّ شَاهِقَاتٍ تُشِيدُ ⁸
وَعُودًا غَدَاةَ الْمُزْنِ فَالْعُودُ أُعِيدُ ⁹
عَلَى أَكْرَمِ الْخَيْرَاتِ رَبِّ مُمَجَّدُ ¹⁰
فَلَا الْعِلْمُ مَحْبُوسٌ وَلَا الرَّأْيُ يُفْقَدُ ¹¹
لَعَلِّي بِهِ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَخْلَدُ ¹²
وَفِي نَيْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ أَسْعَى وَأَجْهَدُ

فالشاعر حسّان الذي نشبعت روحه بالإيمان، بات يعرف أنّ ممدوحه الجديد لا
يدانيه ممدوح على وجه الأرض سابقا أو لاحقا، لذلك فلن يكفّ عن الثناء عليه، وسيبقى
وفيا له في حياته، ولن يطلب -في مقابل ذلك- جائزة فانية، بل سيسعى جاهدا لنيل جائزة
الخلود في الجنة، ليظفر بصحبته صلى الله عليه وسلم في الحياة الأخرى.

¹ المصدر السابق: ص 150-153.

² يبكيه: أي يبكي عليه. والمراد بالجفن هنا العين نفسها. والمرسلات: الملائكة.

³ بلاد الحرم: يعني مكة وما اتصل بها من الحرم.

⁴ التائل: ماتتاه أي عطاء. والمنكد: التزر وأن لا يهناه من يعطاه.

⁵ الطريف والطارف: المال المحدث المستفاد. والتالد والتلبد: المال القديم الأصلي الذي ولد عندك أو ورثت عن الآباء. وينلد: أي يتخذ من مال.

⁶ التمي: انتسب. وأبطحيا: نسبة إلى الأبطح بمكة.

⁷ ذروات: جمع ذروة، وذروة كل شيء أعلاه. وشاهقات: مرتفعتات بعيدات.

⁸ المزن: المتحاب. وأغيد: ناعم مثن.

⁹ استنتم: بمعنى أتم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أدبني ربي فأحسن تأديبي".

¹⁰ تناهت: أي انتهت بكفة. والوصاة: الوصية، والمراد بها هنا ما يتلقاه المسلمون من الرسول صلى الله عليه وسلم. ولا الرأي يفند: فالفند الخطأ في
الرأي، وأفنده خطأ رأيه أو أضعفه.

¹¹ نازعا عن ثنائه: كفّ وانهى.

إذن، لقد تمكّن الشاعر حسّان بن ثابت من تجاوز عبء شيخوخته، وغلبة الطابع الجاهليّ على شعره، فاستطاع أن يواكب الحوادث المتسارعة، وأن يهضم تغيّرات الحياة الجديدة في وقت قصير، ثمّ يمزج القوالب الشعريّة الموروثة بالطابع الإسلاميّ لغةً وقيماً في السنين الأخيرة من الدّعوة الإسلاميّة أيام الرّسول صلّى الله عليه وسلّم. وفي الوقت الذي نضجت فيه التجربة الشعريّة الجديدة لدى حسّان، بدأ الشعر الذي قيل في مؤازرة الدّعوة الإسلاميّة أو ضدها، يفقد دواعيه بإسلام قريش بعد فتح مكّة، ووفاة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، و"أصبحت رواية الشعر الذي هوجمت به (قريش) من ناحية، والذي هوجم به المسلمون الأوّلون من المهاجرين والأنصار من ناحية أخرى، مفرّقا لكلمة الأمتة وباعثا لحزازات ينبغي لها أن تموت".¹

وهكذا كان على الشاعر المؤمن حسّان بن ثابت وغيره من الشعراء أن يجدوا دوافع أخرى لنظم الشعر تتواءم دوماً وتعاليم الإسلام، في ظلّ الدّولة الإسلاميّة الفنيّة التي ظلّ خلفاؤها الرّاشدون يقتنون بسيرة النّبّي محمّد صلّى الله عليه وسلّم، أو أن يعيشوا على هامشها.

¹ محمد محمّد حسين: الهجاء والهجاؤون في الجاهليّة، دار النهضة العربيّة، بيروت (لبنان)، ط3، 1970، ص 248.

الختامة

إنّ دراستنا الدلاليّة لاستخدام التّضادّ في شعر الدعوة الإسلاميّة أيام الرّسول صلى الله عليه وسلم وشعر الفترة التي سبقتها، وفق أدوات المنهج التاريخي (الاستقصاء، والمقارنة، والتحليل، والاستنتاج)، مكنتنا من التّوصّل إلى جملة من التّنتائج نجملها في ما يأتي:

1- إنّ استقراء عبد الله بن المعتز للشعر الجاهلي وشعر الدعوة الإسلاميّة في كتابه "البديع"، في ما يخص استخدام شعراء هاتين الفترتين للتضاد -أو المطابقة كما سمّاه- وحكمه بقلته بل ندرته المستحسنة عندهم، كان استقراء صحيحا من وجهة نظره هو، لأنّه قارن بين الشعر القديم والشعر المحدث في استعمال فنون البديع بعامة، واستنتج إسراف الشعراء المحدثين في اللّجوء إليها في أشعارهم، ولأنه -كذلك- انطلق في مقارنته من فكرة البيت المفرد المستقلّ، ولم ينظر إلى سياق النّص كلّه وما فيه من قيم متصارعة، أو مشاعر متناقضة، أو مواقف متعارضة، كما لم يفتن إلى إمكانية أن يكون نصّ لشاعر في تضادّ مع نصّ لشاعر آخر في موقف معين.

2- وإنّ جدل البلاغيين والنقاد العرب القدامى حول ثنائية اللفظ والمعنى، وانحياز بعضهم إلى اللفظ، وركون بعضهم إلى المعنى، أو محاولة البعض الآخر التوفيق بين النظريّتين، جعلهم يغفلون عن إدراك حقيقة جوهرية في العمل الشعري تتمثّل في إبداع الشاعر الكبير للغة الخاصّة التي تمكّنه من التعبير عمّا يعتمل في نفسه من مشاعر وأحاسيس متوافقة أو متناقضة، ومن التّرجمة عن موقفه من الحياة ونظرته إلى الكون.

3- وقد أعلى البلاغيون والنقاد العرب القدامى من شأن التّشبيه القريب المنتزع من البيئّة، وجعلوه أبين دليل على الشاعرية، وضيّقوا الخناق على الاستعارة إن كانت تنافي فضيلة الوضوح التي شرطوها للشعر الجيّد في تصوّرهم، وما عبأوا بالطّباق لهوان شأنه عندهم، ودلالته على التناقض المستنبح في الشعر في رأيهم. وما فطن لمزيّة التّضادّ إلا حازم القرطاجيّ المتوفى سنة 684هـ، وعلل رأيه بإلحاحه على تفاعل النفس مع الكلام إذا تقارنت فيه المتضادّات تقارن التماثلات والمتشابهات، وإمكانية دلالة هذه المتضادّات على الانسجام والاتساق، وبذلك فسح السبيل أمام الشعراء في مجال استخدام المطابقة في الشعر.

وقد رأينا الشاعر الجاهلي امرأ القيس في معلقته يعبر بالتضاد عن قوة الخلق وانسجامه وجماله متمثلاً في فرسه الأصيل، فيما هو مشهود له - عند القدماء - بجودة تشبيهاته وتعددها في البيت الواحد.

4- وكانت دراستنا الدلالية للنصوص الشعرية تهدف إلى اكتناه التضاد والكشف عن دلالاته داخل السياق، وعيننا بالسياق الأبيات السابقة واللاحقة للبيت الذي يحوي الطباق، واتخذنا النص كله سياقاً يحيا فيه هذا الطباق؛ لذلك حاولنا في دراستنا للمعلقات العشر إيجاد لحمة ما بين الأبيات المختارة في كل معلقة، والابتعاد - ما أمكن - عن أفراد البيت المستقل بالدراسة.

5- وقد أدرك الشاعر الجاهلي بذكائه الفطري أهمية التضاد كأداة فنيّة لا كمصطلح، ومناسبته للتعبير عن تناقضات حياته الجاهلية، وعن صدامه مع قبيلته وقيمها السائدة، وعن نظرتة إلى الحياة والموت كثنائية تشغل تفكيره وتقلق وجوده؛ ولذلك غلب ورود التضاد في أبيات الحكمة التي عدت في ذلك العصر علامة على الفحولة، كما لمسنا ذلك في حكم زهير بن أبي سلمى في معلقته، وعند الأعشى ميمون حين لخص مشوار حياته في بداية قصيدته في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم.

6- أمّا في شعر الدعوة الإسلامية فقد برز التضاد على مستوى العقيدة بين التوحيد والشرك، وعلى مستوى الموقف بين التصديق والتكذيب، وبين الإيمان والكفر، وعلى مستوى الحياة بين حياة في الدنيا متصلة بحياة في الآخرة، وبين حياة يترصدها الموت كحتمية ومصير نهائي. لذلك، انقسم الشعر العربي على نفسه - في ظل تلك التحوّلات المتسارعة - انقساماً قيمياً لا فنياً بين شعر مناصر للدعوة الإسلامية وشعر معاد لها؛ إذ بقيت القوالب الشعرية الموروثة هي هي، لم يحاول أحد من شعراء المعسكرين تجاوزها والقفز عليها، لأنها أعظم ما توصل إليه الشاعر العربي آنذاك في مجال الصياغة الشعرية. والجديد في شعر الدعوة الإسلامية تجاوز شعراء الفئتين المتناقضتين استخدام التضاد كألفاظ مفردة داخل التركيب في البيت والبيتين من القصيدة، إلى إيراد كنعن في تضاد مع نص آخر من حيث القيم المتصارعة، ليسود ما يستحقّ البقاء، ويتنحى ما تقادم، فكان مصيره الزوال والفناء.

7- ويبدو لنا أنّ التّضادّ حين يكون لازمة من لوازم لغة الشّاعر الكبير، فإنّه يترجم به عمّا يعتمل في نفسه من مشاعر متناقضة، ويعبّر بواسطته عن عمق تجربته الشعريّة، وعن موقفه من الحياة، ونظرته إلى الكون؛ وهي أمور عزيزة في الشّعر تكفل له طول البقاء والخلود. فمن التّعسف بعد كلّ ما ذكرناه عدّ التّضادّ أو الطّباق مجرد محسنٍ بديعيٍّ معنويٍّ يُؤتَى به بعد أن يستوفي الكلام شروطه، لتحسينه وإضفاء الرّونق والجمال عليه لا غير.

وسيكون للتّضادّ فرصة أخرى للإبانة عن أهمّيته في الشّعر، في العصر العبّاسي، حين ينتقل العرب المسلمون من البداوة إلى الحضارة، فتتمازج الثقافات وتتصارع، ويجد الشّعر العربي نفسه في خضمّ معركة القديم والجديد؛ وتلك فكرة تحتاج إلى مزيد من البلورة والتّقصّي من أيّ باحثٍ يبتغي الكشف عن دلالات التّضادّ التّربّيّة.

فهرس الأعلام

-أ-

- الأخفش: 3.
-أربد بن قيس: 24، 104، 105.
-أسامة بن منقذ: 10، 14.
-أسماء: 43.
-الأصمعي: 2، 3، 5، 6، 7، 21، 22، 43.
-الأعشى ميمون: 60، 61، 62، 63، 64، 114.
-الأفوه الأودي: 8.
-الأقرع بن حابس التميمي: 104.
-امرؤ القيس: 23، 30، 31، 32، 33، 38، 114.
-أمّ أوفى زوجة زهير: 50، 51.
-أمية بن أبي الصلت: 80.
-أمية بن خلف: 79.
-الأنطاكي محمد: 22.
-الأوس: 72، 78، 79، 80، 84، 85، 86، 87، 88.
-أوس بن حجر: 50.
-أولمان: 21.
- ب-
- بجير بن زهير: 50، 97، 98.
-البحثري: 8، 9، 14.
-اليسوس: 40.
-بشار بن برد: 3، 4، 5.
-بشامة بن الغدير: 50.
-بكر بن وائل: 39، 43، 45، 46، 62.
-بنو أسد: 24، 33.
-بنو بدر: 50.
-بنو بكر عبد مناة بن كنانة: 96.
-بنو تميم: 101، 102، 104.
-بنو عامر: 104.
-بنو عبد الدار: 91، 93.
-بنو قريظة: 87.
- الأمدي: 8، 10.
-ابن أبي الإصبع المصري: 11، 14، 18.
-ابن الأثير: 11.
-ابن الأعرابي: 2.
-ابن الأنباري: 22، 23.
-ابن حجة الحموي: 19، 20.
-ابن درستويه: 22.
-ابن دريد: 7.
-ابن رشيقي: 7، 9، 10، 17، 21، 22.
-ابن السكيت: 22.
-ابن سنان الخقاجي: 10، 15.
-ابن قتيبة: 3.
-ابن المعتز: 3، 4، 5، 7، 8، 9، 14، 113.
-أبو بكر الصديق: 72، 73، 78، 79، 107.
-أبو تمام: 2، 5، 8، 9.
-أبو حاتم السجستاني: 7، 22، 23.
-أبو ذؤيب الهذلي: 24.
-أبو سفيان بن الحارث: 72، 75، 91، 92، 96.
-أبو سفيان بن حرب: 64، 76، 96.
-أبو سلمى ربيعة بن رباح: 50، 98.
-أبو الشغب العبسي: 8، 18.
-أبو صخر الهذلي: 13.
-أبو الطيب اللغوي: 22.
-أبو الطيب المنتبي: 19.
-أبو عبيدة: 3، 23.
-أبو عدي: 16.
-أبو عليّ الفارسي: 23.
-أبو عمرو بن العلاء: 2.
-أبو نواس: 4، 5.
-أبو هلال العسكري: 10، 12، 14، 17.
-أبو يعقوب السكاكي: 11، 12.

-حمزة بن عبد المطلب: 78، 79، 83،
84، 85، 86.

-خ-

-خالد بن الوليد: 90، 95.
-الخرنق أخت طرفة: 39.
-خزاعة: 96.
-الخرزج: 72، 75.
-الخطيب القزويني: 12، 15.
-الخليل بن أحمد: 5، 6، 7، 21.
-الخنساء أخت زهير: 50.
-خولة: 35.

-د-

-دعبل الخزاعي: 9.

-ذ-

-ذبيان: 50، 51، 52، 54، 55.
-ذوقار: 62.

-ر-

-الراعي: 3.
-ربيعة بن مالك العامري: 64.
-رجاء عيد: 15.
-الرماني: 10.
-ز-
-الزبرقان بن بدر: 101.
-زبيبة أم عنتره: 46.
-الزَمْخْشَرِيّ: 10، 12.
-زهير بن أبي سلمى: 7، 50، 51، 52،
55، 59، 98، 98، 99، 114.
-زيد بن حارثة: 94، 95، 100.

-س-

-سعد بن أبي وقاص: 78، 79.
-سعد بن معاذ: 87، 88، 89، 90.
-سعاد: 98.
-سلمان الفارسي: 87.

-بنو مرة: 50، 51.

-بنو النجّار: 78، 79، 80، 84، 85، 86،
88.

-بنو النضير: 82، 86.

-البوصيري: 15.

-ت-

-تغلب بن وائل: 39، 40، 41، 42، 43،
44، 45.

-التهماني: 13.

-ث-

-ثابت بن قيس الخزرجي: 101.

-ثعلب أبو العباس: 7، 8.

-ثقيف: 80، 101.

-ج-

-جبريل عليه السلام: 87، 91، 92.

-الجاحظ: 2، 3، 4، 5، 6.

-جرهم: 51، 52.

-جرير: 18.

-جعفر بن أبي طالب: 93، 94، 95، 96.

-ح-

-الحارث بن حنّرة: 43، 45، 46.

-الحارث بن عوف: 50، 51.

-الحارث بن هشام: 77، 82.

-حازم القرطاجني: 11، 16، 17، 18،
113.

-حجر بن الحارث الكندي: 33.

-حسان بن ثابت: 72، 73، 75، 78، 85،

86، 91، 92، 95، 102، 103، 104،

107، 109، 110، 111.

-الحسن البصري: 17.

-الحسن بن وهب: 3.

-حصن بن حذيفة: 51.

-سلمي أخت زهير: 50.
-سنان بن أبي حارثة: 50.
-ش-
-شدّاد أبو عنتره: 46.
-الشّريف الرّضيّ: 19.
-شيبه بن ربيعة: 79، 80، 81، 83.
-ص-
-الصّغانيّ الحسن بن محمّد: 20.
-صفيّ الدّين الحلّيّ: 14، 20.
-ض-
-ضمضم المرّيّ أبو هرم وحصين: 49.
-ضرار بن الخطّاب: 75، 78، 88.
-ط-
-طرفة بن العبد: 34، 35، 37، 38، 39.
-الطرّمّاح بن حكيم: 16.
-ع-
-العاصي بن منبه: 77.
-عامر بن الطّفيّل: 104، 105.
-عامر بن لؤي: 79، 80.
-عامر بن مالك أبو براء العامريّ: 64.
-عبد الرّحمن البرقوقيّ: 19.
-عبد القاهر الجرجانيّ: 10، 28.
-عبد الله بن رواحة: 75، 83، 91، 94، 95.
-عبد الله بن الزّبير: 75، 77، 84، 85، 96.
-عبس: 46، 47، 49، 51، 52، 56.
-عبلة بنت مالك: 46، 47، 48، 49.
-عبيد بن الأبرص: 33، 34.
-عتبة بن ربيعة: 79، 80، 81، 83.
-العتّابيّ: 3.
-عثمان بن عقان: 78، 79.

-عديّ بن ربيعة (مهلهل): 39، 45.
-عطارد بن حاجب بن زرارة: 101.
-عقمة بن سيف: 41، 42.
-عقمة بن عبدة: 74.
-عليّ بن أبي طالب: 78، 79.
-عليّ بن عبد العزيز الجرجانيّ: 9، 10.
-عمر بن الخطّاب: 50، 78، 79.
-عمرو بن الحارث الغسّانيّ: 56، 74.
-عمرو بن العاص: 90.
-عمرو بن كلثوم: 17، 39، 40، 43، 45، 46.
-عمرو بن هشام أبو جهل: 77، 79، 80.
-عمرو بن هند: 34، 39، 40، 43، 45.
-عمير بن عثمان التّيميّ: 79، 80.
-عنتره بن شدّاد: 46، 47، 49.
-غ-
-غطفان: 87.
-ف-
-فخر الدّين الرّازيّ: 11.
-الفرزدق: 13، 24.
-فهر (قريش): 102.
-ق-
-قدامة بن جعفر: 7، 8، 9، 10، 14، 16.
-قريش: 51، 52، 63، 64، 70، 72، 75، 77، 78، 81، 82، 83، 84، 85، 87، 90، 91، 93، 96، 100، 111.
-قطرب أبو عليّ: 20، 22.
-ك-
-كبشة زوجة زهير: 50.
-كعب بن الأشرف: 75، 82، 83.
-كعب بن زهير: 50، 97، 98، 100، 101.
-كعب بن مالك: 75، 79، 82، 89، 91.

-سلمي أخت زهير: 50.
-سنان بن أبي حارثة: 50.
-ش-
-شدّاد أبو عنتره: 46.
-الشّريف الرّضيّ: 19.
-شيبه بن ربيعة: 79، 80، 81، 83.
-ص-
-الصّغانيّ الحسن بن محمّد: 20.
-صفيّ الدّين الحلّيّ: 14، 20.
-ض-
-ضمضم المرّيّ أبو هرم وحصين: 49.
-ضرار بن الخطّاب: 75، 78، 88.
-ط-
-طرفة بن العبد: 34، 35، 37، 38، 39.
-الطرّمّاح بن حكيم: 16.
-ع-
-العاصي بن منبه: 77.
-عامر بن الطّفيّل: 104، 105.
-عامر بن لؤي: 79، 80.
-عامر بن مالك أبو براء العامريّ: 64.
-عبد الرّحمن البرقوقيّ: 19.
-عبد القاهر الجرجانيّ: 10، 28.
-عبد الله بن رواحة: 75، 83، 91، 94، 95.
-عبد الله بن الزّبير: 75، 77، 84، 85، 96.
-عبس: 46، 47، 49، 51، 52، 56.
-عبلة بنت مالك: 46، 47، 48، 49.
-عبيد بن الأبرص: 33، 34.
-عتبة بن ربيعة: 79، 80، 81، 83.
-العتّابيّ: 3.
-عثمان بن عقان: 78، 79.

-التَّعْمَانُ بن المنذر أبو قابوس: 56، 57،
58، 59.

-ه-

-آل هاشم: 64، 72، 73، 95، 96.
-هرقل: 94.

-هرم بن سنان: 50، 51.

-هريرة: 60.

-هند بنت عتبة بن ربيعة: 83، 84.

-و-

-وحشي: 83.

-وردة أمّ طرفة بن العبد: 34.

-الوليد بن عتبة بن ربيعة: 83.

-ي-

-يزيد بن مسهر الشيباني: 62.

-كعب بن لؤي بن غالب: 79، 80، 82.

-كلثوم بن مالك: 39.

-كليب وائل بن ربيعة: 39، 45.

-كنانة: 89.

-ل-

-ليبيد بن ربيعة: 24، 64، 65، 69، 104،

105، 106، 107.

-إيلي بنت مهلهل بن ربيعة: 39، 45.

-ليونز: 26، 27.

-م-

-محمد بن عبد الله بن عبد المطلب(ص):

46، 63، 64، 70، 72، 78، 79، 83،

84، 85، 88، 90، 91، 92، 93، 96،

98، 107، 108، 110، 111.

-مالك أبو عبله: 47.

-المتجرّدة زوجة التَّعْمَانُ بن المنذر: 56.

-محمد بن عبد الملك الزيات: 3.

-مرّة بن كلثوم: 45.

-مسلم بن الوليد: 4، 5.

-المضرب بن كعب بن زهير: 50.

-معبد أخو طرفة: 37، 39.

-المقنع الكندي: 18.

-منبه بن الحجاج بن عامر: 77.

-المنذر بن التَّعْمَانُ: 45.

-منشم: 52.

-منير سلطان: 15.

-ميّة: 57.

-ن-

-نابغة بني جعدة: 7.

-النابغة الذبياني: 55، 56، 58، 59، 74،

100.

-نبيه بن الحجاج بن عامر: 77.

-نوار: 65، 66.

فهرس الأماكن

- أ-
أحد: 83، 84، 85، 86، 88، 91.
الأندرين: 39، 40.
- ب-
البحرين: 39.
بدر: 76، 77، 78، 79، 81، 82، 83، 84، 91.
البدوي: 67.
بردى: 74.
البريص: 74.
بيشة: 104.
- ت-
تبوك: 97.
- ث-
ثهد: 35.
- ج-
جرثم: 51.
جلق: 74.
الجواء: 47، 91.
- ح-
الحبشة: 93.
الحديبية: 90، 91، 96.
حنين: 97.
حومل: 30.
الحيرة: 34، 39، 55، 56، 100.
- خ-
الخلصاء: 43.
خيبر: 93.
- د-
الدخول: 30.
الدراج: 51.
- ذ-
ذات الأصابع: 91.
الذنوب: 33.
- ر-
الرجام: 65.
- ش-
الشام: 40، 55، 56.
شبه الجزيرة العربية: 60، 69، 76، 87.
شماء: 43.
- ص-
الصاقب: 44.
- ط-
الطائف: 97.
طيبة: 107.
- ع-
عثر: 7، 100.
عكاظ: 60.
عذراء: 91.
- ف-
الفرات: 59.
- ق-
القطيبيات: 33.
- ك-
كداء: 92.
- م-
مؤتة: 94، 95.
المنتلم: 51.
المدينة المنورة: 72، 73، 75، 82، 86، 87، 91، 93، 95، 97، 98.
مكة المكرمة: 63، 70، 72، 73، 75، 76، 81، 82، 85، 87، 90، 91، 93، 96، 97، 100، 111.
ملحة: 44.
ملحوب: 33.
منى: 65.
منفوحة: 60، 64.
- ي-
يثرب: 73، 79، 82، 85، 95.
يذبل: 31.
اليمامة: 60، 64.
اليمن: 74.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- القرآن الكريم
- 2- الأمدي الحسن بن بشر
الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق السيّد أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ط. 1965.
- 3- ابن الأنباري أبو بكر محمد بن القاسم
كتاب الأضداد، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت (لبنان)، ط. 1998.
- 4- ابن حمزة العلوي يحيى
الطراز، مكتبة المعارف، الرياض (المملكة السّعودية)، ط. 1980.
- 5- ابن رشيق أبو عليّ الحسن
العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت (لبنان)، ط. 5، 1981.
- 6- ابن سلام محمد الجمحيّ
طبقات فحول الشّعراء، محمود محمد شاكر، دار المدنيّ بجدة (المملكة السّعودية)، (دون تاريخ).
- 7- ابن سنان الخفاجيّ أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد
سرّ الفصاحة، شرح وتصحيح عبد المتعال الصّعيديّ، مطبعة عليّ صبيح وأولاده (مصر)، ط. 1969.
- 8- ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدّينوريّ
الشّعر والشّعراء، تحقيق محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت (لبنان)، ط. 2، 1986.
- 9- ابن المعتزّ أبو العباس عبد الله
البدیع، تحقيق إغناطيوس كراتشكوفسكي، دار المسيرة، بغداد (العراق)، ط. 1979.
- 10- ابن منظور جمال الدّين محمد بن مكرم
لسان العرب، دار صادر ودار بيروت، بيروت (لبنان)، ط. 1968.
- 11- ابن هشام المعافريّ أبو محمد عبد الملك
السيرة النبويّة، تحقيق محمد عليّ قطب ومحمد الدّالي بلطه، المكتبة العصرية، بيروت (لبنان)، ط. 1998.
- 12- ابن يعيش أبو البقاء موقّق الدّين
شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت (لبنان)، (دون تاريخ).
- 13- أبو زيد القرشيّ محمد بن أبي الخطّاب
جمهرة أشعار العرب، دار بيروت للطباعة والنّشر، بيروت (لبنان)، ط. 1980.

- 14- أحمد إبراهيم موسى
الصَّبغ البديعيّ في اللّغة العربيّة، دار الكاتب العربيّ للطباعة والنّشر
بالقاهرة (مصر)، ط. 1969.
- 15- أحمد مختار عمر
علم الدّلالة، مكتبة دار العروبة للنّشر والتّوزيع، الكويت، ط1، 1982.
- 16- الأَعشى ميمون
ديوان الأَعشى، شرح عمر فاروق الطّبّاع، دار القلم، بيروت (لبنان)، (دون
تاريخ).
- 17- الأَعلم الشّنتمريّ يوسف بن سليمان بن عيسى
أشعار الشّعراء السّنة الجاهليين، تحقيق لجنة إحياء التّراث العربيّ،
منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت (لبنان)، ط2، 1981.
- 18- امرؤ القيس بن حجر الكنديّ
شرح ديوان امرؤ القيس للأَعلم الشّنتمريّ، تصحيح الشيخ ابن أبي شنب،
الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط. 1974.
- 19- البحتريّ أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى الطّائيّ.
ديوان البحتريّ، تحقيق وشرح حسن كامل الصّيرفيّ، دار المعارف بمصر،
ط2، 1973.
- 20- بطرس البستانيّ
أدباء العرب في الجاهليّة وصدور الإسلام، دار نظير عبّود، بيروت (لبنان)،
ط. 1989.
- 21- تمّام حسّان
الأصول، دار الثقافة، الدّار البيضاء (المغرب)، ط1، 1981.
- 22- ثعلب أبو العباس أحمد
قواعد الشّعْر، تحقيق رمضان عبد التّوّاب، دار المعارف، القاهرة (مصر)،
ط. 1956.
- 23- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر
البيان والتّبيين، تحقيق عبد السّلام محمّد رمضان، مؤسّسة الخانجي بالقاهرة
(مصر)، ط3، (دون تاريخ).
- 24- الجرجانيّ عبد القاهر
دلائل الإعجاز، موفم للنّشر، الجزائر، ط. 1991.
- 25- الجرجانيّ عليّ بن عبد العزيز
الوساطة بين المتنبّيّ وخصومه، تحقيق محمّد أبي لفضل إبراهيم وعليّ
محمّد البجاويّ، مطبعة عيسى البابي الحلبيّ (مصر)، ط4، 1966.

- 26- حازم القرطاجيّ
منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الجيب ابن الخوجة، دار الغرب
الإسلامي، بيروت (لبنان)، ط2، 1981.
- 27- حسّان بن ثابت
شرح ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري، عبد الرّحمن البرقوقي، دار
الأندلس، بيروت (لبنان)، ط. 1980.
- 28- الخطيب التبريزي أبو زكريّا يحيى بن عليّ
شرح القصائد العشر، ضبط وتصحيح عبد السّلام الحوفي، دار الكتب
العلميّة، بيروت (لبنان)، ط2، 1987.
- 29- الخطيب القزويني جلال الدّين محمد بن عبد الرّحمن
الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خقاجي، دار الكتاب
اللبناني، بيروت (لبنان)، ط6، 1985.
- 30- الرّازي محمد بن أبي بكر
مختار الصّحاح، ضبط وتعليق مصطفى ديب البغا، دار الهدى، عين مليلة
(الجزائر)، ط4، 1990.
- 31- ربحي كمال
التّضادّ في ضوء اللّغات السّامية، دار التّهضة العربيّة، بيروت (لبنان)،
ط. 1975.
- 32- رجاء عيد
في البلاغة العربيّة، مكتبة الطليعة، أسيوط (مصر)، (دون تاريخ)
- 33- الزّمخشريّ جار الله أبو القاسم محمود بن عمر
تفسير الكشّاف، تحقيق محمد مرسي عامر، دار المصحف، القاهرة
(مصر)، ط2، 1977.
- 34- زهير بن أبي سلمى
ديوان زهير بن أبي سلمى، كرم البستاني، دار بيروت، بيروت (لبنان)،
ط. 1979.
- 35- الرّوزنيّ أبو عبد الله الحسين بن أحمد
شرح المعلقات السّبع، تقديم ظافر كوجان، دار اليقظة العربيّة، بيروت
(لبنان)، ط. 1969.
- 36- السّجستانيّ أبو حاتم سهل بن محمد
كتاب الأضداد، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، مكتبة التّهضة المصريّة،
القاهرة (مصر)، ط. 1991.
- 37- سعد زغول عبد الحميد
في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار التّهضة العربيّة، بيروت (لبنان)،
ط. 1976.

- 38- السكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر
مفتاح العلوم، دار الكتب العلميّة، بيروت (لبنان)، (دون تاريخ).
- 39- ضيف شوقي
البلاغة تطوّر وتاريخ، دار المعارف بمصر، ط2، (دون تاريخ)
- 40- طرفة بن العبد
ديوان طرفة بن العبد، كرم البستانيّ، دار بيروت، بيروت (لبنان)،
ط. 1979.
- 41- عبد الرّحمن البرقوقيّ
شرح ديوان المتنبيّ، دار الكتاب العربيّ، بيروت (لبنان)، ط. 1980
- 42- عبد العزيز عتيق
علم البديع، دار النهضة العربيّة، بيروت (لبنان)، ط. 1974.
- 43- عبيد بن الأبرص
شرح ديوان عبيد بن الأبرص، كرم البستانيّ، دار بيروت، بيروت (لبنان)،
ط. 1979.
- 44- عمرو بن كلثوم
شرح ديوان عمرو بن كلثوم، عبد القادر محمّد مايو، دار القلم العربيّ،
حلب (سوريا)، ط1، 1999.
- 45- عنتر بن شدّاد
شرح ديوان عنتر بن شدّاد، عبد المنعم عبد الرّؤوف شلبي، دار الكتب
العلميّة، بيروت (لبنان)، ط. 1980.
- 46- الغلابيني مصطفى
رجال المعلقات العشر، المكتبة العصريّة، بيروت (لبنان)، ط. 1990.
- 47- الفرزدق همّام بن غالب التميميّ
شرح ديوان الفرزدق، إيليا حاوي، منشورات دار الكتاب اللبذاتي ومكتبة
المدرسة، بيروت (لبنان)، ط1، 1983.
- 48- قدامة بن جعفر أبو الفرج
نقد الشّعْر، تحقيق محمّد عبد المنعم خقاجي، دار الكتب العلميّة، بيروت
(لبنان)، (دون تاريخ).
- 49- ليبيد بن ربيعة
ديوان ليبيد بن ربيعة العامريّ، دار صادر، بيروت (لبنان)، ط. 1966.
- 50- محمّد الأنطاكيّ
الوجيز في فقه اللغة، مكتبة دار الشّرق، بيروت (لبنان)، ط3،
(دون تاريخ).
- 51- محمّد زكي العشماويّ
النابعة الديبانيّ، دار النهضة العربيّة، بيروت (لبنان)، ط. 1980.

- 52- محمّد عزّام
قضية الالتزام في الشعر العربي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر،
دمشق (سوريا)، ط1، 1989.
- 53- محمّد محمّد حسين
الهجاء والهجاؤون في الجاهلية، دار النهضة العربية، بيروت (لبنان)،
ط3، 1970.
- 54- محمّد عليّ سلطاني
البلاغة العربية في فنونها، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق (سوريا)،
ط. 1980.
- 55- المرزبانيّ أبو عبد الله محمّد بن عمران
الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق محمّد عليّ البجاويّ، دار
نهضة مصر، ط. 1965.
- 56- مطلوب أحمد
معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مطبعة المجمع العلميّ العراقيّ،
بغداد (العراق)، ط. 1983.
- 57- منير سلطان
البيدع تأصيل وتجديد، منشأة المعارف بالإسكندرية (مصر)، ط. 1986.
- 58- النابعة الديبانيّ معاوية بن ضباب
ديوان النابعة الديبانيّ، تحقيق وشرح محمّد الطاهر ابن عاشور، الشركة
التونسيّة للتوزيع والشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط. 1976.
- 59- الهذانيّ عبد الله بن عيسى
الألفاظ الكتابيّة، الدار العربيّة للكتاب، ط. 1980.
- 60- عبد الرّحمن الحاج صالح
مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة في علم اللسان البشريّ، معهد العلوم
اللسانيّة والصوتية، جامعة الجزائر، المجلد الثاني، العدد 1، 1972.

المقدمة

1	الفصل الأول: مصطلح التّضادّ
2	أ- مصطلح التّضادّ ضمن فنون البديع
	ب- تحديد مصطلح التّضادّ عبر:
7	1- المستوى المعجميّ
12	2- المستوى التّحويّ
14	3- المستوى البلاغيّ
20	4- المستوى الدّلالّي

الفصل الثّاني: التّضادّ في شعر ما قبل الدّعوة الإسلاميّة (المعلّقات العشر)

29	1- معلّقة امرئ القيس بن حجر الكنديّ
30	2- معلّقة عبيد بن الأبرص
33	3- معلّقة طرفة بن العبد
34	4- معلّقة عمرو بن كلثوم
39	5- معلّقة الحارث بن حلّزة
43	6- معلّقة عنتره بن شدّاد
46	7- معلّقة زهير بن أبي سلمى
50	8- معلّقة التّابغة الدّيبانيّ
55	9- معلّقة الأعشى ميمون
60	10- معلّقة أبيد بن ربيعة
64	

الفصل الثّالث: التّضادّ في شعر الدّعوة الإسلاميّة أيام الرّسول ﷺ

71	1- شعر غزوة بدر (سنة 2هـ)
76	2- شعر غزوة أحد (سنة 3هـ)
83	3- شعر غزوة الخندق (سنة 5هـ)
86	4- قصيدة حسّان بن ثابت بعد صلح الحديبيّة (سنة 6هـ)
90	5- شعر غزوة مؤتة (جمادى الأولى سنة 8هـ)
94	6- شعر فتح مكّة (رمضان سنة 8هـ)
96	7- شعر سنة الوفود (سنة 9هـ)
97	أ- إسلام كعب بن زهير وقصيدة البردة في مدح الرّسول ﷺ
97	

- 101 ب- مناقضة حسّان شاعر تميم الزبرقان بن بدر
104 ج- رثاء ليبيد بن ربيعة لأخيه أربد
107 8- رثاء حسّان بن ثابت لرسول الله ﷺ

الخاتمة

- 112 فهرس الأعلام
116 فهرس الأماكن
120 قائمة المصادر والمراجع
121 فهرس البحث
126